#34

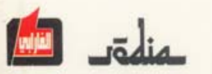
سلسلة فسيفساء

14.10.2018

بوعلام صنصال

حراقة

رواية



Boualem Sansal

Harraga

Roman

حـراقــة

بوعلام صنصال

حــراقــة

روايــة

ترجمة: عياش سلمان

الفارابي ـ سيديا

الكتاب: حراقة
المؤلف: بوعلام صنصال
الترجمة: عياش سلمان
تصميم الغلاف: ڤينوس نادر

الناشران

* دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107

e-mail: farabi@inco.com.lb
www.dar-alfarabi.com

* سيديا (SEDIA) فرع مجمع هاشت الفرنسي في الجزائر
ت: 21 00 48 21 (213) ـ 82 14 60 21 (213)
فاكس: 84 14 60 21 (213)
www.sedia-dz.com

الطبعة الأولى 2007
ISBN: 978-9953-71-246-8 ـ لبنان
ISBN: 978-9961-704-82-0 ـ الجزائر
Dépôt légal: 1165-2007

Ouvrage publié avec le soutien du Centre national du livre
(ministère français chargé de la culture).
نشر هذا الكتاب بمساعدة المركز الوطني للكتاب (وزارة الثقافة الفرنسية)

إلى روح دانيال برنار.

إلى القارئ

لو كانت هذه القصة من وحي الخيال لكانت من أروع القصص. كانت ستكون كقصة حبة القمح المزروعة في أرض خصبة كي تروي حكايات الحب والموت والبعث. وفوق كل ذلك، ففي كل صفحة من صفحاتها يوجد أشباح خفيفو الروح وأناس طيبون إلى الحد الذي يجعلنا نحملهم فوق الأكتاف.

ولكن هذه القصة واقعية، من بدايتها إلى نهايتها، الأشخاص والأسماء والتواريخ والأماكن، ولذلك فهي لا تعرّي إلا بؤس عالم فقد إيمانه وغابت فيه القيم ولم يبق له إلا التبجّح بمجونه وبكفره.

سيقرأها القارئ كما يحلو له، وقد يقرأها على الوجهين؛ فأهل الكتاب لا يقوون على التفريق بين الواقع والخيال.

يروي الكتاب قصة لامية، البنت التي ألقت بها الحياة في غيابات الوحدة، حيث تموت كما تموت حبة القمح وقد زرعت في الأرض ليتفتح فيها، في يوم من أيام صيف رائع، أروع ما في الحقيقة وما في الخيال: الحب.

إنّ أروع وأمتع ما في القصة هو أن يصغي إليها القارئ وهي ترويها بنفسها، وما تقوم به على مدى أربعة فصول هي في الواقع فصول السنة، وصولاً إلى خاتمة تنفتح فيها نافذة على المستقبل.

الفصل الأول

نهارك سعيد، أيها العصفور!

لما أُفْرِغت منّي حياتي
وانفلتتْ حبّاتُ الرمل بين أكفّي
وخيّم الصمت في روحي
إلى أمد بعيد
جاء عصفور وحطّ على كتفي.
"كوي كوي، كوي كوي... !
هكذا همس في مسامعي
وحلّق بمهارة وسعادة.
لم أعِ ما حصل لي.
ولما وعيتُ أنّ الكلام عيد
رميتُ سبحتي
ورقصتُ.

ما أجمل العصافير
ولكن واحسرتاه! للعصافير أجنحة
فكما تساعدها على أن تحطّ وتستقر
تساعدها أيضاً كي تطير وتطير.
وتلك مأساة العصافير.

أسمعُ على بابي طرقاً محيّراً. فباب شقتي لا يستجيب للطرق الخفيف مثل "دق دق"، بل للدّوي المهول مثل "بوم بوم". ومع أنها مصفّحة ومدرعة بالحديد إلا أن الأحداث تحملنا على التفكير في وقوع كل الاحتمالات.

فتحتُ وأنا أتوارى للاحتماء بالإطار، ونطق فيّ ردّ الفعل. "شكون؟ من الطارق؟" إنها ليست دورية الجيش ولا الوعّاظ المرشدون ولا المدافعون عن الحقيقة، ولا حتى الجارة الساكنة بشارع مارينغو، تلك الغولة الشمطاء الفجماء التي تأتي في كل مرة لاستقاء الأخبار، وهي تحمل قناعات أكل عليها الدهر وشرب؛ ولم يكن ما ننزعج منه حقاً، ولم يكن لحسن الحظ ساعي بريد الحي؛ موسى، الرجل الطيب الذي يسكن في منحدر فالي، وهو مرجع الحي أيضاً، فهو شخص ثرثار مهذار، يأتي كل يوم يزرع في مهب كل ريح نُذُر الخطر وحمى الفضول وتصفّح كل الأخبار، ولا يكاد يغيب إلا أوقات الاضطرابات والإضرابات، بل كانت فتاة في مقتبل العمر، وتلك هي المصيبة. أجابت:

"أنا!" ولكنني لا أعرف من تكون. كانت فتاة رقيقة ترتدي الثياب التي راج لبسها في حصة ستار أكاديمي. لقد كانت تحمل زادها ومتاعها وعليها صدرة تبدو عليها كالقناع، وكل ما عليها لائق ونظيف لولا الفوضى الضاربة أطنابها فيها. أما شعرها فكان يحمل آثاراً من جميع حضارات الإنسانية حتى آخر صرعة في موضة العصر.

أما المكياج فكان يغطي كل ملامحها، بينما عيناها السوداوان فكانتا تتقدان وبياضهما يشعّ حيوية، وحولهما سواد كحل تلفّه مساحة شاسعة خضراء اللون، ولم يكن ينقصها إلا سنبلة قمح أو شعير ليتهيأ للناظر أنها نازلة لتوّها من أقاصي الأرياف. أما رائحة العطر فيها فلا يضاهيها إلا سحاب تشرنوبل. إنها فضيحة متنقلة نجت من سخط الله بأعجوبة. كانت تحمل كيس سفر مثل الزوادة، التوى على جسد غضّ لبنت في السادسة عشرة أو بالكاد في السابعة عشرة لا أكثر، بحيث أن الكيس الذي تحمله قد تدلّى حتى بلغ أسفل ساقيها وكأنه جلد ثعبان فرغ الآن من استبداله. وبدت على شفتيها الشهيتين حمرة قانية في حين فترت منهما برطمة تبرّم وحيرة. ولإخفاء كل ذلك عن الأنظار تنهدت بكل أنفة وشموخ. أما مسك الختام، فكانت حاملاً منذ بضعة شهور وسُرّتها تفضح ذلك للعيان.

"- عمة لامية؟ نطقتْها بحدة وهي لم تكد تتجاوز متراً ونصف مترا!

- م م م.... ممكن!
- أنا شريفة!
- حسنٌ... ثم ماذا؟
- سفيان هو الذي أرسلني إليك. وأنا واصلة اللحظة من وهران.
- نعم؟؟!!
- ألم يهتف إليك؟
- م م ... كلا.
- هل تأذنين لي بالدخول؟
- م م ... إن شئت.
- شكراً.
- عفواً.
- الجوّ لطيف لديك.
- هذا رأيك".

وهكذا، وبهذه الطريقة تتسلل الزوابع إلى بيوتنا. لم يسبق لي أن تصورتُ أبداً ولا تصرّفت على أساس أن أفتح في يوم من الأيام بابي وحياتي لمثل هذه البلبلة والتشويش. فتحتُ بكل بساطة، لمجرد أن الناس تفتح أبوابها لما تُقرع. قد يساورنا التفكير في مقابلة أناس

غير لطفاء، ويعلم الله أن الحيّ يعج ويضيق بالناس الذين يجنحون للعنف بالفطرة وتعنيف الناس وتوبيخهم، وبالمهووسين معتادي الاغتصاب، وبرجال الدرك، حتى ليتخيل للمرء أن هؤلاء لا يعرفون وقتاً ولا يفقهون مبدأ. ولكن يحدث أحياناً أن نستسلم للحلم من باب الشعور بالطمأنينة والسكينة، ونتوقع حدوث المعجزة والعناية الإلهية التي تنزل علينا لتمنحنا جزاء صبرنا والثواب على الجلد، وقد نفكر في كل الطوارئ السارة التي تدور في خلد من لا يعرف إلا حياة ضنكاً.

بالمقابل، يوجد لدى كل منا إحساس دفين بدوافعه الغامضة والمبهمة والقوة الخارقة للأشياء المغيبة والأصوات القادمة من عوالم مجهولة والرغبة الجامحة التي تدعونا فجأة لولوج عالم ساحر وسبر أغواره. وكل ذلك يدفع بقوة أعتى وأعنف ممّا يقوى الخوف على كبحه وكبته.

لكن، والحق يُقال، فتحتُ الباب بطريقة آلية. فأنا هكذا، امرأة فيها عفوية واندفاع. بصورة آلية؟ ليس بالضبط على كل حال. فالأمل برؤية أخي وسماع طرقه على الباب لم يبرحني يوماً، وكل الأصوات تذكّرني

به، ولا أرى للعذاب نهاية، فأنا مدركة أن سفيان غادر الديار لكي لا يرجع أبداً.

قد يكون حسن التأدب والتربية عَوَقاً وعاهة أحياناً، وذلك يجعلنا نبدو في صورة طائر القطرس الضخم وقد وقع في سلة جندي الباشي بوزق. ومن باب المجاملة واللطف قدّمت مشروباً للضيفة الدخيلة ثم عشاء أو سحوراً على الأصح، بعد ذلك سلقت لها بيضة وزدتها برتقالة، ورحتُ أُصغي إلى ثرثرتها كالخرقاء. فهل كان لي في نهاية الأمر أن أرفض لها المبيت؟ كلا، فكرم الضيافة لا يمكن أن يتوقف عند حافة السرير. حتى هي نفسها لم تتح لي مهلة التفكير، فلقد لبست المتهتكة قميص النوم وأنا لم أفرغ بعد من تنظيف ما كان على طاولة الأكل. لكن ما دامت هي التي بدأت فما كان عليّ إلا أن أناولها مخدة وأتمنى لها ليلة سعيدة على إيقاع موسيقى خالته المسكينة دعوة إلى حفل. فلقد ضحكتْ كثيراً وتكلمتْ كثيراً، وفي كل مسألة. ولم تترك شاردة ولا واردة إلا خاضت فيها طولاً وعرضاً، عن الديك والحمار كما يُقال، وعن شباب أغنية الرّاي، وعمّا لم تسمع به شهرزاد المرأة المشهود لها بالأرق ولم تشهده. أما أنا فلقد فاتني القطار وأنا لم أبرح المحطة.

في الواقع، بقيتُ أرمقُ شيئاً غير موجود مع الإيهام بتركيز نظري على شفتي الثرثارة. ثم صار صوتها يثير فيّ الضجر والسأم، فلجأتُ إلى التفكير في لويزة، حبيبة قلبي، لويزة العزيزة. يا إلهي كم أنا مشتاقة إليها! ثم فيما فعل الزمان بأحلامنا وآمالنا.

صارت الساعة الثالثة فجراً، والليل يزحف نحو نهايته. أما الساعة القديمة التي تقوم بحراسة البهو فلم تعد ترن منذ مغادرة صاحبها الأول، ولكني كنت أفهمها، فهي تئن بالعادة وعلى فترات محددة ومضبوطة. لقد حاولت عبثاً، ثلاث مرات، أن تُصدر ما يشبه الصوت أو الحس. بعد ذلك خفّت ثرثرة الشابة وخفَتَتْ وانتثرت كالسحاب فوق رؤوسنا ثم تلاشت في أجواء فسيحة وانقشعت، ثم حلّ السكون والصمت الحقيقيان، ثقيلان كالجماد، يطقطقان في جميع الأرجاء. إثر ذلك دخلنا في تلك الأوقات التي لم تصبح ملكاً لنا حقاً، حيث لا يصل الروح بالجسد إلا ما يشبه الخيط الرفيع، وخلدتْ الضيفة المجهولة إلى النوم وغار جسدها في جسم الكنبة والوسائد الملونة بألف لون ولون. وهكذا استسلمت المسكينة للنوم العميق وقد ربّعت يديها وفغرت فاها وحتى ساقيها بعد أن أذاقتني ويلات الحماقات وسقتني كؤوس الجهالات. لقد بدت في وِضْعة الجسم التي كانت

عليها كالمستهترة لو لم تكن طبيعية وعفوية. وصارت تبدو لمن يراها نائمة طريفة أكثر ما تكون صاحية، كذلك كان من السهل أن أتصور أن لها عالمها الخاص بها حصراً، بعيداً جداً عن عالمنا، حيث لا تنقصها إلا الجنّيات وفتى الأحلام، وكل ما حولها من كومبارس ومتقمصي الأدوار الثانوية والساحرات الجشعات والأشرار لا وجود لهم في القصة ولا دور يؤدونه سوى متعة مشاهدتهم مدحورين في عالم عامة الحالمين.

إنني أعرف كل شيء عن الليالي الطوال المكرّسة للصمت ولعبة البحث في دواخل الذات. ثم فجأة، أجد نفسي فاقدة كل المعالم التي أسترشد بها، وأبدأ بجهل حتى الأحاسيس لديّ، فأصبح غير مدركة كيف أفكر ولا أعرف كيف أتصرف؛ لقد فقدتُ وتيرة من أدمن حياة الوحدة والانزواء الثقيلة. أحسستُ بمدى ضعفي وقلة حيلتي، وسكنني هاجس عدم التحكم في إيقاع حياتي، كما لو أنه قد خانني الصبر، أو إن شئت، انتابني الفضول الشديد. إنه الانزعاج، وأيّ انزعاج! أن يلج الناس عالماً آخر، إنه الخطر الذي يحدق بمن يبغض البشر ولا يطيق الاختلاط بالمجتمع.

حسنٌ. سأبحث عن كتاب أقرأه أو برنامج في التلفزيون أشاهده، ولا بد أن أجد فكرة تساعدني على

النوم، إذ في مثل هذه الساعة تكون كل الوسائل مقبولة للاسترخاء والخلود. وفي الصباح، وبمجرد مغادرة الفراش يجب على الفتاة المتعجرفة والفاجرة أن توضّح لي ثلاثة أمور في غاية الأهمية:

أولاً : مَنْ تكون؟

ثانياً : مِنْ أين جاءت؟

ثالثاً : إلى أين تذهب؟

لا أرى شيئاً آخر يمكن أن أضيفه، فالأمور حدثت بهذا الشكل، والسلام. أمّا أن أقول فيما بعد، ماذا يمكن أن أزيد أو أنقص؟ الانطباعات، والخلفيات، والتكرار والاجترار، والسكوت المحير والمرتاب، فهذه كلها لن تجدي نفعاً. بل على العكس تماماً، فكل ذلك ينتزع من الحادث قيمته، والحادث في حد ذاته مفاجأة مؤثرة ومثيرة: فلقد ظهر خبر سفيان واختار أن يقوم بذلك من خلال هذه البنت الغريبة الأطوار.

كان ذلك اليوم يوم الرتابة كسائر الأيام الأخرى، ويوم الشكوك المؤلمة، ولم أكن أدري ماهية الاضطرابات التي تنتظرني بعد قليل. والأدهى من ذلك أنني لم أكن أرى الطريقة التي تجعلني أتخلص من هذه البنت. ولكن، هل تراني كنت أرغب في ذلك حقاً؟ ومع ذلك فالمشكلة ليست مطروحة بهذه الصورة، فوجود هذه الشابة التافهة عبارة عن ضربة مكنسة سوف

تزلزل كياني وتثير فيّ الرغبة الشديدة في الدفاع والاستبسال. إني أحسّ بكل ذلك، وأدرك حتميته وضرورته. فها هي حياة أخرى تأتي لتزرع في حياتي وتلتهمها من الداخل وتهضمها، وتحيد بها عن طريقها المرسوم لها.

يا إلهي، إلى أي مدى نمتلك ناصية حياتنا حقيقة؟

نظرتُ ملياً إلى البنت المجهولة. كانت تغطّ في نوم الحوريات، كانت عذبة وممشوقة القوام، وزادها ثغرها البسام مسحة من جمال البنت المدللة. أما كل ما كان حولها من ألوان الوسائد والنور الخافت وكثافة السكون والهدوء والقرقرة المألوفة الخارجة من الأعماق، وعذوبة البُنَيّة زاد الجو سحراً وبهاء لتتشكل صورة السعادة، تلك السعادة الهادئة التي تنفخ فينا جمالاً ودعة. ولو كانت الملائكة تغفو وتنام لكانت على هذه الصورة، صورة شريفة السابحة في نعيم أحلامها. ولو كانت الشياطين تخلد إلى النوم لكان لها بلا شك هذا الشكل. ولا أرى في الوجود سبباً يحملنا على الاعتقاد بأن الأخيار والأشرار لا يجدون نفس اللذة وذات المتعة في نوازعهم الطبيعية.

لم أفهم كيف حدث كل ذلك. فبمجرد أن غادرت البنت المجهولة الفراش حتى كانت قد قلبت كل ما في البيت رأساً على عقب ونشرت هنا وهناك قضّها وقضيضها. يوجد مِنَ الناس من ليس في حاجة للاستقرار لكي يشعر بأنه في بيته لوحده. أما قاعة الحمام، قاعة الحمام الخاصة بي فصارت خراباً! ووجدتني أصيح بأعلى صوتي في النهاية: "ما هذا الكرنفال؟" ولا أذكر أنني فعلتُ أمراً شنيعاً كهذا لبيتي حتى في حالات الإحباط القصوى التي كانت تنتابني أحياناً. ومع ذلك لم تكن هذه البلهاء الثرثارة لتتوقف حتى تستأنف اللف والدوران، فكنت ألمح خيالها وهي تركض من هنا وهناك، تشعل المصابيح وتعذّب الراديو وتتصفح التلفزيون وتلملم خرقي وأثوابي وتفتش في كل الزوايا لتظهر في الأخير وقد علتها سحنة تشبه مظهر سائح وكالة السفر الذي يكتشف في نهاية المطاف أنه كان مخطئاً على طول الخط. وصار الأمر أمراً واقعاً عندما ردّت عليّ متسائلة: "ما هذا الكرنفال؟" لقد قُضي الأمر، أصبحتُ غريبة الأطوار والديار. ورمقتني

بنظرة كمن يصدّ امرأة تتبضّع وتطلب خضراً خارج موسمها. وهكذا رحتُ على طريقتها، أتناول فطور الصباح مكتفية بالبسكويت، واقفة أمام الثلاجة. ونفضت ما علق على صدري من فتات غير مكترثة بجحافل نمل الحديقة الذي كان بالأمس هاجسي وكابوسي الأول، ولم أكن أقوى على وقف زحفه على أعتاب المطبخ إلا بالإكراه وبالنقاوة.. وبالكثير من مبيدات الحشرات. وهكذا استسلمتْ روائحي العتيقة، التي لها تاريخ راسخ في ذاكرتي، أمام إشعاعات عطر هذه البنت الوسخة والرائحة المثيرة للأعصاب التي تفوح من شابة تتغير وتنمسخ في الفوضى. لقد كان كل كياني يغلي كالمرجل من الحنق والتقزز لسلبيتي واستسلامي. ولكن، كنت رغم ذلك، إن لم يكن يخدعني إحساسي، مبتهجة لوجودها معي. لقد بدأ يدب في روحي شعور الأخت الكبرى التي لا تكل ولا تمل من ملاحقة أختها الصغرى العفريتة بالوعد والوعيد.

إن لكل جديد سحراً خاصاً، ولكنه يزعجنا عندما يكرهنا على التغير. كنت مذعورة ثم أصبحت مهتمة. فما كل معتقداتنا وعاداتنا في نهاية الأمر إلا ما ألفناه دوماً وتعودنا عليه، ليصبح مع العادة آخر شيء بقي لنا لنتشبث به. ولكن ما يحز في النفس حقاً ويزيدها كمداً هو أن تكتشف المرأة فجأة أنها صارت عانساً. لقد

كانت شريفة ترعبني وترهبني بتشويشها وتسحرني وتأسرني بفوضاها.

ولكن، إذا كان للتأثر وقت فإن لردة الفعل أوقاتاً.

"اسمعي يا جميلتي، لك أن تسرحي وتمرحي كيفما شئت ولكن عليك أن تعلمي أين؟ مَنْ أنت، ومِنْ أين أتيتِ، وإلى أين تمضين هكذا؟ ثم، قولي لي كيف تسنّى لك التعرف على أخي الأحمق؟ وما هذا البطن الممتلئ؟ ولتعلمي أن هيئة الهيفاء التي أنتِ عليها لن تخلصك مني!

- ولكن، عمة، لماذا تتعصبين؟

- لست عمتك، ولا زوجة عمك!

- كيف تحبين أن أناديك؟

- ها، هكذا، بهذه البساطة! إذن لا تناديني إطلاقاً، قولي آنسة!

- ولكن، ألستِ أكبر من ذلك؟

- ها! هكذا؟"

طيب يجب ألا أثير جدلاً آخر تافهاً وغير مجدٍ، لا سيما وأن نتيجته لن تكون في صالحي.

تبدو الأمور أحياناً في غاية البساطة مع السذّج، لكن المهمّ ألا نعقّدها فوق اللزوم. والوضعية واضحة

وضوح الشمس، فشريفة عبارة عن بنت ضائعة من ضمن كل البنات تعرّفت في وهران على أخي، ذلك الأبله، الذي كان ضائعاً هو الآخر. وفي لج حياة الضياع والبؤس قاما بتبادل النظرات والقبلات، لا شك في ذلك، ومع ما يتبعها من كوارث وويلات. إن البنت لا تنقصها الشجاعة إطلاقاً ولكنها ظلت محتفظة ببعض الحشمة والوقار، وهي لم تقل شيئاً عن بطنها الصغير. من يكون صاحب البُضع الموضوع فيه، أيمكن أن يكون الروح القدس؟ المهم، لا تهمّ إلا عواقب الأمور. وبمجرد لمح البصر أقول إنه ابن خمسة شهور، لهذا عليّ أن أتوخى الحذر، فالمصائب آتية لا ريب، والبنت تبدو من النوع المعتاد على المشاكل، ولن أفاجأ بها إطلاقاً لو حدثت لي. أما سرّها الشائع فلتذهب ولتضعه حيثما تشاء. أقسم على هذا وأحلف!

أما سفيان فأعرفه وأعرف أسلوبه، وإنني أتخيل كلامه المعسول الذي يكون قد قاله لبنت وقعت في غرامه، فالوداع كان بهذا الشكل لا ريب:

"شريفة، قدري ألا أحطّ الرحال بوهران، بل مكتوب عليّ أن أواصل المشوار. أريد أن أجد الحرية والحياة السعيدة. وكل من سبقنا يقسم بالله أن هناك، في الغرب، جنات النعيم.

- أما هدفي أنا فالجزائر، العاصمة، حيث أعيش

كالأميرات. وصديقاتي في الدّوّار يحلمن بذلك ليل نهار. سوف أضع حملي عما قريب، وعليّ أن أرحل فوراً. انظر إلى بطني.. كل شيء ظاهر بيّن، أليس كذلك؟ وفي الدوار سيقطعون رأسي، بالتأكيد، لو دخلت عليهم أحمل صبياً على صدري.

– اذهبي إلى أختي، لامية، إن لها بيتاً واسعاً، وستكون هناك غرفة لك وحدك ومهد للمولود. إنها إنسانة طيبة، ولن ينقصك الدواء؛ وهي عجوز، معاندة ومتذمرة كشجر الصبار، ولكن ذلك في صالح الرضيع، سيشبّ على الاستقامة، أما أنا فأتوجه إلى طنجة لترقب الباخرة هناك. »

هكذا يتكلم أطفال الضياع.

ولكن كيف لنا نحن وقد كسرنا الكبر وغلبتنا الحكمة، أن نحدثهم وقد علمتنا الحياة منذ الأزل أن نسكت ونتظاهر بالفهم والاعتقاد؟

وبدل أن أتكلم معها رحتُ أعذبها. وكانت أسئلتي تنطلق بسرعة الرشاش من كل حدب وصوب إلى درجة إصابتها بالشلل، ولم تفهم ما المقصود وما الفائدة الحتمية من كل ذلك. وبينما كنت أنتظر منها قول

الحقيقة، كل الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة، انطلقت في البكاء والنحيب وهي تصدر شهيقاً ألعن من شهيق سمك الفقمة الخرساء، وانسكب الرمال المخضب لجفونها بشكل مثير للشفقة على صُدرتها. ثم فجأة، هبّت واقفة، وخرجت وصفقت الباب غضباً، وظل دوي الانفجار يرن في الجدران وقتاً طويلاً بعد مغادرتها. ولما توقّف الرنين شعرتُ بالحسرة وشرعتُ في البكاء، وانهمرت دموعي بغزارة.

وعادت في منتصف الليل. عند تمام دقات منتصف الليل، أو بعدها بقليل. وكانت تلك هي المُهلة التي حددتها لنفسي كي أنتحر على إثرها. شعرتُ بالذنب. فبعد تلك الساعة لن يكون متسع إلا للجثث وقاتليها للتسكع في شوارع المدينة. تركتُها تخرج وحيدة، ليلاً، في حيّ يخاف حتى قطاع الطرق والرعاع من رفقائهم. فتحتُ الباب بحركة واحدة وأنا مستعدة للموت غدراً. أوف! إنها هي، ومعها زوّادتها، وفيها شموخها وإباؤها. توجهتْ فوراً صوب الصالون، وهو غرفتها، دون أن تراني، أما أنا فقد تمالكتُ نفسي حتى لا أدق عنقها، هنا، في ردهة البيت. في المرة القادمة سأقتلها ببرودة دم وأنا مرتاحة الضمير، فمهما يكن، لنا في بيوتنا حق الاحترام والتقدير.

وعندما أوصدتُ الباب تهيأ لي أني لمحتُ من خلال أشجار الحور المتحركة التي تحرس الحيّ خيال شخص يتسلل في جنح الظلام.

وهذا خطب وكرب آخر، وفي غاية الجسامة.

في النهار وفي الليل
في الداخل وفي الخارج
والخطب الجلل
يرقب
وفي قبضته نَبْل

ضدّ اليقين
ضدّ القانون
والخطب الجلل
يضرب
وفي كُلاّبه شعلةٌ وَبْل

ها، على المرأة
ها، على الطفل
والخطب الجلل
يشب
وفي دبره ذيل

متربص

سعيد، جذل
يترصد الإنسان
يرقب
فريسته الثمينة

الخوف.

لست أدري إن كنت آسفة على وحدتي ووحدانيتي القديمة، أو على لياليّ الطوال الخالية التي قضيتُها أو نهايات الأسبوع الفارغة من كل نشاط، أو استرخائي الشهواني وشرودي المتشابك بالذهول والدهشة، أو هوس وهوى عزوبتي الأزلية غير المنعّمة والمضبوطة رغم كل ذلك، أو هلعي ورعبي في الظلام الموحش والمثير إلى أبعد حد، أو تمردي المستميت على الأشباح التي تقاسمني أسرار الزمن الغابر وهدير الجدران المثقلة بالقصص المنسية. إنني أحسّ بالوحشة، لا ريب، ولكن ليس بالأسف. كلا، لا يوجد بداخلي أسف البتة، بل نوع من الذكرى المفعمة بالأحاسيس. لقد كنت أعشق ذلك التيه في الوحدانية، وذلك اللجوء العذب إلى غيابات نفسي، وفي حضن بيتي القديم الذي عمّر لأكثر من قرنين اثنين. ذلك البيت الذي شهد تعاقب قوافل البشر تلو البشر، ليأخذ مع مرّ الزمن التجاعيد ويألف عادات متحجرة وروائح تفوح بعطر خاص وأناس سبقونا إلى الوجود، من الانكشاريين، من مدخنّي النرجيلة الذين قضوا إما بحدّ سيوف الغدر

والمكر، وإما بسبب مرض مكتوم ودفين. تُركيّ من الباب العالي وضابط في الحرس الملكي بنى هذه الدار لقضاء أوقات الراحة مع نهايات الأسبوع، ثم جاء بعده فيكونت من القرن الماضي؛ فرنسي الأصل، متصلب، فيه من صفات العسكر النصف ومن صفات علماء الطبيعة النصف الآخر، فانتهى به الحال إلى الانغراس في المدينة العتيقة ليعتنق الإسلام ويتزوج من بنات المسلمين، ثم جاء بعده يهودي يكون أحد أسلافه قد حل ببلاد البربر قبل أن تشهد أولى ثوراتها واضطراباتها، ثم توافد عليها الأقدام السود الذين ينحدرون من أسر بائسة من منطقة نافار ومن الجليل ليرحلوا إلى القطب الشمالي حيث يوجدون الآن، ثم جاء أخيراً أهلي النازلون من أعالي جبال القبائل غداة الاستقلال، ووصل بعدهم الأصدقاء والأصهار والأنسباء لتأويهم الدار أوقاتاً، وجاء من ضمن من جاء إليها الغرباء العابرون الذين قدموا في سنوات الدم والنار، لما صار الشرف كالعار، في الحضيض، وجلبوا معهم الأسرار ثم ارتحلوا دون أن نتمكن من سبر أغوارها. إننا لم نترك حيلة إلا جرّبناها لنوفّق في القيام بدور الموفّق وجامع الشمل! فلقد كانت الدار كبيرة وكنا صغاراً، وكذلك لم نتعود على الشدة وكذلك لم يشتدّ عودنا، وفلتتْ من بين أيدينا أشياء وأشياء.

كنت أعشقُ القيام بالدخول العابر في عتمة الصمت والسكوت، والولوج في صلب جميع تلك المسائل التي يساورنا التفكير فيها لما كان الوقت يمضي دوننا، وكنت أخترع منها ما أشاء إلى ما لا نهاية، وكيفما يحلو لي الأمر. كنت أسافر بعيداً ولا أعود إلا بعد أن يطول بي المقام. فالواقع ليس إلا محطة خلال الرحلة، وسلسلة متعاقبة من أعمال السخرة والحركات المتواترة والحكايات المملة، فأولى لنا وأحرى أن نختزلها ونختصرها. ورغم ذلك كنت أحب أن أقع في ورطة مشاكلي القديمة قدم هذه الدار، والظهور بمظهر في غاية الإصرار الجامد وأحياناً بمظهر الدقة الماكرة. إن في الحياة البسيطة تعقيداً شديداً أحياناً، إذ يوجد فيها خبايا ما يعتمل في السر وفي الخفاء. أما الجدران فكانت تتداعى، والأواني تتحطّم، والحديد يخبو من الكي والخراطيم والمواسير تسيل وتشخ هكذا أو أكثر، وكل شيء يئن من الصرير أو من الغرغرة، وغالباً ما تهوي عليّ الظلمة الحالكة وأنا في كامل النور. غالبا، بلى، وأكثر فأكثر، إذ أحياناً يبدو لي أن شقاً كاملاً قد تداعى وانهار. ممّ حصل ذلك؟ لست أدري، وأحياناً تحدث الانهيارات في ذهن المرء. لقد كانت تحيط بي الأشياء العتيقة البالية، وكانت تُسْلِمُ الروح بأسرع مما نقوى على رد الروح إليها بالتصليح. وما كان علينا إذاك إلا أن نتقبل الوضع طوعاً إن شئنا أم كرهاً ونتعود

على الأمر، هذا كل ما في الأمر. وكنت أقول لنفسي إنّ كل ما يشدّ بالبرغي يفكّ به، فالأحسن أن أستعمل المطرقة. ولقد ألزمتُ نفسي بعض الوقت وعوّدتها على ذلك، ووجدت في ذلك بعض التقشف الذي جاء بعد الطفرة الصناعية، بحيث كان يجعلنا نكتفي بعدم الاكتراث وهز الكتفين استخفافاً وبالآهات المتصاعدة كالزفرات كمداً أو تعبيراً عن غضب شديد لا يطاق، ومن باب الالتزام بطقوس تبرئة الذمة. على كلّ حال، أكسبني كل ذلك قوة في الذراعين وألهاني عن سماع رطانة الثرثرة السياسية التي كانت ديدن القوم. لقد كان كل ذلك في عهد سقط المتاع، وحركات الجماهير الغفيرة، حيث كان الكلام يطول ويفيض رغم الداء والأعداء، فيتكرّر الأمر طوال أيام ويخلد الناس للراحة في آخر الأسبوع، وهكذا دواليك. لا يوجد أي جهاز لم أعرف أسراره وخباياه، وكذلك قد أفلحتُ في فك رموزه لكي أستبدله بجهاز جديد معقد يثير أعصابي بسبب التكنولوجيا العالية فيه منذ البداية، إذ لا يوجد جهاز واحد صُنع في بلادنا، فكله مستورد في حاويات مباشرة، خالص التأمين وكلفة الشحن، وتذهب تواً إلى العنوان المحدد حيث تظل رابضة في منأى عن الفضوليين. ولم يكن الصنيع الجدير بالفخر يتمثل حينئذ في تشغيلها، إذ يكفي الضغط على زر واحد للقيام بذلك، بل في فك رموز دليل الاستعمال. ومن المثير

للإحباط أن يجد الإنسان كومة من المطبوعات تملأ كرتون التغليف لا يفقه لها أمراً. ومن المستعصي جداً أن يجد المرء اللغة التي هو في حاجة إليها، لذا آخذ ما وصلت إليه يدي للاطلاع، هذه اللغة الصينية والكورية والهندية والروسية والتركية واليونانية. كنت أتمعن في الموضوع مرة ثم أخرى، ولا أجد مخرجاً. أيُعقل أن يتكلم البشر كل هذه اللغات ويستطيعون التفاهم فيما بينهم! أمرّ على الصيغة المقترحة باللغة الفرنسية مرور الكرام فهي من صنيع أناس تعلموا لغة موليير في كتب التعليم الجاهز كالأكل الجاهز تماماً. كل ذلك كان يزعجني، كنت أفكر في إعادة كتابتها وتنقيحها لأقرأها نقطة نقطة. كنتُ أمرّ على اللغة العربية ولا أتوقف عندها، فهي تذكرني بالأوراق التي لا حصر لها والتي دأبت إدارتنا العجيبة على إرهاقنا بها منذ أول يناير إلى غاية نهاية ديسمبر من السنة المدنية. أما الإنجليزية، فقد حاولت تفاديها بالرغم من معرفتي السطحية لها، فهي تجعلني أرتبك، وأشعر أني عديمة الثقافة وعصبية. إنها لغة الناس الذين يسافرون كثيراً أما أنا فلا شأن لي بالسفر. ولكن من ذا الذي تجرأ مثلي على الادعاء بتشغيل هذه الأجهزة دون قراءة مطبوع دليل الاستعمال؟ ولم أبق على هذه الحال إلا برهة، فأنا لا أملك إلا القليل من الأجهزة ، ثم ما دام كل شيء يأتي في أوانه فما عليّ إلا اكتشاف الأمر بنفسي:

إن التكنولوجيا موضوع في غاية الجدية، وهواية الرجال المفضلة وديدنهم وليس للنساء سبيل إلى حشر أنفهن فيه. ولم أُطِل التفكير لأصل إلى الحل؛ عمو حسين، الجار الساكن في ردب القبّرات، صديق والدي المرحوم، المتقاعد من الحرب التي لم أعد أذكرها ومن الإدارة لا ريب، سيهرع المسكين حاملاً صندوق عدّته وعتاده حالما يصله أول طلب للنجدة، وسوف ألمح من ملامحه المتظاهرة بالعلم والاطلاع الواسع أنني مسكينة وقعت في ورطة فعلاً. أما هذا الرجل الطيب فكان لا يعرف كيف يقاوم التمثيلية التي أقوم بها على مرآه. وما إن يبدأ عمله حتى يصبح شعلة نار ولا يهدأ له بال إلا إذا عرف سبيلاً إلى إصلاح الخلل. أما أنا فأُقف مبهورة لأراه يكد ويجد والعرق يتصبب على جبينه وفي يده نافثة النار الشفاطة وهو يحاول التغلب ببطولة على الثقب سبب العطب. وإذا ما استثنينا الجنينة التي صارت كالأدغال القفر فإنّ الدار لا تشكو إلا من تضعضع مفاصلها، وشيخ طاعن في السن مثله لا حول له ولا قوة في إصلاح ما أفسده الدهر. وبين مصاريع الأبواب والنوافذ وحلقاتها صارت الريح تجد لها طريقاً لتعوي وتدق الأعصاب ولكنها، والحمد لله، لا تصل إليّ. ومن باب تقديم جزيل الشكر لعمو حسين فلا أحسن من الإطراء في امتداح قدراته والإطناب فيه أمام فنجان قهوة معتقة. ولكن العجوز المسكين كان

يهوى احتساء العرق الرديء، وأنا أعلم ذلك علم اليقين لأني لطالما استنشقتُ رائحة الخمرة النارية وهي تخرج من أحشائه، ولكن كيف لامرأة مثلي أن تعرض عليه الخمرة دون أن تصدمه وتفقد احترامه إياها. ثم إن لي وساوسي وهمومي، وأنا أراه يعاني الأمرّين من داء النقرس الذي سكن مفاصله واستوطن فيها لكي لا يرحل أبداً. يكفيه أن يبلي البلاء الحسن بما بقي له في سبيل مساعدتي على حل مشكلتي، وما عليّ إلا الاكتفاء بعصر القهوة حتى تصير كالقطران لكي يكون لها مفعول الكحول الخام. وهكذا جلستُ أصغي إليه بسذاجة، فاغرة فاهي إلى درجة الغباء، ويدي على خدي وهو يروي بطولاته ضد مكتب من مكاتب الإدارة، وأعيش معه عراكه المستميت مع عريف في المخابرات يكنّى أبو هتلر. وفي الختام، ولما لم يبق إلا لبّ الموضوع، يحذرني من العرب الذين تحوّلهم السلطة إلى قساة وطغاة. إن للجيل القديم من الرجال طريقة في تكرار الكلام نفسه ولا سبيل إلى وقف استرسالهم. ومع ذلك كان ظريفاً وطيباً وخفيفاً على القلب. كان قبائلياً لم يتغير طبعه ولم يتلطف أبداً، ومازال يقيم للرجولة وزناً وشاربه يدغدغ أذنيه، وبطنه المكوّر يشده إلى الأمام ويجذبه إلى الأسفل. كانت عيناه المغمّصتان بالرميص وخصلات شعره تظهره بمظهر فيل البحر العجوز القادر على البقاء طوال نصف

سنة كاملة. كان يتكلم كما يحلو له وكما يعرف، يتحدث بالأمازيغية عن جبال جرجرة الشاهقة والبعيدة بحيث كانت كلماته تتجاوز الواقع الفعلي البئيس. وكان لهؤلاء الشيوخ الماكرين المهرة طريقة مطلقة وجذرية في بيان الوقائع إلى أبعد الحدود، ولا سبيل إلى مناقشتهم أو مجادلتهم. وفي الواقع، حتى أنا لم أكن أفكر في خلاف ما يفكر فيه ولكني لستُ في السن التي تسمح لي بكشف المستور دون الوقوع في المحظور؛ فكنت أهز رأسي لتوكيد الموافقة في الرأي دون فعل زائد. لقد كنتُ أجد في كل ذلك فائدة ومتعة، ولكن الأمر كان مكلفاً بشكل فظيع، فهذا الرجل الطيب يأخذ من وقتي أمسيات بكاملها، وذلك جزاء استخدام اليد العاملة المتقاعدة. وفي يوم من الأيام انتقل الرجل الطيب إلى رحمة الله وبكيتُه بحرقة.

كثيراً ما كنت أعشق ركوب صهوة الأحلام الغريبة الشاذة والتسلل في لبوس حياة موازية تخرج لحالها من خرير الليل ومن نداوة سريري فأجدني ذاهبة إلى حيث تنتهي الأشياء وأصل إلى حيث تبدأ الحياة الحقة. وفي أوج أوهامي وهيامي أخرج متوثبة كمن وجد نفسه قاعداً على نار ويحاول إنقاذ نفسه بأي وسيلة وفي صدري صيحات استغاثة حرّى. وفي لهفتنا على الحلم بأحلام عذبة نميل إلى أن ننسى نحن الأموات -

الأحياء بأن لمحة واحدة من الحياة يمكن أن تقضي علينا. ثم أعود إلى نفسي ألومها وأقول بأن مثل هذه الطموحات ليست في محلها. ولكني أقول لها أيضاً بأن الحلم فقط بما نعرفه لا يعدو أن يكون وسيلة لزيادة قتامة أيامنا الحالكات. لقد كنت أسمع رجع الصدى، وأنا ألهث مبهورة والعرق يتصبّب مني، يتناهى ليخبو في أسفل بئر السلّم ويستقر في جوف القبو كالجثة المدسوسة خلسة، وتارة أسمعه يصعد إلى تخشيبة السقف ليندس ضمن الرثاث الذي لم يمط اللثام عنه أبداً. إن انطوائي على نفسي في ظل السكون بعد ذلك وأذني متوجسة ومرتجفة يجعل الغموض العارض دراما حقيقية محبوكة بمهارة. وأحياناً لما يمتلئ السكون بأصوات غريبة أخالها حقيقة إلى درجة التفكير في الهروب من البيت على الوضع الذي يصادفني ولو بالشبشب، وعندما أصل إلى فيء شجر الحور الحامز الذي يهيمن على الحي أسترجع أنفاسي وأجدني وحيدة، ضائعة، ولا أنيس لي إلا عتمة الليل. لقد كان هدفي من وراء ذلك يرتبط بتساوق اضطرابي وانفعالي مع الواقع، ولذلك كنت أبالغ أحياناً. وكانت لي أساليب رجولية إلى حد ما في استثارة نفسي وتهييجها، ونادراً ما كنتُ أوفق في ذلك. أما حكاية البطلة بالشبشب والمئزر ووشاح البندانا على الرأس فهي كلها لا تفي بالغرض. كنت أرى حالي على هذا الوضع

كحال المحققة الآنسة ماربل التي تشاهد في المسلسلات وهي تجول القرية رغم داء المفاصل الذي كاد يقعدها لكي تفك خيوط حبل الشائعات. وأما الألم فله طرق شتى وسُبُل لا تعد ولا تحصى أكتشفها مع مرور الزمن، ولكنها تنقضّ عليّ دون سابق إنذار وتأخذ بخناقي وتنتزع مني أصواتاً لا يفهمها أحد.

وغالباً ما كان الخوف، الخوف الرهيب الأصم، الذي يعذبني كما ينقضّ القلق على المريض بالوهم. وحينئذ كنت أجد نفسي حبيسة الهذيان فأنزوي في خمود وخمول كالبهيمة وكل شيء يختلج فيّ ويخفق؛ وصادف أن كنت ألمحُ في عينيّ الاستسلام المطمئنّ إلى الموت. أما حياتي فكانت تملأها من كل جانب حالات الاستكانة والانبطاح على السقيفة، وفي أقاصي الجنينة، وفي قاعة الحمام حيث أقوم بتعذيب نفسي شر العذاب من أجل قمع لهاث النفس الصاعد من أعماقي، وفي نهاية المطاف، عندما أُهزم حيال المحال، ينتهي كل شيء في جوف السرير مع نهاية الليل، بالدموع وبالأحلام وبحالات الثورة والتمرد. لقد كان السكون ملاذي والتيه غايتي. هكذا، بهذه الصورة تمضي حياتي، ثرية ومعدمة، ومصطنعة إلى حدّ ما أيضاً. فأنا لم أكن أطلب منها شيئاً ولم تكن تعطيني شيئاً، إذ إنَّ التآلف كان أمراً غريباً وكان ذلك كافياً شافياً؛ كانت الأيام تمضي كيفما كان وأنا أغوص

وأتمادى في إهمال نفسي، وكان كل شيء على ما يرام. ولٰكَمْ يكون الفراغ مطمئناً عندما يكون مساره مسطّراً ومقدّراً!

ومع ذلك، كانت الوحدة تُدْخِل في نفسي الخوف والذعر. كانت غيورة وحقودة، تريدني لنفسها دون سواها، وما فتئتْ جدرانها تتقارب مستنفرة مقطبة الحاجبين. هل ستترك لي نافذة واحدة مفتوحة؟ كنت أشعر بالحرارة تخبو بداخلي كلّما زاد اشتعال الطاقة الحية فيه. ورغم ذلك، كنت أريد أن أعيش، أعيش كالمخبولة وأرقص كمن دينه الهرطقة والانتشاء بالصراخ، والإحساس بنشوة السعادة، واعتناق جميع المآسي وكل الأوهام في العالم في هبّة واحدة.

كنت مجنونة ومدركة لذلك. وكان الناس السذّج يقولون لي ذلك بطريقتهم، ونظراتهم لا تعبر عن ذلك تماماً، بينما ابتسامة فارغة تعلو الشفاه على سبيل هدية لا ترد. ومن جهتي كنت أرد على ذلك بقهقهة سريعة مجلجلة تفتح الباب على مصراعيه للغيبة والنميمة. وكان يعود عليّ ذلك بطريقة أخرى وبأشكال شتى تحملها أفواه أخرى مرخص لها بذلك أكثر من غيرها؛ فتأتي الخالات والعمّات متأهبات لكيل التأنيب وهنّ حاملات إليّ الطعام والأحكام التي صدرت ثم تأتي بنات

الخالات والعمات، ناعمات القلوب قريرات البال إلى درجة تجعلني أخاف على صحتّهن، وتأتي حتى النساء الغريبات اللآتي تقمن بالزيارة عن طيب خاطر باسم قرابة قبلية بعيدة إلى الحدّ الذي يتعذر معها التأكد من صحتها؛ كل أولاء النسوة متزوجات على سنة الله ورسوله ولهنّ البنات والبنين ومعهنّ الحق المكتسب في الجهر بما هو حق وما هو باطل. وكانت في كلامهنّ اللعنة وكان في نظراتهن التحذير. إننا في بلد مسلم ولسنا في مخيم صيفي. وكنت لا أستسيغ ذلك، فالذنب كان يوجب نزول عقاب الآخرة. إنّ المجنون ليس فاسداً، والعيش في وحدة ليس جرماً مشهوداً، وليس ترفاً لفاجرة! هل ينبغي أن يخاف الله على امرأة وحيدة.

كان عملي يستغرقني ويأخذ مني ثماني ساعات، عشر ساعات، اثنتي عشرة ساعة كل يوم، لا أحصي بالضبط كم، فأنا أشتغل في حالة الاستعجال ولو على حسابي، بَيْدَ أنّ آخرين، من الزملاء، من جنس الرجال الحاملين الشهادات الرنانة، يتبعون الشمس في دورانها أو يتسكعون في الأروقة. وكنت أشعر في بعض المرات بأني خادمة المصلحة، وهذا مهين. آتي في الصباح وأغادر في المساء وهكذا دواليك. ألبس مئزري وأنزعه وأنا راكضة، المهم أنّي أعلم أنّ عملي ليس معناه

الوقوف كالمسمار والاستغراق في الأحلام، كما أعلم أن طب الأطفال عبودية قبل أن يكون شيئاً آخر، ومن أشدّ العبوديات. كذلك فإنَّ الأطفال أشرار كبار، فإن لم ينطلقوا في البكاء ألماً فإنهم يفعلون ذلك بدافع الحيلة لا غير، ومستشفى "بارني" ليس أنصع وأروع بيت عبادة في الجزائر العاصمة، فأنا أقضي نصف وقتي في إفتان الأطفال بالكلام المعسول ونصف الوقت الباقي في محاربة الكسالى في الإدارة، وهذا متعب حقاً. صرت وأنا في الخامسة والثلاثين ونيف أحمل على محيّاي تجاعيد بنت الخمسين. والجميع يناديني "العجوز" مع التظاهر بأبداء نوع من المودّة لكي أتجرع الإهانة ببساطة. أمّا أنا، فلم أكن أتحمل ذلك إطلاقاً، لأن مثل تلك العلامات الدالة على الشيخوخة بالنسبة للطبيب معناها الهلاك وبالنسبة للمرأة التي ما زالت شابة وجميلة معناها شيء مهمل لم يصبح ذا قيمة.

إنّ لي في الوحدة سلوى ومواساة؛ عن عزوبتي، وتجاعيدي السابقة لأوانها، وحالات ضياعي وشرودي، والعنف الطاغي، والتفاهات الجزائرية، والمسلك الأناني الوطني، والسيطرة الذكرية الجامحة التي تضبط معايير المجتمع، ولكنها لم تكن تسليني ولا تواسيني عن غياب أخي الصغير، هذا الغياب الذي أحس بآلامه

كما اليوم الأول. ماذا حصل له، يا ربّ؟ لقد مرّ على غيابه عام كامل. لم أجرؤ على الذهاب إلى الشرطة. كانت ستقوم بتعنيفي على مضايقتها أو تلفق لي قصة وتوجه لي أصابع الاتهام، كان عمره ثمانية عشر عاماً، وذلك يكفي لاتهامه والرغبة في العثور عليه لتعذيبه، سوف أقوم بالبحث عنه بنفسي وأحرص على عدم لفت انتباه أي كان. ثم إن أخي، الأبله، ذهب من تلقاء نفسه، وهو موجود رسمياً في المحلّ الذي يحلو له أن يكون فيه. إن للديمقراطية فوائد على الأقل في نظر الشرطة، وعلى العموم، فكلما خولت لنفسها حقوقاً كلما جهلت واجبات.

حتى شهريار كان له أيضاً نصيب في أحلام اليقظة التي تنتابني وحالات الذعر التي تجتاحني، لست أدري إن كان موجوداً حقاً. بل هو خيال يرتسم في خلال النور المعاكس من وراء مغالق الشبابيك في الدار المقابلة، تلك الدار القديمة المهملة، المتشققة المتصدعة حتى النخاع، التي ظلت شاغرة منذ أن غادرها صاحبها الفرنسي، الذي فهمت أنه كان فرنسياً أصيلاً، مع نهاية الستينيات بطريقة تكاد تكون غريبة. لقد كان من الصعب اقتفاء الأثر، في ذلك الوقت الذي لم أكن قد بلغتُ السن التي تجعلني ألاحظ الجيران، ولم تسجل في زاوية من زوايا ذاكرتي المراهقة إلا

صورة خيال رجل يروح ويجيء كما يفعل أي خيال إنسان آخر. إن الصورة التي تقف أمامي كعلامة استفهام اليوم هي صورة طفولتي التي تحاول أن تطفو على السطح. فكيف السبيل إلى ذلك؟ وقد مر زمن على ذلك العهد وخلّف وراءه جراحاً وآلاماً في القلب. أما الحي فلقد تبدلت عليه وفيه أناس وأناس منذ ذلك الوقت إلى الدرجة التي يصاب فيها المرء بالغثيان. وكانت التحولات تجري تحت وقع السرعة الفائقة، فمن كان سريعاً تبدل عليه الحال ومن كان بطيئاً أخذ الضرب على قفاه كما يقال، فلا شفقة ولا رحمة. وأما الزحف الريفي الذي كان سمة نجاح تلك المرحلة فلقد حوّل مدينة الجزائر إلى موطن بؤس لا أول له ولا آخر، حيث كان الناس يأتون إليها ويخرجون منها ثم يختفون في بيت من البيوت القصديرية هنا أو هناك. وكانت امتداداتها المجسيّة لا تعدّ ولا تحصى، تلتفّ وتنحلّ من أفق إلى أفق آخر. وحيثما وصل الإنسان نالت منه القبضة ذاتها، إذ في مدينة مريضة يكفي أن تنطلق شائعة واحدة ليبدأ الكلام في الانتشار، ولم تكن تصلنا واحدة منها إلا وتلتها عشر أخريات. قيل إنها دار مسكونة بالأرواح. وكان يشيب لهولها الولدان وتهبّ لها العجائز المقعدات فراراً في كل اتجاه، فحلّ بالحي الإفلاس، ورحل التجار إلى فضاء أرحم وتبعهم الزّبُنُ. مسكونة، مسكونة بالأرواح، هذا هراء. إنها

وسيلة والسلام، أما الناس فيشكّون في أنها مكيدة مدبرة على حساب الفرنسي، وقصة مختلقة لانتزاع ملكية الدار منه، وهم لا يرغبون في أن يصبحوا شهوداً على أي شيء ولو على جريمة، ولو كانت محبوكة ومموهة. وإذا كان ثمة أي ترتيب، فلا شك بالتهديد وكل ما يرتبط بالوعيد. ومن يتكلم عن التهديد يفكر في سره في الحكومة. أما أنا شخصياً فصدقتُ الرواية وأدمنتُ الكوابيس بما فيه الكفاية، ثم تسلل الشك واندس. إن الأشباح أمور مسلية ولا دور لها إلا القيام بإشاعة الخوف لا غير. أما هذا الشبح فكان له أسلوب آخر، كان يرقب ويرقب باستمرار بدل أن يرفرف ويطير مع الريح ويصدر النعيب أو النعيق. كان لذلك الخيال إذن دعامة صلبة، ولباس من لحم ودم، ورأس مثقل بالأفكار البالية بل الخطيرة. لقد فتح كل ذلك باب الاحتمالات والفرضيات. فهل هو قاتل يترصد ضحيته، أم سفاح على رأسه عمامة، أم هارب ضاقت به السبل فصار لا يلوي على شيء، أم إرهابي أقسم أغلظ الإيمان أن يشعل الحي ناراً في آخر المطاف؟ في حالات الخوف التي كانت تنتابني كنت أتخيله بهذا الشكل، أما في حالات السعادة فكنت أسرح بخيالي وأراه عاشقاً ولهاناً يعذبه الأسى، وأراه في شكل "كازيمودو" وهو يحتضر على فراش غطّاه الغبار، وأراه ناسكاً سلبه التفكير في دواخل ذاته، وأراه في

هيئة الرجل الفيل، رجلاً طيباً، أو شيخاً فظاً أهمله أهله، أو عالماً مشعث الشعر منكباً على أبحاث خارقة للعادة. هل سيغادر نافذته؟ أبداً، ما دمت في البيت. كيف يشغل وقته أثناء غيابي؟ كنت أطرح السؤال على نفسي، وكثيراً ما كنت أختلس النظر في اتجاهه وأشيح عنه بخطوة خفيفة.

لقد أطلقتُ عليه اسم شهريار. كان ذلك يعبّر عن بعض ذكريات الطفولة وسنّ مطالعة الكتب القيّمة، وكذلك هي بعض من معطيات المجتمع الفظيعة والحمقاء في الأزمنة الحديثة حيث صار الملتحون يشغلون البلد وضواحيها، هنا وهناك، فيما وراء البحار والديانات ولم يتركوا لحياة البرية إلا قشّة للتنفس.

أما صاحب اللحية الخاص الذي يعنيني فلم يكن شريراً أبداً، فلقد اقتنعت بذلك في النهاية، ولكنه غريب الأطوار لا غير. وإذا كانت لشهريار لحية فلأنه لا يحلقها بكل بساطة. ولا أستطيع أن أتصور أن شبحاً أو شخصاً من شخوص الروايات العجيبة يمكن أن يستعمل تلك الأقنعة من الشّعر كمجرد متعصب يشتعل قلبه غلّاً، إذ لا بد أنه يعشق نفسه بهذه الصورة، ومن يعشق يزيده العشق صبابة. وزيادة على ذلك، كان شهريار يذبح نساءه، وذلك مدعاة للتفكير، وعلى كل

حال، لا يوجد دليل على أن شهريار كانت له لحية، أنا التي تصورته على هذه الصورة وأطلقت عليه هذا الاسم، لأن في اللحية ما يدل في أيامنا على الشر الذي يترصد، وينخر ويقتل. وعلى العموم، صار شهريار جزءاً لا يتجزأ من حياتي سواء كان بلحية أم بدونها. صرت أقاسمه وحدتي ولا شك في أنه يقاسمني وحدته. ولهذا لا سبيل لنا في الخلاص، فلقد وقعنا فريستين في ذات الشراك؛ كنا نستنشق الهواء الفاسد نفسه، ولم يكن يفصلنا عن بعضنا بعضاً إلا زقاق ضيق ومغالق شباكين فقط؛ مغلاق شباكه ومغلاق شباكي، المتآكلين بفعل السنين. ومع ذلك، لا يمكن أن أذهب إليه وأطرق بابه وأطلب منه أن يرحل، وماذا لو أنه كان شبحاً فعلاً.

لقد كانت لنا في الماضي أيام سعيدة، وكانت العائلة كاملة مكتملة. أبي وأمي وأخي الأكبر ياسين وأخي الأصغر سفيان الذي كان ينمو بسرعة، وكانت لنا كلاب صغيرة تملأ الفناء وقطط كثيرة، كما لا أنسى ما كان محبباً في نفوسنا جميعاً وهما زوج من طائرين لا ينفصلان عن بعضهما إلا عند الموت، وكان عمرهما قصيراً، فلقد كانا يزينان قفصاً مصنوعاً بطريقة فنية ومعلقاً في قلب الصالون كمصابيح الثريا التي تزين القصور؛ كذلك كانت النباتات منتشرة في كل مكان،

مخضرة وندية، تتدلى من حبال المكدم المفتولة باليد. وفي الحديقة، كانت تعيش سلحفاة خفية وهادئة ترعى كل ما تجده أمامها، وأحياناً كنا ندوس عليها بالأقدام دون أن نقصد ذلك، هي التي كانت لا تعيرنا شأناً لأن أمثال تلك الحيوانات الهادئة كانت محصنة للغاية ولا حاجة لها بالاستغاثة. وكنت أنا من ضمن كل تلك المخلوقات، لامية، البنت الجميلة والمرحة التي ولدت بين شقيقيها، حيث كانت صديقات والدتي يأتين ويذهبن كما يحلو لهن، ويقعدن يتجاذبن أطراف الحديث لساعات وساعات، وكنت لا أطيق احتجاجهن، وبفضلهن كانت لا تخفى عنّا خافية إذ كل الأسرار كانت مفشاة للجميع. لقد كنا نتلذذ عند الأمسيات بفضائح الجارات، كما كنا نكره القيلولة ولذا كنا نترقب حضورهن ونسترق السمع. ولم نكن نشعر بأي حرج في ذلك، إذ كنا نفهم نحن البنات بأن علينا أن نتعلم منهن شؤون الحياة التي يخبئها لنا المستقبل. ولهذا كان بيتنا مفتوحاً للرائح والغادي، وكان الجميع يلتقون فيه، وفي كل ثناياه يوجد ولد أو بنت يسأل عن زيد أو عمر. لم يكن ثمة ما يثير الهلع ولكن الحركة كانت تحمل العدوى معها. كانت الأبواب تصفق بقوة والأصوات المدوية تملأ الجدران وتتحول إلى ما يشبه الهستريا الجماعية. أما الموسيقى فكانت تملأ الأرجاء حيث كانت أغاني فرقة "ييي

يبي" هي أغاني الموضة. وكان "جوني" و"إيدي" و"القطط المتوحشة" و"الألجيرز" فنانينا المحبوبين. لقد كنا شباباً وكان أفقنا ضيقاً، وبالمختصر المفيد، كنا نحدث ضجيجاً يفوق ضجيج ثكنة وقت تسريح عسكرها من الخدمة... فأبي قد شارك في الثورة في وقت من الأوقات، وهو يحمل صفة المجاهد التي يُحسد عليها لأنّ ذلك كان يخوّل له حق استفادة معاش، مع أنه كان يتقاضى تلك المنحة من وقت إلى آخر بشق الأنفس وبعد وساطات شتى وكأنها هبة نزلت عليه من السماء. أما الوطنية فكانت شيئاً عظيماً، وقد يتعافى المرء من داء الكوليرا ولا يتعافى منها. كان أبي يتمتع بالذوق السليم في الاحتفاظ بأمراضه لنفسه، ولم يفرض علينا ميوله أبداً. وكان يقول متذمراً وهو يسمع التلفزيون يمجد المعجزات بصوت عال، كل مساء، أمام جميع الأموات ومعطوبي التاريخ: "أليس من الطبيعي أن يحرر البلد بأبنائه؟" ولما أصبح دخله لا يكفي حتى لإطعام طيور الكناري صار موظفاً في مشغل تابع للدولة لم أعد أذكر ماذا كان ينتج، وهو الذي يتْعِب آذاننا بالحديث عما يراه غير طبيعي في وحدته وهذا ما زرع الشك في نفوسنا بأن تلك الوحدة كانت تصنع اللاشيء أو مجرد النفايات والمذكرات الموجهة إلى سلة مهملات رئيس الدولة الذي كان يعتبر رب العمل في البلاد. فكانت بعض العبارات التي ينطقها

بالفرنسية متذمراً لا أفقهها وأتخيلها شجراً عجيباً يتوسط المصنع بحيث كان ذلك يعطيها بعداً لامتناهياً لم أجرؤ أبداً على التمعّن فيه. وكان كل شيء في البيت على أحسن ما يرام حيث أنّ الغدوّ والمجيء والصياح والسيول في سلم البيت والأسرار والشكوى والتذمر والكدر يملأ أيامنا نشاطاً وحبوراً ولياليـنا هدوءاً وسكينة، كما الاستراحة بعد الحرب، ولم نكن نحلم بأكثر من ذلك، أما القطط الصغيرة فكانت تموء في سعادة غامرة، وكانت لها طريقتها الخاصة في التجمع في كومة تثير فينا الدهشة والإعجاب ونتخيلها سعيدة غاية السعادة. كنا نراها في غيبوبة بيد أنها كانت تبهرنا إلى حد تنويمنا مغناطيسياً فإذا شخيرنا يمتزج بخريرها ويتناغمان وفي ثوان معدودات كان البيت كله يدخل في حالة نوم عميق. ولم يكن ينقصني على اكتمال سعادتي إلا وجود أخت صغيرة وأشكر الله لذلك شكراً عظيماً. غير أن لويزة حبيبة القلب وزميلة المدرسة كان رأيها مخالفاً لذلك فتقول: "لك أن تشكري الله صباح مساء، فوجود الأخوات ألعن من وجود الدمل في الوجه". كانت لويزة تحمل في وجهها نمشاً كثيراً وكان الأسى يعصر قلبها دوماً لأنه لم يكن لديها أخ أصغر تلاحقه بالرقابة والعناية. كانت المسكينة تبدو كالبلهاء لشكلها المضطرب وأسنانها كمشط حاجز الدرك، ولكنها في الواقع كانت عكس ذلك تماماً، كانت طيبة

جداً وحيوية إلى أبعد الحدود، وكانت ذرات النمش فيها جميلة جداً. ولذلك كنا نطلق عليها اسم "الجزرة" ولم نكن نكتفي بذلك بل كنا نصرخ وراءها "تعالي، حتى أقضمك"، وكانت فعلتنا هذه تفعل مفعولها فنراها تكفهر ثم تمتعض ثم تنخرط في البكاء. وعندها كنا نقوم بتقبيلها بإفراط حتى نجفف دمعها ولا يأتي أحد من أهلها للانتقام لها، فأمها وحدها كانت تماثل الجيش المكسيكي. وأنا نفسي كان لي من يحرسني من إخوتي، فكانت تقول وهي تتباكى، "أحلم بأن يكون لي أخ صغير" وأرد عليها متأوهة : "وأنا أحلم بأخت صغيرة". وكان كلانا يأخذ يد الأخرى في الذهاب والإياب، وأعتقد أننا أقسمنا على رأسينا بألا تفارق إحدانا الأخرى إلى الأبد"، حيث كنا نؤلف زوجاً من الحبيبات لم يكن ليحدث حتى لو كنا توأمين من جنس أسيل فريدين من نوعهما في العالم كله. كانت عائلتها كلها متألفة من الإناث، إذا استثنينا الأب، أحد أبطال الثورة، ومن المعطوبين بالمعنى الصحيح والمجازي، الذي لما اختلط عليه الحابل بالنابل قرر ألا يتدخل في أي أمر. وما عدا عادة فرك شاربيه فلم تُعرف له عادة مفضلة أو مستهجنة. كانت تلك طريقته في الحلم بدوّاره المحبوب، وككل فلاح كانت له أفكاره المتسلطة: الأرض والحرث والبذر وآفة البرد وسرّاق الأنعام والثعالب والمكلف بالجباية. وكان يجد ملاذه ومأواه

الحقيقي في المقهى العربي بالكاف حيث كان يتجمع كل المستأصلين من دوارهم والمغروسين في الحي. كان متشبّعاً بالإيمان على الطريقة القديمة، قبل حدوث الزلزال، لما كان المسلمون ينذرون حياتهم للعمل في الحقل، فصارت عائلة من هذه الشاكلة، متمدنة وفي طريق العلمنة، خسارة لا تعوض، وهي زيادة على ذلك عائلة على عتبات جهنم.

يسود الاعتقاد عادة بأن البنات الصغيرات لا يسترسلن في الكلام باستمرار إلا للحديث عن أصدقائهن، غير أنهن لا يفكرن في الواقع إلا في الأخ الذي يرغبن في أن يكون لهن أو الذي يتلهفن شوقاً إلى مسخه إلى ضفدع كبير. وتلك كانت حالتنا، حيث كان لنا من نعشق وكنا نتكلم عنهم فقط في موضوع غبائهم وتفاهتهم، أما البنات فكنّ يفكرن أيضاً في الأخت التي ليست لهن فيتأسفن لذلك بحرقة شديدة أو يفكرن في الأخت التي يرغبن في رؤيتها تحترق في نار الجحيم ولكن لا يتطرقن لذلك إلا عرضاً. وكانت تلك حالتنا، كنا نتفادى الخوض في الموضوع، وكانت لويزة لا تتصور فكرة العفو عن النساء الشرسات أما أنا فكنت لا أطيق فكرة التفكير في رمي الأخت الشقيقة في نار ملتهبة.

ولما بلغتْ لويزة سن السادسة عشرة زُفّت إلى متشرد من أقاصي البادية، فتوالت عليها الكوارث تلو الكوارث وأنجبت منه البنت تلو الأخرى ولم ترزق ولو بذكر واحد. وتلك كانت قوانين الوراثة معها، إما أبيض وإما أسود. مسكينة، لويزة، لم تنل في حياتها إلا عكس ما كانت تحلم به، فهي الأخت الصغرى في عائلتها ولم يكن لها أخ يعيرها اهتماماً أو يصغي لها سمعاً. أما ليلة زفافها فكانت كجنازة المريض بالجذام، وكان زوجها في ثياب متسكع المدن المسالم والسطحي يخفي شخصاً خطيراً جداً، وهو لم يكن يرغب ليلتها في فرح أو بهجة، فأمطرنا واللعاب يسيل من شدقيه بآيات من القرآن متوعدا إيانا بعقاب شديد اقتبسه من دليل الإرهابي الكامل. ولما كان الظرف لا يسمح إلا بالجبن راح الرجال يتظاهرون بالادعاء ويظهرون النفاق وهم يرددون سوراً من القرآن مثل الأبطال الانتحاريين، وأُصبتُ منذ ذلك العهد بالصدمة ومازلت أتساءل باستمرار: هل يصنع الإسلام مؤمنين أم أناساً خرّع أم إرهابيين؟ والجواب في حد ذاته ليس بسيطاً، فقد يكون الأصناف الثلاثة مجرد ممثلين لا غير. ومن جهة أخرى، تبين أن الإسلام في الوقت الحاضر صار مسرحية وركيزة عظيمة يستعملها ناهبو القبور. وابتلعت

البنات جنونهن وخلعن ثوب العرس البهيج وقعدن طوال الليلة تنظر الواحدة منهن إلى الأخرى بخوف وفزع وهن منكمشات وراء العجائز. لقد كان من الممكن أن يكون البكاء متنفساً ولكن هؤلاء الشرسين كانوا بصدد منع التنفس عنا أصلاً. وبعد ذلك، ولما كانت المدينة تلتف في كفن أسود كانت ترد إلى مسامعنا إشاعات مهولة وسكوت يندى له الجبين. ومنذ تلك الليلة لم أر لويزة، البنت الطيبة الهادئة، تُرى، في أي مصلحة حفظ الجثث هي الآن؟ لأن ما كنتُ أسمعه عنها، من قيل وقال، كانت له أصداء العالم الآخر.

وهكذا فرّ الزمان مني ووجدتني وحيدة. ظللتُ أجمع الأحزان وأنا سائرة في دربي كيفما كان الحال؛ الجامعة، وبؤس الخدمات الجامعية، وخسّة زملاء الدراسة، والغش والخديعة، والورطة تلو الأخرى، والتخبط في الوحل، ورحلة العذاب للعثور على عمل، ولو مجرد منصب صغير، والمرور عبر غربلة التوصيات المهمة، التي يقود بعضها رأساً إلى طرق مسدودة. إن كل تلك المشاوير تتطلب وقتاً، بل سنيناً، وتترك آثاراً في النفس وفي الجسم. وفي نهاية المطاف، لاح الفرج، هدية من السماء، فلقد مررت بمستشفى "بارني" في الوقت الذي كان طبيب الأطفال المعين

يرمي مئزره على قدمي المدير، ابن عم الوزير وحفيد الباشا، وكان يهلل مبتهجاً وهو يمسك بالتأشيرة التي ترخص له بالذهاب إلى المنفى بكندا؛ فلقد كان حظه في القرعة التي جاءت إليه تزفّ له الفوز من على بُعد مسافة سبعة آلاف كيلومتر، وكان حظي من حظه، ففي اليوم نفسه لبستُ المئزر. كان المدير يعتقد أن عليه أن يبرهن على فحولته ولم يفكر في ذلك مرتين، ولم يمهل شهود الطلاق على الانطلاق في الهمز واللمز. وصاح في وجه الطبيب قائلاً: "اذهب إلى الجحيم، يا مأبون، سيخلفك أول من يقع في يدي!". وكنتُ حاضرة ساعتها وسمعتُ كل شيء. ووقّعتُ عقد العمل، على السراء والضراء. أما المرتب فلم يكن أكثر من معقول، كنت أستطيع أن أؤمّن الأكل، وتعلمت بالمناسبة فن التصرف في قشامة الطعام. وأدركتُ منذ ذلك اليوم كل شيء عن الاقتصاد العربي الإسلامي: للرجال كثرة الكلام وللنساء العمل سواء في مقرّ العمل أو في البيت، ولا وقت للراحة. أمّا زميلاتي فكنّ من المتزوجات، أمهات وكنّات، يعشن يوماً مقداره ثمانٍ وأربعون ساعة وفوقه اثنتا عشرة ساعة كمؤخر يحتسب ضعفاً مع وصول الأحفاد. أمّا أنا فلمْ أكن أكترث للأمر، فالوقت كله ملكي. إن شمس الله تشرق من

المشرق وليس من المغرب، ثم كيف السبيل إلى عكس مدارها، فتلك مسألة في غاية الخطورة، ولا يخطر ببالي طرحها أبداً.

توالت الوفيات وتتابعت معها مواكب التجمعات والمآتم ومجيء السماسرة وإيابهم ومعهم الأقارب والمعارف الذين جاؤوا يسعون إلى الانتفاع بالمواربة والمراوغة، والعروض العامة المقدمة لشراء البيت، وطلبات الزواج من خُطّاب في يدهم ديكامتر مضاعف لقياس مساحة الدار، والإمام الحاضر دوماً للتبجح. ولما اكتملت الأيام الأربعون شطبتُ على الموضوع بخط وأقفلت الأبواب والنوافذ، وهوى عليّ الفراغ كشاهد موضوع على قبر الميت، ولكن الفراغ كان خاصاً بي وكان في وسعي أن أشغله كما يحلو لي. وفي ذلك اليوم المبارك خولت لنفسي حقاً واحداً على الأقل وهو حقي في الموت على طريقتي، وقلت في نفسي إن محكوماً عليه ينعم بحرية في ذاته لأصدق من سجّان أسير مفاتيحه، وإن في النهاية لا بدّ من وجود جدار عازل بين الحرية والأسر. وهكذا دخلتُ مباشرة وبكل سهولة في ألعن زمرة للرعاع والأوباش في أرض الإسلام، ألا وهي زمرة النساء المتحررات والمستقلات. وفي مثل هذه الحالة، من المستحسن أن تعجّز المرأة وتكبر بسرعة، وبذلك تغضّن وجهي

بتجاعيد بسيطة، إذ في ظل الراية الخضراء لا تمثل الشيخوخة غرقاً وموتاً للمرأة بل نجاة وخلاصاً.

عشتُ حِداد حياة بكاملها في غضون أشهر معدودات، وانقضّ الموت على عائلتنا واستبسل في القضاء علينا واحداً واحداً، أما أنا فتناساني، لما توسلتُ له جاثية، فبقيتُ آخر حبة في العنقود، وإني أتساءل عمّن يلبس ثوب الحداد عليّ. بعد الأب الذي مات بالقلب جاء دور الأم التي ماتت بالحسرة بعده بثلاثة أشهر، ثم تبعهما أخي ياسين الذي قضى نحبه في حادث سيارة كانت عشق حياته؛ سيارة رينو 5 زرقاء قضاب براديو وعُدّة منع السرقة، كانت فرصة من ذهب لما استوردها صاحبها المدعو علي الخردة مزوّر الحي بامتياز، من مرسيليا. دفعنا ثمنها من مدخرات البيت، وكنا نذكّره بذلك كل صباح أحد لما كان يلمعها كقالب صابون ثم يتسلل كاللص؛ كان يشبه أخي مغوي نساء على طريقة الثلاثينيات وكان جاهزاً للوقوع في أول شراك للحب ينصب له. لكننا كنا نتظاهر بعدم العلم بأي شيء بينما هو يجاحف الجدار كما يقال، وبتنا نتفهم أنه لا يفتش عن غانية إلا لغرض الزواج. لقد كان آن أوان زواجه، عندما دخل على الثلاثين وبدأ ظهره يحدودب، وكان يسعل بسبب وبدون سبب، فهو يعيش الوحدة ويشعر بذلك. كان

موظفاً في الإدارة وتطبّع بحياة رجل الإدارة، وجلبنا في سبيل تزويجه أجمل بنات الحيّ وأرسلنا المراسيل في كل حدب وصوب وراقبنا كل بنت كحارسات الخدر. كنّا نفعل ذلك لأننا كنا نفتش عن الأبكار وليس عن العملة المزورة، فاتخذت الخاطبات بيتنا مزاراً، وانشغلت أمي المسكينة بالتردد على المقابر وبارتياد المآتم التي كانت الأماكن المفضلة لإبرام صفقات الزواج، وبزيارة أضرحة الأولياء الصالحين حيث تعقد وتحل الشؤون التي لا تخطر على بال بينما توليتُ أنا شخصياً ما بقي من المهمة، في الثانويات ومدارس الخياطة والأعراس والحمامات ومحطات الحافلات، واستقدمتُ من البنات إلى البيت حزماً ورزماً، الجميلات والذكيات، المتعلقات بالتقاليد والمتهورات مع وقف التنفيذ، الشقراوات والسمراوات والانتقائيات والصبايا الفتيات، وكن كلهن جاهزاًت متأهبات، غير أن الغبي كان يتشدد بلا سبب ويشيح بوجهه عن صاحبات العرض والاستعراض، كان يريد أن يصطاد حوريته بنفسه في الشارع كسيّد العارفين، وكان التعيس يظن بأنه أهل لإبطال مكائد الخاطبات؛ وذات يوم خرج ليفسّح سيارته العزيزة في اتجاه نادي الصنوبر، على طريق الوزراء، فهوت عليه شاحنة ثملة سكرانة، أخبرونا بذلك على سبيل التلميح وليس التصريح. وكنا قبل الحادث نداعبه فنقول له : "متى تتزوج

صندوقك؟" ولكن لمّا كنا نتضايق من شدة إفراطه في تلميعها صباح مساء ثم حراستها بالمنظار فيما بقي له من وقت، كان لا يطيق أن يحط ولو طائر على جناحها، ولا يتحمل مزاحنا، كانت تلك طريقتنا في لفت نظره وتحذيره، فولعه بالسيارة كان فيه شيء من البهيمية أو الحَيْوَنَة، وكنا ندرك ميله إلى المباهاة والخيلاء. أما الحداد عليه فكان مفعماً بطعم مرارة الشعور بالذنب لما جلسنا نستذكر مزاحنا معه وسخريتنا منه. فأنا لم أستطع أن أتخلص من هاجس تسببنا في جلب النحس على حياته لأن حديثنا عن الصندوق هو كناية عن السيارة التي كانت على نحو مؤكد تنذر بالموت. عذراً، ياسين، عذراً يا عظيم. والنهاية، جاء سفيان، وأول ما دخَّن أول سيجارة تغلغلت في رأسه فكرة الهجرة مهما كان الأمر، طال العمر أم قصر، وإلى أبعد مكان في أقاصي الأرض، وكنت لما أحاول أن أعلمه بعض الحكمة يرد عليّ بصياح يصم الآذان : "أولى للإنسان أن يموت في أي مكان آخر من أن يعيش هنا!" وكنت أرد بالحدّة نفسها: "إذا لم تستطع أن تعيش في دارك فلم الانتقال للموت عند جارك؟" كانت تلك حُجّتي، وكل ما كانت لي فيه حيلة. كنت أريد أن أُفْهِمه بأن الموت ليس بالمهمة المستعصية بل المشكلة تتلخص في العيش، أما المكان فمسألة ثانوية. ولكنه لم يكن له تفكير آخر إلا في ذلك الموضوع،

ولم يكن له انشغال آخر إلا البحث عن المسالك وتدبير شؤون الوثائق ودراسة أساليب وخطط القدامى من الذين قفزوا القفزة الأولى وكللت كل محاولاتهم بالفشل الذريع. فلم يكن يتكلم إلا نادراً ولا يأكل إلا قليلاً، وما إن يرجع إلى البيت حتى يشرع في اجترار غيظه وحنقه، ثم طق، حدث المفصال. وذات صباح ومع انبلاج الصبح، غاب عن البيت، وسلك طريق الغرب، أخطر الطرق على الإطلاق، وهران فالحدود فالمغرب ثم إسبانيا، وأخيراً فرنسا أو انجلترا أو أي بلد آخر، ذلك كل ما في البرنامج. وعلمتُ بالأمر في مساء ذلك اليوم، في وقت متأخر، على لسان أحد الرعايا، وهو نفسه مرشح للانتحار، عثرتُ عليه في أحد الاجتماعات السرية والتعزيمية بعدما فتشتُ ثنايا الحي كله كالمجنونة. كانوا كُثراً، جيشاً بكامله، وقد نال منهم النواح والنحيب؛ وجدتُهم يحلمون وهم يقظى، يقنع بعضهم بعضاً أن العالم في انتظارهم هناك فاتحاً لهم ذراعيه وفي يده الورود، وأن هجرتهم ستقضي لا محالة على عرش الطاغية. باختصار، كانوا يعانون ما يشبه الحمّى، ثم هبّوا جميعاً يحيطون بي من كل جانب كأخت كبيرة لهم أثكلها مصاب جلل، وأسرّوا إليّ أن سفيان سلك طريق الحراقة، الرجال الذي يحرقون الطرق. كنت أعرف العبارة، فهي أشهر عبارة تتداولها الألسن في البلد ولكني كنت أسمعها

للمرة الأولى تخرج من فم مجنون حقيقي وكان ذلك يجمد الدم في عروقي. كانوا يتكلمون عن الموضوع بحماسة واندفاع، حرق الطريق كان معجزة لا يقوى على تحقيقها إلا هم. وكان يكفيني أنا الشرف وعليهم هم تحدي اقتفاء أثر طريقه قبل أن يعلق عليه الغبار، إذ ماذا في وسعي أن أقول لمثل هؤلاء الأوغاد، نظرت إليهم كما يُنْظر إلى المفترين الكذابين ثم ولّيت مدبرة. كان ينبغي لي أن أبلغ عنهم الشرطة لو لم تكن هي نفسها سبب العُتْه الذي أصابهم، فهي دوماً في مطاردتهم واستجوابهم واجتساسهم والبصق على وجوههم والهيمنة عليهم. لن يرجع أحد سالماً إن هو سلك طريق الحراقة، فهي تقهقر يتلوه آخر أصعب وأمرّ وأتعس إلى غاية الاختفاء نهائياً. وأصبحنا نشاهد القنوات الفضائية وهي تنقل إلى البلد صور جثث الحراقة وقد جنحت إلى صخور الشطآن بعدما تقاذفتها الأمواج ميلاً بعد ميل، وقد تجمدت أوصالها واختنقت فيها الأنفاس، أو سحقتها عجلات هبوط الطائرات أو أنبار السفن أو صناديق الشاحنات الكبيرة المختومة بالرصاص. وكما لو كنا نجهل الكثير من الأشياء جاء الحراقة في الأخير ليخترعوا لنا طرقاً جديدة في الموت. أما من نجح من الحراقة في العبور إلى الضفة الأخرى فإنه سرعان ما يفقد روحه في أحلك ملكوت وألعن مملكة موجودة على سطح الأرض، وهي

الانخراط في الحياة السرية، فما هي تلك الحياة تلك التي يحياها المرء في غياهب السرية؟

وما هي هذه الحياة التي أحياها وأنا شبه مكفّنة مدفونة في بيتي المتداعي المتهالك؟

مرّ شهر كامل وأنا أتراوحُ مكاني، وذرفتُ كل دموعي حتى جف جسدي. كنتُ أستحي أن أرفع رأسي: أمّاه، لقد ضاع أخي الصغير! أبتاه، لقد ضاع أخي الصغير! كان يتأكلني الشعور بأني خنتُ الأمانة ولم أحفظ الوديعة. كنتُ أرقدُ في غرفته للإيهام بوجوده.

وذات مساء، كلمني بالهاتف من وهران. هناك، في تلك المدينة التي لا يشبه أي شيء فيها مدينة الجزائر، لا اللغة ولا الدين ولا طعم الخبز!

- أين، في وهران؟

- عند صديق.

- أتسخر مني؟ كل أصدقائك موجودون هنا، في بيوتهم أو معتكفون لانتخاب البابا.

- لا تقلقي.

- كفى مزاحاً، هيّا ارجع!

- فيما بعد.

- متى؟

- لست أدري.
- أعطني عنوانك حتى أرسل إليك بعض المال.
- ليس لي عنوان.
- وصديقك هذا متشرد، أليس كذلك؟
- ....
- ألو .... ألو ..... ألوووو ....!

كان الصبي الوقح قد أصيب بعدوى اللكنة الوهرانية، وصار يقول "واه" بدل "إيه" ويطقطق بلسانه! أما الباقي فهو كما هو، مندفع، عنيف، وعنيد وأحمق للغاية .... وطيب كالملاك لما يرغب في ذلك. ولم يكلمني في الهاتف بعد ذلك أبداً. هل قلتُ له كلمة زائدة وفي غير محلها؟ ممكن، ولكن لا يهم، فكلهم سواء، حمقى وسريعو التأثر ومماحكون. وما زالت القضية تنخر في ذهني أكثر فأكثر، إذ من الصعب أن تكون المرأة شقيقة رجل ظل طفلاً. كم من رجل يدرك ذلك حقاً؟

بدت لي الدار فجأة مروعة، ازداد الفراغ وطأ بشكل مرعب وتضاعف ثقل السكون. لم تصبح لدي أجوبة ولم تكن معي أسئلة. ولم يكن في وسعي التفكير بل صار يكفيني تعذيب نفسي. لقد فقدتُ كل الأشياء قيمتها لديّ وصار بإمكان الروتين اليومي أن يحل ويأخذ مني كل شيء، فالموت لم يصبح قدراً محتوماً

مؤلماً بل فرضيّة يأتي معها الخلاص. أجل، أعترف أنني مررت بمرحلة التفكير في الانتحار، اتخذت قرار ذلك ولم يبق لي إلا أن أجد جواباً للوقت المعين والطريقة المحددة لتنفيذ ذلك. لم أعد أذكر كيف جعلني الإصرار مشوشة الأفكار لا ألوي على شيء، ثم، انتفضتُ، فانا هكذا خلقتُ، أصابُ باليأس والإحباط لأجد الدافع على الانقضاض.

وجاءت شريفة كما لو كانت غازية. كيف يمكن أن أتصرف معها هي الأخرى؟ إنها تستفزني، ولا أطيق كثرة غيابها ونزواتها، كما لا أتحمل فوضاها ولا حتى وجودها. وفوق كل ذلك لا أستسيغ إطلاقاً صوتها الذي يشبه صوت الرضيع الصيّاح، فأنا في حاجة إلى السكينة والسكون وأريد أن يكون كل شيء واضحاً في حياتي. كما أنني في حاجة إلى أن أكون قادرة على أن أقول لنفسي، في أي وقت ودون التفكير في العدول عن رأيي، هذه حريتي وتلك إرادتي.

يا إلهي، إلى أي مدى نحن أسياد حياتنا بالمعنى الحقيقي؟

جاء أول تصرف طائش منها بسرعة في اليوم الموالي، كنا بصدد الانتهاء من تناول فطور الصباح؛ ومن أجل التكفير عن حصة التعذيب الذي مارسته

عليها في مساء اليوم المنصرم قمتُ بإخراج ما ادخرت من حلوى راحة الحلقوم وبسطتُ سماط المائدة الذي ورثته عن المرحومة أمي، وكان كلانا يلبس خف المنزل والمبذل وما زالت تطفو في عيوننا بقية رغبة في النوم، كان الجو لطيفاً وظريفاً وعائلياً وما زلتُ متأثرة ومنفعلة. ابتلعتْ حبة سكر وصعدتْ لتلبس كسوتها الغريبة. أما ماذا قالت وبماذا أجبتها فإني لا أذكر شيئاً. مرّ كل شيء بسرعة، وكنت فظة معها، ولو كنتُ صريحة لقلت إني طردتها، وسرعان ما ندمتُ على فعلتي.

- "عمة لامية إني خارجة للفسحة". قالت ذلك وهي واقفة تنتعل حذاء ذا كعب عال جداً.

- اذهبي إلى حيث شئت، المهم ألا أراك مرة أخرى.

- أتعطيني بعض النقود؟

- ثم ماذا أيضاً؟ لقد نمتِ، وأكلتِ، وضحكتِ ... حسنٌ، هذه مائة دينار ... ولا داع للشكر.

- هذا كل ما تعطيني... مائة حبة فقط؟ ماذا عساني فاعلة بها؟

- تكفيك لمهاتفة أهلك.... هل تسمعين؟ ... حسنٌ، ماذا أقول؟ لا أعرفك، هل فهمتِ... إن لي حياتي... وليس لأن أخي الأبله أعطاك عنواني عليّ أنا

الاعتناء بك .... حسنٌ، هاك مائة دينار أخرى ... لم يبق معي أي شيء... فالمرتب أتقاضاه مرة كل شهر، وأنت لا علم لك بذلك، لا شك..."

وبينما كنت منهمكة في الشرح والتوضيح كالمعتوهة، أخذتْ هي المال ووضعته في جيبها وأمسكت زوّادتها ورمتْ بحبة راحة الحلقوم في فيها وخرجت وهي تهز كتفيها، أما سلام الوداع والشكر على الجميل فيبدو ألّا حظّ لي فيهما في هذه المرة.

لقد كان الرجوع إلى الفراغ قاسياً وعنيفاً. لم أكن أتوقع حدوثه بهذا الشكل، بل كنت أراني عائدة شيئاً فشيئاً إلى فنائي المطلق، غير أنني أحسست بالألم يعتصرني، فالفراغ الذي أنا فيه سببه الفراق. ثم هناك الغياب الذي يحل علينا لكي لا يرحل أبداً، يأتي ليعشش فينا. وتألمتُ لذلك أشد الألم، وها أنا أجرّبه لمرة أخرى. ثم، تفه، هذه المجنونة لا يربطني بها أي رابط! بالأمس فقط كنتُ أنظر إليها كمن نزل عليّ من كوكب آخر لتحلّ في حديقتي دون أن تكترث أدنى اكتراث. وأراني أتساءل في الوقت الحاضر هل الصدرية المنتفخة التي تلبسها لها علاقة بسكان المريخ أو زحل. وسواء جاءت من وهران، هذه البلدة الجزائرية، بتوجيه من أخي الأحمق، فإن ذلك لن يغير في الأمر شيئاً.

كل ما أعرفه عنها، أنها بلا عنوان معروف، وهي حامل من مجهول أو أكثر، ولن يحبّبها كل هذا إلى قلبي أبداً، فلكلّ دواره الخاص به والأبقار في الحفظ والصون كما يقول المثل عند بعض الأمم. وهكذا شردتُ كالمخبولة في الدار، رفيقة دربي الوفية، متلهفة على استرجاع وعيي وإدراكي. لم أكن أرى شيئاً، ابتلعني الفراغ أنا أيضاً، والآن بلغ انتشاره الحيّ بكامله، وأصبح كل شيء ملخصاً في الصمت والجحيم الأبدي. وكذلك ما زال شهريار، أو خياله، في مكانه المعتاد. هل ينام هذا المخلوق؟ أما اللغز، فهو معقول، ولكن ليس في كل مناسبة. فلقد كان تمثاله الجامد التقاطيع يرقبني من علٍ. ثم فجأة، توارى عن الأنظار، ماذا ... هل ما لمحتُه كان حقيقة؟ هل هذا ما حدث؟ كان في طريقة الإشاحة عني بظهره علامة على الاستياء، وفي الأخير، أف، ما شأني!

في المستشفى، نظرتُ إلى الزملاء وكأن كلّاً منهم كان حاملاً همّ الدنيا بأسرها. وأعدتُ النظر من باب الاطمئنان والتحقق، فوجدتُ أني كنتُ محقة، ففي وجه كل واحد منهم العقابيل المعتادة. يا إلهي، كم هم متجهمون في زيّ زريّ كأنهم فزاعات! إنني لا أطيق بالمرة طريقتهم في تصعير خدهم وانتفاخهم، وكنتُ أسمعهم يتنطعون: " هم م، هم م، نحن أنسباء

السلطان، تنحّ عن طريقنا!". لقد كانوا يسرحون ويمرحون ذهاباً وإياباً بذات الطريقة في التسيب التي أهلكت البلد، هذا التسيب الذي انتشر في ظل العولمة ليعم أرجاء المعمورة. وكانوا يتكلمون وهم يتصايحون بالطريقة نفسها ليزيد بعضهم صمم بعض خطورة واستفحالاً. وإذا قاموا يغنّون أو يصوفرون أو يدمدمون أو يبكون أو يتخاصمون أو يهنئ بعضهم بعضاً، أو يخرّبون أو يبالغون في الاندفاع، فإنهم يفعلون ذلك بطريقتهم المعهودة، بلا زيادة أي شيء جديد أو مخالف. فقد يجد المرء ألف نقيصة ونقيصة في حصيلة عملهم، ولكن كل ذلك لا يهمّ، فأفعالهم يندى لها الجبين ومعروفة لدى العام والخاص، ومع ذلك أرى أنهم يبتسمون فوق اللزوم، هل ثمة سبب، ولو سبب واحد فقط، يجعلهم يبتهجون للانحطاط؟ وهل ثمة حجة، حجة واحدة، مهما تكن بسيطة، يمكن أن تفسر المسخرة التي تجعلهم يختالون كالطواويس في عملهم وهم لا يؤدونه إلا مبتوراً وبصورة رديئة؟ وأتساءل أحياناً عن أي جرم حقيقي اقترفوه كي يبدوا بهذا الشكل البريء إلى حد البلاهة.

إن ما يدعو إلى الحيرة هو الخجل الذي يلازمني حيثما حللتُ ورحلتُ، وأخجل من أنّ الناس لا يخجلون بسبب عاهاتهم كما أخجل أنا من عاهاتي.

عاهاتهم ظاهرة على وجوههم إلى درجة تنسينا أن نلاحظ أن لهم أنوفاً. لهذا يجب أن أذهب إلى الطبيب النفساني وأطرح عليه الموضوع.

أشعر أن اليوم سيكون طويلاً، وعليّ أن أزور الأطفال، وهم يعرفون الكوميديا ويدركون أنها ليست مرادفة للنفاق.

إن رأسي يغلي ويفور، العرق يغمرني، ولكن ما هو أخطر هو أني أشعر بشيء ما يتحرك في أحشائي. هل أنا حامل؟ ممّن؟ وأنّى لي هذا؟ هل هو الروح القدس؟ أم واحد من كوكب خارج الأرض؟ وتملكتني الأفكار السوداء، وبدأت أحس فعلاً أنني سأقتل أحداً لأن أعصابي توترت.

أين ذهبت المغتربة؟ إنها لا تدري أين تذهب، والجزائر لن تتأخر في استدراجها إلى جنونها، وهلاكها هذه المرة لن يكون بعده هلاك. إن الجميع يتصايحون على البنات وما أدراك ما البنات، وكل يوم يزداد الصياح وترتفع الجلبة. وأول سائق عربة قديمة سيأخذها إلى مختلاه، إذ إنَّ الرعاديد لهم طريقتهم الخاصة في السبي حيث يُصاب المرء بسببها بالغثيان، وهي بكل بساطة: "تركبين أو أدهسك!" إنها مجرد طفلة، غريبة الديار، سائحة، ولا يساورها الشك في أدنى شيء،

وترتبط بأي شخص بكل سهولة. وما أدراها في وهران بمكائد الجزائر العاصمة؟ هناك، كل يغني بؤسه، مع الرّاي ويا رايي، أما هنا فالرهان إما على الخالص وإما على الضعف. وهل ما في مشيتها وتسريحة شعرها، وابتسامتها كالغادة غير القابلة للتهذيب والإصلاح، وعطرها، وربطة عنقها الغريبة ما يوحي بأن فيها من علامات حسن الخلق الإسلامي؟ تبّاً لها، لا ينبغي لها أن تحاول القيام بدور نجمة سينما صغيرة لمّا يكون الدين في حالة ثورة!

أمضيتُ النهار كله وأنا أتظاهر بالعمل. كنت أقوم بتعذيب ذاتي وفكري، وتصورتُ حدوث ما لا تحمد عقباه، وذلك ما كان محتملاً حدوثه أكثر من أي شيء آخر. وكنت أتمنى ألا أكون قد سمّمت أي طفل أثناء العمل، فهم شاردو الذهن دوماً ويمكن أن يبتلعوا كل ما يعطى لهم. كنت أستشيط غيظاً وأجول بفكري في شوارع العاصمة متخلية عن الأماكن التي فكرت بارتيادها لو كنت ألبس الطماق العالي المتصل بالساق الذي كانت تلبسه شريفة، إذ لا جدوى في استذكار المواضع التي اعتدنا ارتيادها في أيام شبابنا، فتلك حكاية منسية. ماذا بقي من مكان فيه جاذبية؟ حي البريد المركزي بجموعه الحاشدة الهائمة على وجهها وبقاعات الشاي المنغلقة التي كانت شراكاً حقيقية لاصطياد

البنات، بقي محل آخر فيه جاذبية، إنه مقام الشهيد بمحالّه التي تملّى بالنظر إليها طوال النهار وبحدائقه المعلقة؛ كان المقام محج أبناء الذوات الذين كانوا يُسْتتبعون بصغار الحسّاد ومتسكعي ضواحي العاصمة. وفي مثل هذه المسائل، تكون الخطورة في الموكب وليس في العروسة، ولم يبق إلا نادي الصنوبر الشهير الذي بني على الأرض السابقة للمزرعة لأغنى معمّر عرفه التاريخ، لوسيان بورجو، حيث صار يقيم بارونات النظام ضمن اختلاط جهنمي وتحت حراسة مشددة، وما يحدث بداخله خليق بأن يستنفر شرطة العالم قاطبة، أما بالنسبة للطائشات الصغيرات فهو ضيعة المشاهير وهن مستعدات للارتماء في أحضانه مغمضات العيون؛ إن التعاسة تحدق بهن من كل جانب وهن لا يفكرن إلا في السهرات والحفلات والمفاجآت. أما الفنادق الكبرى فلقد استحوذت عليها المحترفات اللاتي نصّبتهن فيها المنظمة، ولكن شريفة في هيئتها الشامخة يمكن أن يُنْظر إليها على أنها فتاة طاهرة لا يشق لها غبار. أما الشيوخ المتربصون على مقاعدهم الوطيئة فإنهم مستعدون لدفع الغالي والنفيس فقط من أجل عضة واحدة لروم أذنها؛ إن لهم طريقة في الابتسام للفتيات الجميلات والفتيان الملحاء كفيلة بتنويم الجية ذات الأجراس. إن جنس الغواني يجعل هؤلاء الخنازير يحمحمون، إني أكرههم!

"يا لامية! يا هذه، انتظري!"

هذا الصوت ليس غريباً عني، إنه، هو، مراد، أحد الزملاء، وهو الفتى الغريب الأطوار في المصلحة الذي يعمل في قسم مرضى السرطان ولعل ذلك أثّر عليه إلى حد ما. إنه الوحيد الذي لا يفكر في الهجرة، ليس لقلة الكفاءة أو الشجاعة بل لأنه فقد القدرة على ذلك. إنني استلطفه. وفي مرة من المرات حاول أن يستغويني ثم سرعان ما عدل عن الموضوع نهائياً. إن المسكين مدمن على تناول الكحول ومن النوع الشديد، فهو يحتسي الأقداح كالشاحنات في محطة الوقود، ومع ذلك يظل شخصاً مرهف الإحساس وصاحب ذوق. إن له قدح الفلسفة، وهو لا يقوى على إيذاء بعوضة، يا له من تعيس، فلا امرأة واحدة ترغب في الارتباط به، وها هو يكاد يوشك على إتلاف كبده من كثرة احتساء الخمر. في البداية، كنت أعتقد أنه يشرب الخمر بإسراف لتحسين صورة الشخص المتقزز والضجران فيه. ولم يكن يتقاعس في تحذير الشباب من مغبة الإدمان وينفجر ضاحكاً في وجه كل متملق دنيء. وهكذا تطور مع مرور الزمن وصار يتحدى كل الحواجز ولا يكلّ عن تشجيع كل فتى طموح على بذل كل ما يستطيع من جهد في سبيل النجاح. أتى إليّ مخاتلاً بعدما استلمتُ

الوظيفة من مدير المستشفى بنزوة منه حيث كلفني بمباشرة مهامي على الفور، وقال لي بعدما تفحصني ملياً من قمة رأسي إلى أخمص قدمي وكأنه جهاز سكانير، وخبر معدني: "اسمعي يا صبية، أنت جميلة ومليحة، ولكن سأكلمك في ذلك في وقت لاحق. عليك في الوقت الحاضر أن تحترسي وتنظري حيث تضعين قدميك. إنك في ساحة الحرب، وهذا المستشفى مزروع بالألغام من أعلاه إلى أدناه. إذا كنت في حاجة إلى النصح فتعالي إليَّ خلسة وبعيداً عن الأنظار. والآن عليك أن تتأملي نصيحتي هذه التي أسديها لك: لا تبالغي في الاندفاع ولا تركني إلى الخمول.

وذهب في حال سبيله واضعاً يديه في جيبيه. لقد كان مثيراً للضحك حقاً. إن الرجال كلهم أخسّاء، فكلما حاولت المرأة أن تتقن عملها رأوا فيها إما الاندفاع وإما التكاسل.

كاشفته بأفكاري، حدّثته عن شريفة وعن نزواتها وهروبها من البيت، وعن البلبلة التي كنت فيها وخجلي من نفسي. فَهِم المسألة بسرعة، فهناك الوقائع التي نراها في تسلسلها المنطقي ولكن هناك العواطف الدفينة والمكبوتة في أعماق النفس. وبصراحة، كنت أخشى

حدوث ما لا تحمد عقباه. وقبل أن يرد عليّ ظل مطبقاً يمط شفتيه ثم أوجز أفكاره:

"إنك تحبينها، هذه البنت، أليس كذلك! لماذا قمت بطردها إذن؟ على كل، هذه هي المرأة، ليست واضحة أبداً وإلا فإن وراء الأكمة ما وراءها. لا ينبغي لك أن تبحثي عنها في تلك الأماكن، فمقام الشهيد والقصور ونادي الصنوبر مخصصة للأكابر من العيار الثقيل. وزيادة على ذلك، يجب أن تعطي المنظمة الضوء الأخضر للدخول إليها. أما البريد المركزي فلا أفكر فيه، هناك تناقش الاتفاقات مع الرعاع من السرّاق والنسبة ليست عالية في مجال الربح. ثم إن البنت حامل ولذلك فهي ستتصرف على هذا الأساس. حاولي أن تبحثي عنها في محطات الحافلات والقطارات أو في الأحياء الجامعية للبنات. في الحالة الأولى سوف تهاجر إلى مدينة أخرى، وهنا في رأيي، يمكنك أن تشرعي في الحداد عليها. إن الجزائر العميقة هي نهاية العالم. وفي الحالة الثانية ستجدينها تفتش عن معونة وهي تعتقد أن البنات سيتضامنَّ معها في هذه الحالة. باختصار، وأنت تفهمين طبعاً، إنها تبحث عن غرفة تأويها وبعض الحنان من أنثى مثلها".

- المحطات، يمكنني البحث فيها، لا توجد ألف،

بل لا توجد حتى خمس. أما الأحياء الجامعية فكم يبلغ عددها؟ لا أستطيع أن أطرق كل الأبواب باباً باباً وأسأل في كل مرة: هل شريفة لديكم؟

- كلا، عليك فقط أن تبلغي الرسالة إلى بنت من البنات وتنتظري. سيأتيك الرد بعد أربع وعشرين ساعة من أي طالبة تقع عليها يدك. إنهن يشعن في ما يشبه الحولجة، إنهن عبارة عن شبكة، وأنت نفسك عرفت هذا، تذكري، ولكن في زماننا كان للميز الجنسي طابعٌ ثوريٌ، كان يمكنكن تنظيم تجمعاتكن وتحرير بياناتكن. أما الآن فلقد أصبحنا مجانين حقيقيين، ولا مزاح في أمور الدين، واحذري أن تثيري في نفوس المسكينات الذعر، فكل واحدة منهن تخفي شيئاً ما، فكرة أو حلماً أو حباً عابراً أو طريقة معينة بل وحتى مشروع انتحار...

- أبسط شيء أقوم به هو الانتظار. ستعود، أنا متأكدة، ليس لها مكان آخر تذهب إليه.

- هذا رأيك. ولكنك لا شك تدركين إلى أي مدى يمكن أن يصل بنا الأمل هنا».

هذا الكلام سمعته. لا أعرف جزائرياً واحداً لا يتحدث عن الأمل مائة مرة في اليوم وهو قابع لا يبرح مكانه. كلا، لا أعرف ولو واحداً منهم. وأتساءل عن معنى هذه الكلمة أصلاً.

مررتُ بمحطة حسين داي قبل أن أرجع إلى البيت. قلتُ في نفسي، ابدئي من هذا المكان، ستجدينها في طريقك. كان الحشد هائلاً وكأنّ حشود العالم كله تنزل فيها. فمنهم سكان الضواحي والمشتركون في ركوب القطار أفواجاً أفواجاً، زوّاداتهم على أكتافهم ورؤوسهم مطأطأة، يمشون وهم وجوم، وحالتهم تدعو إلى الرثاء. إنهم يذهبون إلى المصانع القديمة التي بُنيت في عهد الاشتراكية لتبتلعهم في الصباح وتلفظهم عند المساء بعد ثماني ساعات من السحق والجرش اللذين لا طائل من ورائهما. تراهم كأنهم خارجون لتوّهم من محتشدات الغولاغ للأعمال الشاقة في الاتحاد السوفييتي سابقاً، ولا ينتظرون إلا صافرة الإنذار للعودة إليها. ومن المفارقات أن الثورة الاقتصادية تجري في أماكن أخرى تحت إشراف الحواسيب والأقمار الاصطناعية وفي سكوت مطبق. إن من الأولى لهؤلاء الكادحين أن يعودوا إلى أهاليهم لمواساتهم، فلا سبيل إلى الإفلات من براثن البؤس وصندوق النقد الدولي في آن واحد. إن أُمًّا لا تستطيع أن تتعرف على فلذات كبدها في هذه الزحمة الخانقة. وشريفة، بقامتها القصيرة رغم كعب حذائها العالي، كيف لي أن أراها؟ وبينما كنت أقدّر الزمن الذي يستغرقه البحث في أرجاء المكان وصل القطار وكأنه خرج من جوف التاريخ. واهتزت الأرض لوقع الجلبة الجهنمية وغشي دخان كثيف نصف سماء

الجزائر العاصمة. كيف تسنى لهذا الخلق أن يحتل مكانه بهذه السرعة المذهلة بحيث كانت كل العربات مكتظة إلى غاية المدارج؟ إنه سرّ وغموض. وكل هذا المنظر، والهدوء المطبق، والأيدي المخبأة في الجيوب، والزوّادات على الأرض ملقاة أمام الأرجل لم تكن إلا تمثيلية وصرفاً للأنظار. إن لهؤلاء المساكين من معتادي البؤس طريقة في المراوغة تتجاوز حدود المعقول. فهم ينضحون زمراً زمراً في لمح البصر ويستطيعون أن يتسللوا بالعشرات في ثغرة لا تمرّ منها يد واحدة إلا مبسوطة ولو كانت بقفاز. إنني لم أتمكن من استرجاع أنفاسي حتى وجدت نفسي وحيدة على الرصيف يعتريني الإحساس الرهيب بأني ضيّعتُ آخر قطار السنة. وفي تلك اللحظة تقدم مني شخص تبدو عليه النقمة ويلوح منه التذمر، كان يرتدي قبعة، وهو كسيح، وقال لي بنبرة هادئة: "لا بأس، سيدتي، سيأتي قطار السادسة وسبع وثلاثين، ولكن عليك أن تندفعي بقوة، إنه وقت انتهاء دوام العمال". كان هو رئيس المحطة، وكان عليّ أن أصدقه. شكراً. وهرولتُ مسرعة. لو كانت شريفة في هذه المحطة فلا حظ لي في أن أراها أبداً، سوف تتلقفها حشود تلو حشود إلى أن يشاء الله.

كيف يكون الوضع في أوساط الطلبة، يا ترى؟

إنهم يُنقلون في الحافلات بين الكليات والأحياء الجامعية وكأنهم في فسحة. كم عدد الذين يسيحون في شوارع العاصمة؟ لست أدري، فكل شيء ينمو كالفطريات في هذه المدينة المتحجرة. إنهم موجودون في كل مكان وتعج بهم الأرض حتى ضاقت. وتساءلتُ: ماذا ينقلون في الواقع؟ البنون بلحى والبنات بحجاب، هم لا يتكلمون وهنّ لا يحرّكن ساكناً. أما السائقون فيشغّلون الحافلات وكأنهم مسيَّرون بتعليمات سرية إذ لا يوجد في المنظر كله ما يوحي بجو طلابي. في زماننا، كانت حافلاتنا تلفت الأنظار، كانت عبارة عن خردة روسية أكلها الصدأ حتى بلغ حتار العجلات، وكانت تدخن من كل المنافذ كأنها سيجار مبلل؛ كنّا نغني نشيد القَسَم ونشيد الأممية الاشتراكية والفارّ من الخدمة ونبصق على البرجوازيين وعلى خدمهم وندفع بسائقي السيارات إلى التهلكة لما نريهم من نهودنا الحلمات أو عندما كنا نتظاهر بتسجيل أرقام سياراتهم ونوهمهم بالإشارات بأننا سنبلغ عنهم المخابرات. كان زماناً آخر وكانت سلوكيات أخرى.

كان رجوعي إلى البيت شاقاً ومنهكاً. دلفتُ أجرّ قدميّ جراً وروحي تكاد تخرج مني. بدا لي الحي منفراً ووسخاً، وتلك كانت حالته الطبيعية أصلاً. أما البيت ، بيتي، فاستقبلني ببرودة. كنت في حاجة إلى كل هذا

الجو. فأنا أحب هذه الأوقات المكفهرة، والأجواء بين بين، شيء من الشمس وشيء من القمر، نهار أفل وليل أقبل. يأتي الانفراج ويبعث الأمل، ونجد أنفسنا تختلج أمام أبوابنا، وأحياناً تختلط علينا المفاتيح لفرط تلهفنا على اجتياز الحدود. لقد فرغنا من ذلك العالم وها نحن في جحرنا حيث ننزع سترتنا ونخلد للراحة. أحياناً تشغل ساعتنا الداخلية أو يُحرك ملاكنا الحارس في داخل ذاتنا توجيهاً مدهشاً وإذا بنا ننطلق في الحلم كما يحلم الأطفال، ولا تكون السعادة في مثل هذا الحرمان التام إلا هذا الجو الذي نحلم فيه. عند ذلك نبدأ بالاسترخاء ونقوم على هذه الوتيرة بأشغال البيت أو ترقيع ما يمكن ترقيعه، أو نعمل على ترتيب حالنا بتردد، أو نستحم إذا حضر الماء، ونتكلم في الهاتف إذا رجعت الحرارة، أو نجلس أمام التلفزيون إذا عادت الكهرباء، أو نستلقي على الفراش أو نقرأ كتاباً أو نشرع في الطبخ أو سقي النباتات ورش بودرة مبيد النمل، أو نجلس لنحبك سترة التريكو. وفي بعض الأمسيات يكون مسك رأسنا بملء يدينا على ركبتينا الحركة الوحيدة التي تراودنا. فالحياة غائبة ولا جدوى من الحركة.

ماذا يقول هذا المراد... رقة الأنوثة؟ وهو الذي لا يفقه شيئاً في الموضوع، وأنا، من أكون؟ دب أم

صخرة أم آلة؟ ماذا يعرف عني؟ وماذا يعرف عن النساء؟ عجباً، إنه رجل، والرجال آخر من يعلم. ولا شك أنه يتصور بأن الرقة الذكرية موجودة. يا له من عاطفي!

هل أصدق ما أرى... هناك، معلقاً على مشجب المعاطف في البهو؟ بلى، إنها كنزة بلوفر وردية اللون رقطاء وعليها ورود من الشيفون الأزرق مخيطة ببساطة على واقية الصدر! إن لم تكن هذه الكنزة لي، وأنا متأكدة من ذلك، فإنها تكون لشريفة لا محالة. مممفف.. مممممفف.. إنها تشع برائحة البلوتنيوم التي كانت تتعطر بها. وفي جولة قصيرة بالبيت جمعتُ مما تركت، لباس سترينغ ذي الخيط الرفيع في مغطس الحمام، وعقد زجاجي على منضدة المطبخ، ومنديل تحت الهاتف، وعلبة بودرة بجوار التلفزيون، وقلم كحل في المزهرية، وزوج من المشاية معلقاً بمسمار في الردهة، وطاقية إفريقية مشدودة بمقبض باب المرحاض. إن هذه البنت عبارة عن آلة بذر. ومن الصعب جداً ألا تسترعي الانتباه في أي فيلم بوليسي. أين هي في هذه الساعة؟ وإذا لم تعد لاسترجاع أغراضها فإنها تكون قد ضاعت لا محالة. لا، إن البنت المغناج يهمها كنزها وستعمل على استرداده، إن هذا كل ما تملك.

اكتشفتُ بعد ذلك حقيبة يد صغيرة مدسوسة تحت وسادة الكنبة، كانت عبارة عن شيء مضحك له علاقة بلوازم الزواج، فضيّ اللون رفيع، لا يمكن أن يدخل فيه المرء مفاتيحه دون ترك أصابعه بداخله. وذكّرني المشهد بقرد المخبر الذي يغطس يده في جرة صغيرة طويلة العنق واسعة الفوهة فيلتقط قطعة الحلوى الموضوعة بداخلها ويصاب بالدهشة لما يلاحظ أنه لا يقوى على إخراج يده مقبوضة. لست أدري ما هو المثير للأسى في هذه التجربة؛ هل هو الانتقاص من القرد أم الشعور بأننا أدهى منه وأذكى. لم أجرؤ على فتح الحقيبة الصغيرة في البداية ولكني فتحتها رغم ذلك؛ إن لي حقوقاً في بيتي. وكانت حصيلة الجرد عقب قلم وفرشاة ومشبك شعر وقطعة نقدية ومشبكاً آخر وصورة شخص واقفاً. عجباً، ما هذا؟ رجل! خمس وثلاثون سنة؟ وجه عادي، ولنقل مطابق للمواصفات، ويشبه في تقاطيع وجهه الشكل البيولوجي الحديث لجزائريي الدرجة الأولى: ممتلئ الخدين، منتفخ البطن، كبير العجيزة. ويربي على سبيل الزينة شعراً يحيط بفمه يمكن أن يعبر، حسب الحالة، إما عن فخفخة دينية معتدلة أو عن شيء من لوازم الإغراء والإثارة أو دليل إثبات ذكاء إلكتروني. كان يلبس

هنداماً وكأنه ذاهب لتلبية دعوة كوكتيل عند المافيا. بف، يا له من تافه، إنهم كلهم هكذا، بمجرد أن يدخل الدينار إلى جيوبهم حتى تراهم يهيمون في كل اتجاه! شكل وجهه مصطنع وفي عمق عينيه يبدو تشنج أعصابه. إنني خبيرة في هذا الموضوع، ففي صوري أبدو دائماً كمن وقع في فخ غرير أعور. يبدو صغيراً في السن إلى حد ما لكي يكون جدها، وكبيراً جداً لكي يكون أخاها الصغير أو زميلها في الدراسة، ولكن يمكن أن تكون الاختلالات موجودة في كل زمان ومكان. ومع ذلك، فإن مجال الاحتمالات لا ينتهي عند هذه الحدود؛ يمكن أن يكون عماً أو خالاً، ابن عم أو ابن خال، أو زوج إحدى الجارات. وقد يكون واحداً من المهربين أو صاحب خمارة؛ فهؤلاء كلهم على مقياس الحياة البشرية الحديثة، وأمثال شريفة يمثلون فريستهم المفضلة. أو قد يكون... وفي أثناء البحث كنت أقول في نفسي: إنني أعرف هذا الماكر الخبيث، لقد مرت عليّ هذه الأشياء! أيكون رجلاً عاماً؟ نعم، هذا هو، من يكون إذن؟ أحد الرياضيين أو من رجال السياسة أو أقطاب الصناعة، أو فناناً مقرباً من الوزارة. إنه شخصية من الشخصيات البارزة، هذا كل ما في الأمر!

ما هي العلاقة التي تربط الشخص الموجود في الصورة ببطن شريفة الممتلئ؟ لم أكن قادرة على الامتناع عن طرح هذا السؤال. وهكذا، لقد طُرح الآن.

كنت قد حسبتها صحيحة، إذ مرت ثلاثة أيام دون أن أرى غولة شارع مارينغو. ثم فجأة، هلّت عليّ، وفي سيماها آثار ملل وسأم. ولم تعمد هذه المرة إلى المواربة والمراوغة بل دخلت في الموضوع مباشرة.

"إيه يا بنيتي، إن هذا الجيل من الشباب لا يعوّل عليه! فبمجرد أن يأتي حتى يولّي مدبراً. إنهم يحبون أن يتركوك تعانين الهمّ، بيد أننا في زماننا لم نكن نرغب إلا في العثور على من يشد أزرنا. هذا كل ما كنا نأمل فيه، ولكن أولى لنا أن نطلب المستحيل، كالماء من البلدية مثلاً. قولي لي؛ تلك البنت، لا أعرفها. وأي لباس كانت ترتديه! ما اسمها، وأين زوجها، لماذا خرجت مساء البارحة لتعود بعد منتصف الليل، إلى أين ذهبت، ولماذا خرجت مرة أخرى باكراً وعلى أعصابها؟

آه، عمة زهرة، يا لها من مصادفة، كنت أتهيأ لزيارتك لأسأل عن صحتك، إن سكوتك يقلقني!"

إنني أعرف أدق الحيل معها، عليّ أن أنهال عليها

بكمّ هائل من الأخبار بالجزاف وعليها أن ترتّبها كيفما تشاء.

"تعنين شريفة؟ إنها جميلة أليس كذلك؟ إنها البنت الصغرى لأحد أبناء العمومة الذي هاجر إلى وهران بعد الحرب العالمية الثانية 1939-1945 مباشرة. وكان الأمريكان وقتها في المنطقة وكانوا يقصفوننا بالقنابل ظنّاً منهم أننا نأوي الإرهابيين الألمان. ثم لما أيقنوا أننا كنا نختبئ للاحتماء صاروا يقصفوننا بعلب الشوكولاطة. وهكذا تعلّق بهم الصبية وصاروا لا يبرحونهم، وذهب الكثيرون معهم كجلابين للحظ، ومنذ ذلك الوقت غابت عنا أخبارهم. وفي بلاد القبائل، لم يكن لنا ما نأكله إلا فرينة البلوط والزيتون الأخضر وجبن الماعز. آه، كدت أن أنسى، إن غذاءنا المفضل نحن قبائل الجبال هو البخسيس، تعرفينه، إنه التين الطازج المقطوف من الكرم مباشرة. ولا شيء لدينا هناك في الجبال يصلح للحرث حيث الحجارة فقط. ولما شعر ابن العم بدنوّ أجله طلب من ابنته أن تزور العائلة بدلاً عنه. إن لا حول لنا ولا قوة، والله عالم بحالنا وشكوانا. وأنت تعلمين أكثر مني إن عائلتي مشتتة، وقضى علينا الزمان بالنفي من مدينة إلى أخرى، إن لم يكن في الكثير من المرات إلى خارج هذه الدنيا. وهكذا هو حال هذه البنت المسكينة، تأتي

وتذهب، ولن تتوقف عن اللف والدوران، فأبناء العمومة متناثرون في كل مكان، وكلهم مهاجرون غير قانونيين يحملون معهم البؤس والحنين حيثما حلوا وارتحلوا. ولما كانت البنت مروبصة، تسير وتتكلم وهي نائمة، فإنها لا تعلم شيئاً عن الوقت. ماذا تريدين يا عمة زهرة، تلك هي سنّة الحياة!

- وسفيان، كيف حاله؟ إنه في وهران، هل قابل ابن العم وتبادل وإياه الأخبار، أليس كذلك؟

كيف قالت هذا! إن المرأة خبيثة ماكرة، وهي تريد أن توقعني في الفخ.

- كلا يا عزيزتي، أنت تعرفين سفيان كما أعرفه، إنه ولد طائش ورأسه في السماء! أتتذكرين لما كان يتظاهر بعدم رؤيتك عندما كان يصادفك أمام الباب".

وهكذا انتزعتُ منها أسبوعاً من السعادة. ولم تصدق الغولة أي كلمة مما اخترعتُ، ولكنها عندما تريد الثرثرة وإثارة النمائم فلا تحتاج إلا للسانها وريقها.

لم يُغمض لي جفن طوال الليل. رتّبتُ شؤون البيت من أقصاه إلى أقصاه، وربما مرتين، ولم أعد أذكر أين بدأتُ الأشغال بالضبط. في البداية غسلتُ الملابس

التي كانت قيد الانتظار، ثم هِمتُ. كان في الجو شيء من جو فيلم البرّاق للمخرج ستانلي كوبريك قبل أن ينكشف السر الخفي على الشاشة. إنه لمن الغباوة أن تكون قد انطلت عليّ مثل تلك الأشياء وبقيتُ أجهلها مدة طويلة. بعدها اكتشفت رواقاً تحت حجرة السلم الخلفية في الطابق الثاني، وفي نهاية ذلك الجزء من الدهليز غير الموضب كانت توجد غرفة، إنها تشبه غرفة ضيقة، ثم صدر من الباب صرير كأنه لم يفتح منذ ألف سنة. هل كانت حجرة للعبيد، أم كانت مخبأ سرياً لأوقات الشدة؟ إنَّ هذه الفكرة لا تصدر إلا عن أحد الأتراك، لا شك، فهؤلاء الناس لم يكن لهم رأس فقط تحت الطربوش. كنت أتوقع أن أعثر على هيكل عظمي أو على دخان يخادعني لينسل بين ساقيّ ولكن لم يحدث أي شيء من هذا القبيل؛ وكانت تنبعث من هذه الخلوة رائحة العفونة. لم أجد لا ترّهة من الترهات ولا رقاً ولا مهراقاً ولا أي دليل يساعدني على المضي قدماً في البحث. وفي يوم من الأيام سوف أقوم بدس مخطط مليء بالرسوم الغامضة والمبهمة لعله يساعد من يخلفني في العيش على فكرة أنه سيعيش عيشة الأثرياء بعيداً عن كل الهموم والمشاكل، ومع ذرات من مسحوق الذهب ستكون النتيجة باهرة. إن هذه التخشيبات الكبيرة تتطور مع تطور الزمن وتخبئ لنا الكثير من الأسرار.

خانتني ركبتاي فجأة. قفّلت على الموضوع، واستلقيت لقراءة كتاب. ثم قمت وحضّرت لنفسي نقيعاً ساخناً ارتشفته في المطبخ وأنا أراقب بنات وردان يقمن وليمة في فوضى عارمة. لقد توقفتُ منذ مدة عن محاربة هذه الصراصير ويبدو أن المستقبل لها. لقد قرأتُ مرة في مجلة علمية قديمة أننا كلما أمعنّا في إزعاجها كلما تعافتْ وقويتْ؛ إذن لم يبق لي إلا أن أدعها وشأنها تسرح وتمرح حيث شاءت آملة أن يقضي عليها الفراغ والشراهة في الأكل. بعد ذلك قمتُ بكآبة ولعبتُ لعبة النجّاحة والاستماع في آن واحد للراديو وهو يثرثر في أي كلام والسلام، وعن أوجاع الدماغ في البلد، مع مستمعين يتصلون من بعيد، وغير موجودين على الأرجح، وهم مقتنعون أن مناجاتهم الليلية تخدم قضية كبيرة وذات شأن عظيم. أما البرنامج فكان يدور حول روح المواطنة والفضلات المنزلية، وهكذا، راحوا بكل حزم وعزم وبالإجماع يكنسون العالم كله ويكيلون له كيلاً من الهجوم والتهم وما من مستمع واحد توقف برهة ليكنس أمام بابه. يا لهم من أغبياء، إن من كان مريضاً إلى هذا الحد عليه بالنوم ولا يحاول جلب الاهتمام أو الأنظار! ومن أعد فراشه بنفسه للنوم لا ينبغي له أن يشتم الخادمة.

وبعدها، شرعتُ في البكاء، فالبكاء ثم البكاء.!

أتساءل عن أي زمن هذا الذي أعيش فيه. كل شيء تداعى وهوى من حولي. هل كان لي ماضٍ، هل عشتُ حقاً، هل كان لي شيء عدا والديّ العزيزين اللذين فارقا الحياة قبل الأوان، وشقيق يافع مخبول فعلاً غادر من تلقاء نفسه أو هو بصدد المغادرة. وياسين، العظيم، الذي ضاعت به السبل وبقي على الطريق ولم يعرف شيئاً ذا قيمة إلا سيارته الصغيرة. إننا نضيع دوماً أمام الفراغ. أيّ عصر يكون في الخارج يا تُرى؟ فالضجيج والغبار اللذان يصلاني من الخارج لا يبشران بأمر جدير بالقيمة. لا شك أن في اللعبة غشاً حيث يتنافس الإسلام الأكثر ظلامية والعصرنة الأكثر زيفاً على القديم البالي والمبادرات المستحدثة. في الواقع كلٌّ يغنّي على ليلاه، إلى درجة مرضتْ بفعلها أُذُناي. وحتى الزمن الذي صار تراثاً عالمياً مشتركاً بين الإنسانية يتعرض إلى لعنات ماضوية فتاكة وإهانات مستقبلية مفزعة ولم يبق فيه لا قوة ولا حماساً ولا نوراً يضيء. هل ينبغي لنا أن نعشق العدم لكي نسلط على أنفسنا مثل هذا الاعوجاج! إن من يقول مثل هذا الكلام يفكر لا محالة

في عكسه تماماً ويحشر نفسه في الزمرة هوناً وهواناً مقطب الحاجبين لا يلوي على شيء. لماذا علينا أن نضع عصابة على ناظرينا؟ لست أدري، فلقد صار الزمان بالنسبة لهؤلاء الطفرات مثل نظارات الشمس بالنسبة للعميان، فهو يفضح عجزهم عن الرؤية وعدم قدرتهم على الفعل بالنتيجة. لقد صارت حياتي بسببهم أو بسبب فولتير عبارة عن لا شيء أو شيء لا قيمة له، عبارة عن وثبات وقفزات بين النهوض والركون، ثم توقفتُ كما توقفتْ ساعة بهو الدار عن النبض منذ غادرها أهلها. إن وقتي الخاص لا يعدو أن يكون محض ترقيع ورتق؛ فهو يأخذ شيئاً من طفولتي السعيدة وغير المكتملة، وشيئاً مما أقرأه وكثيراً مما أرى في التلفزيون وبعضاً مما أحلم به وقدراً كافياً مما تحمله ثورة الغضب، وبذلك يزودني بسلوك أسلكه يوماً فيوماً دون تطلع إلى المستقبل. ولقد وضّبت لنفسي طريقة في العيش لا تمتّ بصلة للمال ولا للتملق، ليس فيها دين ولا ديدن ولا مماطلة، أم أن الأشياء فرضت نفسها بنفسها كما لو كنا نعيش حياة الخمول على جزيرة. أو تعطلت بنا الحياة في زحمة السير، ولا حيلة لنا إلا فيما تيسر. والحق يقال، إنني لم أدرك تمام الإدراك أنني لا أعبأ مطلقاً بترّهات سادة العارفين. فأنا كما كانت الغانية بينيلوبي عند اليونانيين القدامى، صماء، لا تعي صوت الوصال، بل مثابرة على المضي في

مشواري إلى منتهاه، ولي في ذلك الوحدانية التي اتخذتها سترة ودرعاً.

علينا أن ندافع عن أنفسنا في الحياة حتى ولو تكبدنا أفدح الخسائر.

أما الدار، أعني داري، فلم تترك لي الخيار أبداً. ففي بعض صباح لا لون له ولا طعم، يطول به ليلي بفظاعة وبشاعة، أشعر أنني حبيسة فيها وأسيرة، وأنا راضية بذلك إذ ليس لي سواها مأوى آخر ألتجئ إليه. لقد عمّرت هذه الدار قرنين من الزمن، وعليّ أن أرعاها باستمرار، ولكنني أرى وأحس أنها ستهوي يوماً ما على رأسي؛ فهي تعود إلى عهد الإيالة العثمانية، غرفها صغيرة جداً ونوافذها واطية جداً وأبوابها قصيرة، أما سلالمها فعبارة عن مغامرة للطالع والنازل، وقد يكون نحتها فنانون لكل منهم لا محالة رجل أقصر من رجل وكان لهم فكر لا محالة ضيق جداً. وإذا كان لا بد من تفسير لذلك فلعلنا نجدها في العائلة، فكل أفراد العائلة لهم ربلة ساق أكبر من ربلة الساق الأخرى ولهم احدوداب في الظهر ومشية تشبه مشية البط، وكذلك لنا كلنا حركة قصيرة، إذ لا دخل لعلم الوراثة في كل هذه الظواهر فالدار هي التي صيرتنا على هذه الحال. لقد كان الخط المتعامد في عهد تشييدها لغزاً

من الألغاز، ولم تلامس الزاوية القائمة كوس المساح أبداً، وبذلك لم يتمكّنا من اللقاء تحت مسجّة البنّاء. وهكذا يزيغ نظر الناظر، وحتى الأنف، إذ صارت رائحة العفونة جزءاً لا يتجزأ من الحيطان. إنني أتخيل نفسي أحياناً نملة تتحسس مسلكها في المتاهة وأحياناً أراني أليس في بلاد العجائب.

شيّدت الدار على يد ضابط من ضباط البلاط، أفندي، يدعى مصطفى الملك، وسجّل اسمه وشعارات نبالته عند المدخل في يسار الجبهية على رخام محزز أبلاه الزمنُ وتعاقبُ السنين. وهذا ما جعل سكان الحي في زماننا يقولون دار مصطفي وهم يقصدوننا، وصار ذلك مزعجاً ومحرجاً لنا، فالرجل خلّف وراءه سمعة فظيعة في اللواط بالأطفال، حتى وإن كان في تلك الأزمنة وتلك الأمكنة لمثل هذا الجرم المشهود مكانة ضمن مكارم الأخلاق.

تستمد الدار زينتها وبهرجها من فسيفسائها العفوية الساذجة، ومن حفرها المنمقة والمنتظمة في مشكاة جذابة حيث تصطف زخارف نحاسية في غاية الروعة كما تستزيد أبهة من أروقتها الضيقة وسلالمها الوعرة الملتوية على هواها. أما السحر فموجود في كل ثناياها؛ ففي كل زاوية يصادفنا شبح متشح بالجلاّبة،

أو جن ملتحٍ منشغل بفرك قنديله، أو عفريتة مغوية الرجال ربربٍ لحيمة مكبلة مع عجوز قبيحة الشكل، أو رجل سيء الهيئة والبنية وهو يحيك مؤامرة ضد الباشا. وفي الواقع، لا يوجد شيء من هذا القبيل، ولكن الحذر واجب.

لقد عشت في هذا المناخ وتشبعتُ به، وبذلك تشكّل إدراكي للأشياء مع مرّ الزمن. كان من الممكن أن يتشكل بصورة أخرى لو أمكن لي العيش في المساكن الشعبية ذات الإيجار المعتدل والمكتظة عن آخرها والمنغرسة في هضبة موحلة تتقاذفها الرياح التي تنفثها المصانع في وسط ضاحية منكوبة. إن لي الإطار الذي يجعلني أحلم ما شئت طوال الوقت ولا ينقصني إلا المال، أما راتبي الذي أتقاضاه فهو يوفر لي الكوابيس أكثر ما يتيح لي سبل الرفاهية.

ومع موت التركي انتقلت الدار إلى مسار آخر وصيرورة أخرى. ومن مكر الأقدار أن هذه البناية كانت تتبوأ مكانة إستراتيجية في أعلى موقع موجود صار يدعى فيما بعد منحدر فالي ـ وهو اسم ماريشال في الجيش الفرنسي، وكان في يوم من الأيام الحاكم العام للجزائر، إذ يقول عنه بعض معاصريه إنه كانت له يد من حديد في قفاز من حرير ويقول بعضهم كانت له يد

من حرير في قفاز من حديد ـ ربما كان ذلك صحيحاً، ولكن المؤكد أن ضابطاً فرنسياً حل محل ضابط تركي وهو الكولونيل لويس ـ جوزيف دي لابويسيار الذي كانت رتبته فيكونت بين الأعيان. وسجّل اسمه وشعارات نبالته عند المدخل في يمين الجبهية على رخام متوج بالزهر انحتّ بفعل الزمن وتعاقبِ السنين. وأما حياته العسكرية فلا نعلم منها أي شيء، وكل ما أعلمه محض افتراض وهو أنه يكون لا محالة قد أبلى بلاء حسناً في ساحات الوغى لكي يتقلد هذه الرتبة الرفيعة، إلا إذا كان قد ورث كل ذلك عن أسلافه. وترتب على سقوط الملك لويس العاشر سقوط هذا الضابط الذي كان من أنصار الشرعية والمدافعين عنها، وكان رومانسياً حالماً، إذ رفض أن تحل الراية الثلاثية الألوان محل الراية البيضاء على سارية الفيلق الذي كان تحت إمرته، فاستقال من الجيش قبل أن يقيله جمهوريون متسلقون متملقون وضاع في وسط الخلق الذي لا رتبة له في قلب مدينة الجزائر. وكان هذا الضابط عالماً محباً للطبيعة من الطراز الأول وما زال اسمه يملأ المصنفات المعتبرة التي كتبها والتي ما زالت تملأ سقيفة الدار. وجال في البلاد طولاً وعرضاً، ماشياً على الأقدام وراكباً الحنطور، تحت حرّ الشمس ولفحها وفي يده قلم رصاص يدوّن به ويرسم كل ما تيسر لفضوله أن يناله من الصحراء. كما ملأ

بعض المجلدات بدقة متناهية وخارقة للعادة. ومن الطريف جداً أن يصبح نبات ضامر ومرّ كالحنظل يرعاه الماعز شيئاً رائعاً بقلم عالم جهبذ. أما صغار القوم والدهماء فكانوا لا يعبأون بشيء ولا يعيرون جهد الناس اهتماماً، وانتهى الحال بدراسات هذا العالم إلى أن تركن في السقيفة حيث صارت مرتعاً خصباً لأجيال وأجيال من الفئران المتعطشة للعلم والمعرفة. والحاصل، تلك هي حال الدنيا ولن يجد لها المرء تبديلاً، فيها العالم والجاهل وفيها من يبني ويشيد وفيها من يهدم ويهدّ. وفي يوم من الأيام، ولا أحد يعلم ما الحمى التي ألمّت بهذا العالم، خرج شاهراً إسلامه، وتزوج بنتاً من بنات المسلمين تدعى مريم وهي ثانية بكر من ذرية عطار شهم في حيّ القصبة، واختار اسم يوسف تيمناً باسم الابن المحبب إلى قلب النبي يعقوب وزوجته راشل؛ وكان يعترف له بحسن إسلامه وبأنه كان مؤمناً حقيقياً، إذ يضرب به المثل كلما كانت مناسبة أو سنحت فرصة للتذكير بمآثر الإسلام على سائر الديانات الأخرى. ومن آيات ذلك أن اعتناق المسيحيين المشهورين الإسلام يأتي دوماً بجديد ويخدم الإسلام خدمة جليلة، وتقام بذلك دعاية هائلة لكبار الأعلام من العالم المسيحي الذين دخلوا الإسلام في الوقت المناسب. وهكذا، تراني أتساءل، ولا أجد تفسيراً، لماذا يفسر مجيء هؤلاء الأبطال إلى

الإسلام كمن يستسلم للعدو؟ هل في عقولهم ما لا قبل لنا بفهمه؟ وعلى العكس من ذلك تماماً، فإن من يدخل من المسلمين في المسيحية لا يجرؤ على الإقرار بذلك ولو تحت التعذيب، ولا يبوح به حتى لمن يقر له بذنوبه وأسراره، بل يواصل التردد على المساجد، أكثر ورعاً وأكثر همة وحمية من "الطالبان". لا يهم، ما دام كل امرئ يعتقد فيما شاء له أن يعتقد فيه ولا يمس الناس بسوء. ولقد نزّل في محكم التنزيل ما معناه أن القرآن أُنزل ختاماً للرسالات ومحمداً أرسل خاتماً للنبيين والمرسلين. ولذلك فمن الجائز والمباح للإنسان أن "يتحيّن" ويتحسن، وهذا ما قام به هذا الفيكونت بكل بساطة، والسلام. ومات يوسف، الرجل الطيب، وقد جاوز عمره تسعين عاماً، في فراشه قرير العين مرتاح البال، محاطاً بأقربائه وأنسبائه، غير أن هناك من رأى في باريس أن نهايته كانت غريبة نوعاً ما. لقد كان الناس يعتقدون هناك أنّ من كان بعيداً عن الحضارة لا بد له من أن يموت ميتة عنيفة وبتلك الطرق الفظيعة التي يتجرع فيها المرء الموت الزؤام، أو على الأقل بحمى عاتية مثلاً لا تمهل المصاب كثيراً، لكي يبدو الأمر غريباً نوعاً ما في أعينهم. ربما كان ذلك ما حصل، وإن كان الناس في تلك الأوقات وفي تلك الربوع يموتون كما يموت سائر الخلق إما بالشيخوخة وإما بالمجاعة وإما بضربة شمس أو بضربة قاضية من

رفس دابة، كما يجوز أن يموت الناس بداء الملاريا أو بجحافل الجراد أو بضربة خنجر تغرس بين الكتفين. وكان ميراث المرحوم مدعاة للتفكير والتدبر، فبقدر ما كان "الفيكونت" زاهداً في الدنيا ومتاعها بقدر ما كان له فيها من أملاك في بلاد البربر وفي "سولونيي" مسقط رأسه. وأحصيت التركة بمقابلة مستندات التوثيق في رحلات الذهاب والإياب بين الجزائر وفرنسا فوجد كتّاب العدل وموثقو العقود ذوو البراعة والخبرة بسرعة في القوانين ما يؤول بموجبها للأثرياء وما يمكن أن تجود به على الفقراء، وعادت الأمور إلى نصابها، وطُردت مريم مع ما بقي لها من ذكريات واحتفظ آل "لا بويسيار" الفرنسيون بممتلكاتهم كاملة غير منقوصة.

وانتقلت ملكية الدار بسرعة إلى شخص يدعى داود بن شقرون، وهو يهودي من يهود باب عزون الذي جعل من إبرام صفقات عقارية ثابتة ومنقولة بين أتراك فارين من البلد وفرنسيين قادمين إليها مورد رزق يقتات به، ثم عاش بقية عمره كواحد من أغنى أغنياء البلد، أو على الأقل هذا ما كانت تتداوله الألسن، وفي إحدى الصور القديمة من طراز داغير التي ظلت في حوزتنا كان يظهر هذا الشخص جالساً القرفصاء، ومتكئاً إلى كوخ متهالك آيل للسقوط، وفي يده ذنب عجل ينش به الذباب، وكان أشعث أغبر رث الثياب

يشبه أي قرد طاعن في السن. ولكن، يجوز أن يكون المرء ثرياً وماكراً وذا وجهين، لهذا يجب ألا تستبعد فرضية مخادعته المصور لكي يظهره بتلك الصورة التي خلدته كمن يعاني البؤس بالإثبات والبينة. ولم يجد سكان الحي القدامى الذين اختاروا إقامة هيئة أركانهم في مقهى عربية في أدنى سفح الكاف من اسم يطلقونه إلا قصر الفرنسي أو قلعة الداخل في الإسلام أو مأوى اليهودي أو عش الغراب أو غار الثعلب للإشارة إلى حصن التركي. وبقيت هذه التسميات وجرّت علينا الويلات. إذ ماذا يمكن أن تعني هذه الأسماء بالنسبة لنا نحن المسلمين أباً عن جد، في بلد حر مستقل وكامل السيادة ومتمسك بدقة وامتياز بما يسمى الامتداد العربي الإسلامي، إن لم يصبح الداخل في الإسلام يعني المرتد، والفرنسي يعني الحركي، وماذا يمكن أن يعني اليهودي إن لم يكن للدلالة على السارق؟ وهكذا أطلقت طريقتنا في المعيشة كعمال لا يكلون ولا يملون العنان للألسن لتتشدق بما تشاء من كلام.

إننا ندين للسيد لويس ـ جوزيف بالفضل في أنه أضفى على الدار مدفأة رائعة تتوسط صالون الضيافة، وفتح رواقاً يفضي إلى الحديقة، وحوّل الحمام التقليدي إلى قاعة استحمام، وأبدل فرن طهي الخبز بمطبخ عصري، كما أوجد حلاً لمشكلة نقص المياه بذكاء

وبراعة لما قام بحفر بئر في الحديقة وجلب الماء إلى الدار بأنابيب تدعو للغرابة والدهشة. ولما كان شخصاً كريماً ورحيماً نصب عيناً جارية على الطريق العمومي يستسقي منها المارة، وعادت فعلته هذه في البداية بخراب بيت الساقي الذي كان يقتات من هذه المادة النادرة والثمينة، وبعدها بقليل وبعدما شبت حرب ضروس بين الناس في الحي من أنصار العين الجارية والماء بالمجان والمعارضين الذين يتقولون بأن ماءها مسموم واستشهدوا بمن يتصنعون الألم والأوجاع من الشهود بقدر أعداد الأرذال الأخسّاء في المدينة كلها. ولم يتوقف في اندفاعه حتى جهّز البهو بساعة حائط في غاية الروعة ولكنْ أيادٍ آثمة مجرمة قامت فيما بعد باستبدال رقاصها الثقيل المذهب بكرة من رصاص. ومنذ ذلك الوقت صارت الساعة المسكينة المكبلة بهذه الصورة تئن وكأنها تعاني شر العذاب. وبعدما صار صاحب الدار يدعى يوسف قام بتزيين مكتبه الذي يتخذه مصلى بالخزف المزين بآيات قرآنية رسمت خطوطها أيدي شعراء كبار، ثم شق صالون القاعة السفلية إلى شقين، وصار به جناح مخصص للرجال وآخر للنساء، ونصب في وسطه مشربية رائعة. وفي الطابق العلوي، قام بتجهيز خدر الحريم، المقفل من الجهات الأربع، بوسائل الراحة العصرية التي تسعد كل النساء الماكثات في البيوت من عفش من طراز موقد

الفحم وفسقية الاغتسال، كما رفع حائط السياج الخارجي ووضع فوقه شقوف الزجاج والخزف المكسور وهو ما يزيد المرء إحساساً بالوجود في كنف السجن، وهذا ما أشعر به في الوقت الراهن ما دامت الحرب دائرة رحاها في المدينة إلى الحد الذي جعلني أصفّح الأبواب والنوافذ بالحديد ولا أبرح الدار أبداً. وأقام في النهاية مثابة جذابة للوضوء في قاعة الغسيل.

وبمجرد أن أبرم ابن شقرون الصفقة آلت الدار إلى أحد المهاجرين القادمين لتوهم من منطقة ترانسلفانيا. لم يكن الناس يدركون تماماً معنى ذلك، وكان يتهيأ لهم أنه روماني في الصباح، ومجري في المساء، ومهرب الأشخاص ليلاً في أوقات البلبلة والقلاقل. ويقال إنَّ اللئيم والغريب التقيا بمحض المصادفة والمفاجأة وهما على آخر درجة على جسر الباخرة البخارية. يمكن أن أتفهم جيداً كما ورد في الرواية أن الصفقة أُبرمت في التوّ والحين وفي صالح كلا الطرفين ولكن كل ذلك لا يعدو أن يكون صيغة من صيغ الموثقين المألوفة ومحض مسحوق من مساحيق الدجالين، بل إنني أميل أكثر إلى التصديق بأن الصفقة أبرمت في السر والكتمان "ولا من شاف ولا من دري". إن بن شقرون ليس أي شخص وكذلك الذي حط الرحال ليس بالشخص الهين. فلقد ترك وراءه

ذكرى ظاهرة بشرية خارجة مباشرة من الخوارق السينمائية. ولكن، هل يعقل أن يولد الإنسان في إقليم "الكربات" ويظل إنساناً؟ لم يكن هذا الشخص الظاهرة يؤمن إلا بالشيء الخارج عن المألوف. وكانت تربطه بالهامات من مصاصي الدماء علاقات الصداقة المتينة، وكان يتحدث عنها وكأنها حقيقة أزلية. وهو لما قدم كان يحمل لقباً غريباً جداً، تارتم... وشيئاً آخر لا يمكن التلفظ به ثم اسماً ينعقد معه اللسان لو حاول النطق به؛ كريزهيك... أو شيئاً من هذا القبيل. وكانت أفواه الناس تمتلئ عن آخرها لمجرد محاولة إلقاء السلام عليه. يقول إنه كان يشتغل في جبال ترانسيلفانيا العليا المكسوة بالثلج لدى أحد الفويفودات من سلالة الفناريوت التي يروي عنها الأدب أشياء يشيب لها الولدان. والخلاصة، إنه رضع فن المكر والخداع في المهد. واستنتجت من ذلك كله أن المفاوضات على الصفقة كانت حامية الوطيس وسمع بها القاصي والداني. وبمجرد دخوله دار البلدية صار هذا الفلان، هيّ بن بيّ، مستعداً كل الاستعداد للموت في سبيل الوطن الذي أنجب جان جاك روسو. وبذلك انقطع فجأة سيل المزاحين الماجنين الذين كانوا يقدمون المدد من المغتربين من الجيل الأول، وصار بين عشية وضحاها ذا قدم سوداء ككل الأقدام السود. وكان الاندماج في ذلك العهد لا يتطلب أكثر من أن يخلع

المرء نعليه ويضع على رأسه قبعة "البيريه"، حيث تسير الأمور بعد ذلك بصورة عادية كما تسير في أي مكان وأي زمان. بعد ذلك، أخذ يصيح ملء شدقيه: "أنا فرنسي!" كما كان يصرخ خلق كثيرون في الميناء، عند أسفل البوارج: "بوانا، بوانا، يا حمال البنان!" وهذه الموضة يمكن أن تكون هي السائدة آنذاك، وأنَّ ذلك قد يشكل بهرج الحياة إذا أضيف له سحر الإنارة العامة بالغاز. وهكذا أصبح هذا الشخص يدعى منذ ذلك الوقت فرانسوا كارباتوس بحيث تمكّن من أن يضفي على نفسه بسرعة وبنشاط خارق للعادة سمعة المصلح لكل عطب وعطل وهذا ما يسّر له تجارة العقاقير والخردوات وتجارة الحبوب والبقالة وتجارة الأقمشة والأسلحة والعطور، إلخ... وكان له مستودع الحاجيات بكامله كما كان تجار أيام زمان يحسنون ممارسة ذلك، ثم صار الخوف الشديد من الهامات الذي لم يسبق أن أحس به الناس أبداً منتشراً في وسط العامة في المدينة كلها كالنار في الهشيم، وغدت كل الوسائل متاحة ومباحة للتخلص منها والقضاء عليها بدءاً من الثوم المضفور في خصلات إلى المنكش الخشبي المبارك. إننا ندين لهذا الشخص بالفضل في تحويل مستودع الحبوب إلى محل بقالة، وهي العملية التي استفاد منها من خلفه في السكن بالدار ما عدا الدكتور مونتالدو الذي سبقنا إليها ونحن الذين لم يكن

لنا الحق في ممارسة التجارة (كان أبيَ يحلم دوماً بامتلاك دكان راق لا تخلو منه بضاعة) حيث كانت الحكومة الجزائرية اختارت في ذلك العهد النموذج السوفييتي لإعالة شعبها الجائع.

وأصيب السيد كارباتوس في أواخر حياته، مع بداية القرن بأزمة روحانية، وهي نوع من الهذيان الرعاشي الذي سببته له الجرعات الزائدة من مادة الثوم. وبعد محاولة التداوي بشتى الأساليب الفاشلة هاجر إلى أمريكا وهناك ضاعت آثاره وانقطعت أخباره، إذ مما لا شك أن هامات أمريكا لم تتعرف عليه.

إنه لمن من الصعب فهم ما جرى من أحداث بالضبط، وما حيك من حيل واختلق من حلول، ولكن أسرار الصفقات بقيت كما هي، مستورة، واشترى الدار مرة أخرى شخص آخر... من... يا ترى؟... شخص يدعى داود بن شقرون! لقد كان كارباتوس قد فقد الصواب آنذاك، وهو قد باع الدار بالمراخصة دون التدقيق في التفاصيل، ولكنها كانت حيلة أيضاً في التظاهر بالجنون لزيادة الربح في تجارته.

وقيل من الكلام الكثير الكثير عن الناس الذين تتابعوا على الدار، مصطفى، لويس ـ جوزيف ـ يوسف، بن شقرون، كارباتوس. عن التركي المشوّه

الخلقة، والفرنسي الذي وقع في قصعة الإسلام، واليهودي الذي يحشر أنفه في كل شيء، ورجل الكاريات الفظيع، والدكتور شفايتزر الذي مات من الكد والتعب، وأين يمكن أن يجد مؤلفو الحكايات المتجولون مثل تلك المادة الخصبة؟ كنا نفرح لتناقل ذلك الهراء والهذيان اللذين أصبحا متعة لنا وإشهاراً للدار التي به تزداد قيمة، إذ لم تنقطع عندنا أخبار الجن والهامات والكنوز الدفينة وحضور الأنبياء وحدوث الظواهر غير السوية والخارجة عن المألوف، وصارت مواضيع شيقة نمدد بها سهراتنا إذ كنا في وضع قد نحسد عليه حقاً.

ما زالت تلك الحكايات تعتمل في رأسي ويختلط بعضها ببعض، وكان كل من فيها يخاطب الآخر بلسانه ويلبس هندامه الخاص. كنتُ أتنقل من زمن إلى آخر وأضع رجلاً هنا وأدنو برأسي من قارة قاصية هناك. واكتسبتُ من هذا الوضع الخاص مظهر الإنسان الموجود في كل مكان وغير الموجود في أي مكان، وغريبة الديار في بلدي مع أن لي جذوراً مغروسة في كل تلك الجدران، إذ لا يوجد شيء أكثر نسبية من مصدر الأشياء نفسها.

لقد كان الانسياق وراء الاستيهامِ الهوايةَ المفضلة

دوماً في منحدر فالي. وكنت أقول في نفسي إن من يعش حياة رتيبة متكررة لا يشعر أبداً بمرور الوقت.

وانتقلت ملكية الدار طوال النصف الثاني من القرن من يد إلى يد أخرى، حيث بدأت مرحلة حالكة بئيسة عندما تملّكها أشخاص نكرة وأصحاب المال الوفير والوافدون الجدد والعائلات الكثيرة العدد. وعرفوا كلهم داود بن شقرون عن طريق أبنائه يعقوب وصدوق وإيلي ومن خلال أحفاده إفرايم ومردخاي ولكن بأسماء المسلمين. أما المتشككون فهم يعتقدون بأنها كانت حيلة استعملها العجوز الشحيح حتى بعد وفاته، ولكن الحقيقة هي أن هذه الخديعة كانت تمليها الأحداث لا غير في تلك المرحلة الزمنية التعيسة التي عرفت أشكالاً لا تعد ولا تحصى من الغموض كان المتشدقون يسمونها بجرأة متصنعة " التيهوديت"، وهي الظاهرة التي خرجت إلى الوجود بفعل تحريض الرابطات الاشتراكية المعادية لليهود، ونتيجة لصدور مرسوم كريميو، وقضية الضابط دريفوس، ومغامرات قراقوش البطل أبو زوادة بحيث أصبح تاريخاً، معقداً، ومقرفاً إلى درجة تدعو للرثاء. أما الوافدون الجدد كما أسلفت، فلم يكونوا يمكثون طويلاً، بل كانوا يبقون الوقت الذي يلزمهم لاستكمال تكوين ملف وإيداعه بالبلدية بكل وقار وخشوع. وجاء في الخضم اكتشاف

السكن الأنسب لأرانب المدن؛ وهو السكن ذو الإيجار المعتدل. ولما وصلت الرفاهية إلى أقاليم المستعمرة صارت مدينة الجزائر وضواحيها مساحات تغطيها الأعمدة والأبراج فتوافد الناس عليها أفواجاً ملؤهم الفرحة والبهجة، حاملين متاعهم على الشاحنات الصغيرة والعربات وعلى الحمير، وكان الأطفال يتقدمون الموكب وهم يغنّون أغنية الموسم بأعلى صوتهم وتأتي الجدات الطاعنات في السن في ذيل الموكب وهن يتمتمن في ورع وخشوع. وبمجرد أن يبلغ القوم أعلى السلالم ويحطون رحالهم حتى يكون الفرش والغسيل من شتى الألوان قد ملأ الشرفات عن آخرها. والآن، آن للحرب أن تندلع بين الجيران. وفي هذا الوقت الذي أنا بصدد توثيق المآسي التي تجرّعتها منه على الورق تكون الأوضاع قد ازدادت تفاقماً بفعل أولئك الذين يمارسون مهنة الحكام في النهار ويزاولون نشاط التجار عند حلول المساء. وفي أسفل بئر السلم يجهز الأطفال على من بقي من الجرحى ثم يهرولون لاستلام المكافأة من يد كبيرهم الذي علمهم السحر. وهكذا صارت كثرة الذهاب والإياب، المباغتة والمتطفلة وغير اللازمة بطبيعتها، تلحق أضراراً بالغة بالدار التي أدخلت عليها تعديلات هي عبارة عن عمليات تشويه ومسخ. وبذلك غزا اللوح المستعار والفورميكا واللينيوم والبلاستيك والسكاي المسكن

المحترم بكامله وتم القضاء بفظاظة على بلاط الآجر والجص والفسيفساء والنحاس وطالت الأيادي العابثة حتى الجلد العتيق. يا لها من كارثة.

تكبد الحي الضربات الأولى، وأصبح متعرجاً وملتوياً، وبدأت الأشياء تنمو هنا وهناك، بالمألوف وبالمقلوب، وظهرت للعيان المظاهر المنحرفة والأكواخ الوسخة والمساكن الغريبة، ثم تعرجت الطرق الضيقة في تشابك غريب والدروب المسدودة التي لا يعلم بمخارجها إلا الله، والسلالم الغريبة والمزابل النتنة ومجاري الصرف الصحي الطافحة بالتربة والطين والمجاري المختنقة والإسطبلات والمطاعم الحقيرة، وكنيسة وبيعة يهودية وسبعة مساجد، ومعبد غريب تلاشى في الزحمة، وثلاث مقابر، وحوانيت صغيرة داكنة ومظلمة، وبيوت بغاء، ومسلكات المجاري والقنوات، ومصاهر الحديد، ثم ثلاث مدارس بنيت بالرافيا وصفائح الحديد المتموجة على مساحات مخصصة للأطفال ليلعبوا فيها، كما شيّد مكتب لتحرير الشكاوى أُحرق في يوم وساعة تدشينه على يد سيادة شيخ البلدية وحضرة تجار السلع المرافقين له. وهكذا ظهر إلى الوجود بيت من البيوت القصديرية بعملية قيصرية في القرن الذهبي.

ومع ذلك، لطالما كنت أشعر بحالة رومانسية طاغية وأنا أعيش في مثل هذه المتاهة حيث يتساكن الغموض والبؤس ويتصارعان باستمرار في خضم الفوضى والغبار والمزابل. إن ذلك العهد قد ولّى، وكنتُ مؤمنة آنذاك بالمثل الطوباوية، حيث اكتشفتُ حينها غاندي والأم تيريزا وغيرهما، ومنهم رامبو وجماعته، وكان يجذبني الحنين إلى مدينتي كالكوتا ومقديشيو وإلى غيتوهات بريتوريا وبيوت الصفيح في باهيا البرازيلية. وهكذا فإنَّ بؤس الناس الآخرين في عالم آخر كان يدفع فيّ الإحساس بالرعشة والقشعريرة! والآن وقد طفح الكيل وبلغ السيل الزبى فلم أعد أحلم إلا بالقصور الفاخرة والعربات الفارهة والحياة المخملية والدسائس الرهيبة والعابرة.

وفي قبالة دارنا المزوّقة والمنمّقة بني منزل صغير في غاية القناعة والزهد، كان عبارة عن مبنى مكسو بالرمل ومن فوقه ما يشبه قبعة الكاسكيت، حيث قام بعملية التشييد شخص لم يعرف عنه الناس شيئاً أبداً. قيل إنه كان عاملاً في الترام ولكن قيل أيضاً إنه كان عاملاً في شركة التبغ والكبريت، وموظفاً في مؤسسة الغاز، وممثلاً تجارياً لدى مؤسسة أورانجينا للمشروبات، ومراجع حسابات في مصلحة الضرائب، وعامل تكييس لدى لافارج أو أستاذ مادة كذا وكذا

وغيرها وغيرها. إن كثرة الأخبار تقتل الأخبار أحياناً. وبكل اختصار كان كل منّا يرى هذا الشخص بمنظاره. ومرت الحرب دون أن نراه إلا في بعض المرات من بعيد إلى بعيد. وتوارى العصفور النادر عن الأنظار بعد الاستقلال أو أنه نادراً ما كان يظهر، وهذا ما جلب إليه الاهتمام. لذلك أكد الناس حينذاك أن الشخص الذي نجا من الحرب لم يكن سوى عنصرٍ نشطٍ في المنظمة العسكرية السرية وأن أسوار مسكنه كانت تأوي الاجتماعات المرعبة، كما قيل أيضاً إن المسكن كان مخبأ يحتمي فيه قائد عظيم في جبهة التحرير الوطني أثناء معركة مدينة الجزائر. ثم طوى النسيان كل شيء ورجع كل منّا إلى الاستمتاع بروايات الهنود الحمر ورعاة البقر. إن الحياة ليست كلها مسرات وأفراحاً، أما مركب الجزائر فكان يمسك دفة قيادته كل أقطع أكتع ويساعدهم كبار قطاع الطرق، وبذلك كانت الرحلة لا تدعو إلى الاطمئنان. ومع مرور الزمن تتلاشى الذكريات ولكنها ترجع أحياناً وتعود الأمور إلى ترتيبها المعهود بصورة طبيعية. وهكذا نجد أنفسنا نحكي قصصاً وروايات ونروي غرائب وعجائب، ولا سيما بعدما هجر مالك البيت الغريب الأطوار، الذي لم يعثر له على أثر، بيته المهمل لأنه كان مسكوناً، أقصد مسكوناً بالجن. وفي الواقع كان البيت قد صار في حالة يرثى لها، ونسجت فيه العناكب بيوتها بكل راحة

وتسلقت على جدرانه النباتات ونمت الحشائش الضارة في كل مكان، وهبّت عليه الأغبرة الحاملة سماد ذرق الطيور لتلفّه بشرنقة كما تُلفّ المومياء ولم يبق ظاهراً منه إلا زوج من مغالق الشباك التي كانت تطل على نافذتي. شبح، يا للتعاسة المفجعة! كان ذلك هو الشرح الوافي والشافي الذي تبناه الناس واعتمدوه وصرنا كلنا نسمي البيت دار الروحاني. وهذا هو العصفور بالضبط الذي أطلقتُ عليه اسم شهريار، وأما الجيران فكل سمّاه على هواه حسبما جادت به عليه دوافع الرعب الدفينة فيه: بولولو، لحية القمل، عزرائيل، فرانكشتاين، دراكولا، فانتوماس.

أما الدكتور الطيب القلب مونتالدو فلم يترك مروره بالدار آثاراً إلا في رؤوس الوالدين، الدار التي كانت تسمّى دار الفليل كما لو أن الله أنزل بها الوحي، وكان الكبار يعاتبونني على عدم تأبيد التقليد المتوارث. وتكفيراً عن الذنب رحتُ أزكّيهم بالتوصية في المستشفى كلما سنحت لي الفرصة، وكانت تلك طريقة أيضاً لتخليد الذكرى والحظوة بالتقدير في أعينهم. لقد كان الطبيب الطيب القلب منشغلاً أكثر من اللازم في تطبيب الفقراء والمعوزين، أما أعمال التهيئة ووسائل الرفاهية والأبّهة فلم يكن يعير لها بالاً. وترك لنا من مخلفاته حنفية ومغسلاً في الغرفة التي كان يستعملها

كحجرة التطبيب، وبعض أغراضه وكتبه. وهكذا رأيتني أجد في أحد كتبه فائدة كبيرة خلال دراستي. أما ما كان يثير فيّ الدهشة والاستغراب فهو كيف أن المعارف الطبية المرتبطة بالإنسان تغيرت في غضون قرن من الزمن دون أن تتغير فعلاً حيث يوجد في الكتب شيء ما عن كلا الحقبتين ولكني كنت عاجزة على فك طلاسمه ويمكنني أن أعزو ذلك للسياق التاريخي، ولكن ماذا يقدم ذلك في الأمر أو يؤخر؟ زميلي المدعو مراد يتحدث عن الحكم، وليس له من كلمة في فيه إلا هذه الكلمة، وأتساءل ماذا يمكن أن تعني بالضبط. أما الطب بالنسبة لي فليس إلا وسيلة من وسائل العيش، وأقول هذا بكل صراحة دون رفع شعارات أو نظم أشعار. ولكن أنّى للطبيب أن يمارس الطب الحقيقي والنزيه والمحبب للمرضى لمّا ينفض عنه كل الناس وتنهار القيم والمدن والمستشفيات! والنتيجة أراها ماثلة أمامي؛ فلقد مات الدكتور مفلساً معدماً أضناه الكد والجد، وتعافى الكثيرون من مرضاه وعاشوا أغنياء أقوياء. فلقد سامنا البعض منهم الأهوال والويلات وأذاقنا خلفاؤهم مرارة العيش.

إنني أستمدُّ من ذكرى هذا الطبيب الطيب في علاقتي بالوقت بعداً إنسانياً حتى وإن كنت أرفض رفضاً قاطعاً تطبيب قطاع الطرق بالفعالية نفسها التي نعالج بها الناس الطيبين. ولما اخترت طب الأطفال كنت

أميل كل الميل إلى البراءة وأهلها، فمعهم لا مشاكل ولا هم يحزنون، سواء كانوا طيبين أم لا، لهم نفس الرعاية والعناية، والجميع يذهب إلى النوم مرتاحاً!

ثم جاء دورنا، حدث ذلك ذات يوم في شهر سبتمبر من سنة ألف وتسعمائة واثنين وستين التي باركها المولى تعالى. كان يوم أحد وكانت الشمس في كبد السماء. دخلنا إلى الدار كمن يدخل إلى المعبد، مطأطئي الرؤوس ومذهولين مبهورين. على الأقل هذا ما يمكن أن يكون قد جال بخاطري، فلم أر النور إلا فيما بعد. كنا قد أتينا من بلاد القبائل، حيث الجبال والبؤس والبرد، كنا نشبه سكان الكهوف نوعاً ما وكنا شداداً غلاظاً حتى النخاع، ثائرين دوماً جهاراً نهاراً على القائد والنقيب، وفجأة وجدنا أنفسنا نحلّ في دار فاخرة تنتصب على رأس العاصمة، دار في غاية الفخامة والعظمة والسحر والجلال ولكنها شاخت وهرمت وبدت عليها التجاعيد الغائرة وصار مظهرها يوحي بأنها لم تعد تعرف كيف تتحدى الزمن. كيف أمكن لأبي الحصول عليها؟ لست أدري، فلقد كانت لأبي أسراره التي ذهبت معه دون أن تفشى. وُلدت في ألف وتسعمائة وستة وستين، في يوم من أيام أكتوبر، بعد عشر سنوات من مولد ياسين. وكانت الحرب قد فرقت بين والديّ طوال سبع سنين، وبعدما رفعت أوزارها كان عليهما أن يقضيا ثلاث سنوات بكاملها

لكي يتعلما كيف يعيشان كالعاشقين. كان على أبي أن ينسى قوانين الحرب القاسية وكان على أمي أن تتذكر ما كانت قد نسيته مع مرور الزمن. لقد كنا سكان البلد الأصليين الأوائل الذين تملكوا تلك الدار الرائعة، إذ كان يتهيأ لنا وكأنها كانت تنتظرنا منذ الأزل في الوقت الذي لم نكن نعرف إلى أيّ وجهة نمضي. ولما خرجنا من جحورنا في الجبل أخذنا نرمق السماء كما لو كانت بلا نهاية. أما هذه الدار فعرفت الكثير من الناس وسافرت كثيراً، كما علمتنا الشيء الكثير عن أنفسنا وعمّن أقام فيها قبلنا؛ من النوادر الطريفة التي لا تصدق إلا بالإكراه، ومن أخبار الحياة التي أفسدتها أحلام السراب، ومن القصص الحقيقية المليئة بالأشياء الجميلة ولوعة القلق. لقد كانت الأخبار الخفيفة تعلق بسهولة طبعاً وأما الخبايا فكانت هائلة ومجهولة ولا يتم سبرها إلا كما يسبر جهاز البولسار أعماق البحار. كيف كان يمكن أن يتسنى لنا العلم بوجود الهامات مصاصي الدماء لو بقي كارباتوس الغريب الأطوار في مسقط رأسه بترانسيلفانيا؟ وأما صورة الجن التي كانت تعشش في أعماق ذاكرتنا فكانت ستفقد سحرها وسرها وهي ستظل محبوبة لدينا لأنها تتغذى من البؤس نفسه الذي نتغذى منه وليس من الدم الحار المستنزف من وريد البشر المساكين. هل كنتُ سأختار الطب لو لم تفاجئني كتب الدكتور مونتالدو أيام شبابي؟ أنّى كان لنا أن نجمع كل القصص الساحرة والأقوال المأثورة

والنكت من شتى أصقاع الدنيا التي ظلت تتسلى بها أمسياتنا؟ ثم، هناك ما تأتي به الأيام وما نكتشفه مع مرور الزمن عن الحياة والدنيا وعادات هؤلاء وأولئك من الناس وشؤونهم وشؤوننا المتشابكة، وعن جميع تلك المسائل التي يكتظ بها دماغنا صباح مساء، عن سبب حدوث هذا الشيء وكيفية حدوث ذاك، وفي كل ذلك مجلبة للحيرة ومدعاة للسكوت على مضض وسبب في وجع الدماغ. ذلك هو سحر البيوت القديمة بالضبط، حكايات من طبقات وطبقات، والشياطين التي تعربد في الشرايين. هكذا كنا نرى تلك الدار وبهذه الصورة، في جو النشوة والجهد الدؤوب والشك والارتياب.

إن كل ما في هذه الدار النزل يروي سر الأصول وسحرها.

كما علمتني هذه الدار، داري، الأسى والخوف والوحدة والوحشة.

هكذا هي قصتنا، فالدار مركزها والزمن خيطها الهادي والموجه الذي ينبغي فكه دون قطعه. إنني آخر من يسكنها، وبعدي ستنهار وتنتهي الحكاية.

ومن فرط التفكير في تهور سفيان وفي لعنه نزل عليَّ ما يشبه الرؤيا: وهو أن الناس كانوا بالأمس وهم في الوقت الحاضر وإنهم لا شك سيظلون حتى إلى يوم القيامة يرحلون من هذا البلد أكثر ما يرحلون إليه.

إنّ هذا الأمر لا يستند إلى أي منطق، ولكن الطبيعة تأبى الفراغ، ولا توجد أمّ واحدة في الدنيا تحلم بأن تطرد فلذات كبدها من حضنها، ولا يحق لأي مخلوق أن يجتث أي إنسان من مسقط رأسه. إنها اللعنة التي ظلت تلاحق البلد قرناً بعد آخر، منذ عهد الرومان الذين جعلوا منا عمال أرض أجراء همجاً، وبشراً هوايتهم حرق الزرع والضرع، وإلى غاية وقتنا الحاضر، ولمّا لم نستطع حرق الطريق صرنا نعيش وحقائبنا تلازمنا ليل نهار. إن البلد واسع ما شاء الله ويسع خلقاً كثيراً، وحتى لو ضاق بنا الحال لأمكننا التوسع في اتجاه الجيران الذين قد لا يحتاجون إلى كل السعة التي هم فيها، ولكن الحال غير ذلك، ففي كل مرة يمكن أن تحل اللعنة كما في أي مرة وتزداد معها هوة الفراغ اتساعاً. هكذا نحن دوماً منذ الأزل، حراقة، نطوي المسافات إلى أبعد مدى، ذلك هو معنى تاريخنا ومغزاه.

فهل جاء دوري لكي أرحل أنا أيضاً؟

مدينة الجزائر لن تتوقف عن الإبهار، فهي تمتلك الاختصاص في تدبير المقالب، ومع ذلك فهي تعرف دوماً كيف تحب حبيبها وتحنو عليه ولا تتخلف أبداً عن أن تنتشله من الورطة، فتدلي له طوق النجاة لما يكون قد شارف على الهلاك. لقد كانت في تلك المرة تحديداً في يوم من أيامها الواعدة التي لا يعرف سحرها وسرها إلا هي. هدأ وهج القيظ والحر فجأة وصار ريح الجنوب يأتي الآن من الشمال وهو يغني مداعباً أوراق الشجر. وصار الجو يعزف مقطوعته المتوسطية المألوفة وينثر أريج عطره الفواح ومفاتنه المتبلة وحرارته المعسولة وأحلامه المشمسة. وهكذا، يستسلم سكان مدينة الجزائر بغتة للسلم ويجنحون إليه دون نفور، وهم المشهود لهم بأنهم أقبح سكان المدن على مدار القرن. فهم أنفسهم مندهشون للحال التي هم عليها وينظرون إلى بعضهم بعضاً باستغراب، ومع ذلك فهم مصممون على قطع الشك باليقين. بعد ذلك تترتب الأشياء من تلقاء نفسها وتأخذ الأمور مجراها فتطل

الثقة بأنفها متوجسة ويحل اللطف، وفجأة يشرع كل في الاعتقاد بأن الحياة على كل حال هي على الحال التي هي عليها. وهكذا تعم البهجة وتغمر البلبلة اللطيفة لدى الناس غير المبالين المدينة كلها كما يغمر الوادي الهائج كل ما يجده أمامه. وحتى النسوة فإنهن يشعرن بعودتهن إلى الحياة ولا يتورعن على رفع رؤوسهن ليرمقن ما حولهن من تحت غلالة الوجه. وتلك سعادة وأي سعادة أن يراهنّ المرء يسترجعن حلاوة المشاركة في الحياة التي ظلت نوراً عجيباً وساحراً نتذوقه على أيديهن في العتمة وفي المأساة. إن رحمة الله وبركته قد نزلت على خلقه، ويلاحظ كل ذلك بجلاء في عيون الأطفال التي تشع بالسعادة الغامرة. ومن شدة الاندفاع الجارف يتجرد بهرج أدعياء الإسلام من مسحته الأنيقة وينكشف أمرهم على الملأ. وعلى كل حال، والحمد لله، لا ينبغي أن ييأس المرء من زندقته الطبيعية فربما يأتي اليوم الذي يشعر فيه الإسلاميون أنفسهم بمروقهم ويضحكون حتى من الكلام الناري الذي كانوا يلقونه. ولكنهم والحالة هذه، حيث تسود البهجة وتحيط بهم الأعين من كل حدب وصوب، يشعرون بالضيق والحرج وينحسرون كمن مسه الجن فيهرعون إلى الأقبية ليحلموا بالجرائم الباهرة والعديدة التي ما زالت لم

تقترف. ثم تشيع فكرة شيطانية خفيفة الروح فتقطع الطرق وتتسلق الطوابق وتقفز من رأس إلى آخر. إن اللحظة في غاية الحرج، إذ قد يدخل الشيطان الساحة بغتة متحفزاً ويقلب الأمور رأساً على عقب، ولكن لما تكون الجزائر جميلة فهي كذلك بالصدفة، وهي تأخذ الجميع على حين غرة حيث يكون الحب مضموناً من أول نظرة. قد نعتقد أنها استسلمت للاحتضار أو هي شارفت على الموت في القذارة أو تعفّرت بالغبار، ولكنها تهب هبة واحدة لتشع في الضياء فتسحر وتفتن وتسلب وتغتصب وتأسر. وبمجرد أن تزول دهشة الزفة تشرع المدينة في التحضر والتمدن بسرعة مذهلة، ويمكن أن نتوقع حدوث اللقيا العجيبة. إننا قد نرغب في اغتنام الفرصة السانحة والشعور باللذة مدة أطول والانطلاق في التفاؤل والتخطيط للمشاريع، ولكن مدينة الجزائر كما نعرفها، تبقى دوماً مخادعة مخاتلة من الطراز الأول، وهوايتها المفضلة هي عشق القيام بدور البريئة. وما دمنا نعرف ذلك جيداً فإننا لا نكترث للأمر، وكل ما نأمله هو أن نرى السياح يتوافدون علينا أفواجاً أفواجاً في هذه اللحظات الساحرة لكي نبهرهم ونخلصهم من الأفكار المسبقة المعششة في رؤوسهم عن قضايانا الغريبة وحروبنا القذرة المقززة ومؤامراتنا

المحاكة ضد المعقول وجرائمنا المرتكبة ضد ما لا يقبله القلب، وممارساتنا الموغلة في تخلف القرون الوسطى، ومناخنا المؤلم وجغرافيتنا الماكرة. أجل، هكذا هي مدينة الجزائر، عاهرة مستهترة، تسلم نفسها لتأخذ كل شيء بنفسها. شهر كامل من المرارة مقابل خمس دقائق من المتعة، ذلك هو أجرها.

إن فراشاً من التبن مبسوطاً أمامنا لأكثر راحة من سرير بغدادي ناعم نراه في السينما، إذ كانت للمرحومة أمي قولتها المأثورة التي ظلت تلقّننا إياها كلما قدمت لنا شوربة الجلبانة المهروسة: إن لم تأكلها على التوّ فستندم عليها بعد ساعة. وصرت أنا كذلك أتقول أشياء مثلها لكي أخفف عن نفسي شدة وطء البؤس، ولكن دون أن يصل بي الأمر إلى حد اتخاذ الموضوع تجارة كما يفعل البعض الذين نراهم يهرولون وأيديهم ممدودة من حزب إلى حزب ومن بنك إلى آخر مطلقين لأنفسهم العنان في إلقاء الخطب والشعارات. وهكذا صار فقراؤنا وأغنياؤنا في الهوى سواء يتحلون كلهم بذات الخصال في الوقاحة والدناءة التي لا يتصورها العقل السليم، فهم دوماً في الكر سواء، يراوغون ويحيكون الدسائس ويحتلون المواقع، ولا يوجد غيرهم من يحسن مثلهم صرف الأنظار واختلاس المناصب. ولكن في النهاية، هل يبقى للثراء معنى إن كنا نجهل

قيمة الأشياء؟ وما هو البؤس بالضبط ونحن نبغض المعرفة؟ ومن يرغب في البؤس فليتهيأ له ومن يهن يسهل الهوان عليه! ولقد آن الأوان لكي يدرك البؤساء ما يريدون بالضبط، هل يرضون بحياة الذل أم يريدون التخلص منها، وما على الأغنياء إلا أن يتعلموا حسن التصرف. إنني أكاد أجن في النهاية لمثل هذه التصرفات!

فأنا أسرد كل هذه الأمور لكي أصل إلى القول بأن مدينة الجزائر ليست مكاناً مريحاً لمن يريد الراحة.

رجعت إلى الدار إذن بخطى وئيدة، وقد أضناني التعب وأنهكني، ولكني كنت سعيدة بابتعادي عن المستشفى، فتراني كنت أختلس النظر يميناً وشمالاً وأنا أقول في نفسي كم ستكون الحياة جميلة لو توقفنا عن الكذب عليها. وأتممتُ عملية اللف والدوران المألوفة كالعادة كي أتفادى النسوة اللائي يقعدن على الطريق أمام أبوابهن ينتظرن مرور المراسيل. وأتذكر أنهن كن دوماً في ذات المكان، في وضعية الترقب والانتظار نفسها، وفي الهذيان الفارغ والمريب نفسه. وأصبحن لا يدركن في الوقت الحاضر السبب بالضبط بعدما فرّ منهن الزمن، حيث بقي التقليد المألوف مقيداً في حياتهن اليومية، وكل واحدة تضفي عليه شيئاً من تجربتها الشخصية: من التباكي والتضرع ونبرة الأنين

والتجشؤ البائس بالشتائم ضد الرجال الذين يتظاهرون بالاستغراب وبالكلام البذيء ضد أولئك الذين يظهرون بمظهر الفخور بمعرفة السبيل الذي هو سالكه. كنت أتظاهر بالتفكير فيم عليّ أن أبتاعه قبل الدخول إلى البيت، الحليب والخبز والماء ورزمة من الخضر والشموع والملح والميثيلبراثيون، وبذلك يمكنني أن أسكت المرأة المتظاهرة بالنسيان التي تفضح نفسها بنفسها وتغير في كل مرة ألف رأي ورأي بكل بلادة. ولقد كان من الممكن أن تنطلي الحيلة تماماً لو أمكننا التظاهر بالصمم إزاء من يلاحقنا بالنداء تلو النداء. لقد أتعبني الجهد المتواصل في نقل أخبار العالم كل يوم إلى نسوة بقين على قارعة الدنيا. صحيح أنهن عقدة المشكلة، وأتفهم جيداً حاجتهن إلى معرفة الطريقة التي سيتم القضاء بها عليهن، هل سيعدمن شنقاً أم غرقاً، ولكن عليهن في الأخير الاطلاع على الجريدة الرسمية.

أحياناً، أكون شريرة للغاية، ولا أنكر ذلك.

كان يقف في الطريق وأمام باب بيتي عائق، شيء فظيع، يشبه في ظاهره حافلة باص، ويبدو أنها فرّت من محشر الخردة، ولنقل إنها خردة كبيرة مخصصة لنقل الموتى. ولم يسبق لي أن لمحتُ في الحي ما يشبهها، فالسيارات لا تمر في الحي إلا بشق الأنفس

والتضرع بالدعاء، والقصبة القريبة مني على مرمى حجر لا تكاد تلج فيها العربات إلا كما يلج الجمل من سم الخياط. فإذا أراد الصديق أن يمرق في مثل هذه الدروب الضيقة فما على صديقه القادم من الجهة المقابلة إلا أن يعود على عقبيه أو ييتم أهله. ترددتُ بعض الشيء بدافع الخوف ثم، وبهبّة واحدة، كررتُ غير مبالية وأقفلتُ الباب ورائي بالمفتاح بإحكام. وكنت قد لمحتُ في تلك الأثناء خيالاً في الحافلة ينادي من بعيد ويشوّر بكلتا يديه.

إن العادة تجعل منّا الصمّ والعمي، إذ لم يسبق لي أن رأيت حافلة في المدينة ولم أسمعها تنفخ في مزاميرها أبداً، مع إنها موجودة بكثرة وتحدث ضجيجاً مهولاً؛ إنها تعج وتضج كحفل صراع الثيران، لا تكل حوافرها عن الصرير في الرمل، ولا تمل من التوقف في المحطات وهي تنفث الدخان، وتتعب رئتيها أكثر وأقوى من فعل الثيران الهائجة وقت النزو، وهي تصارع من أجل الظفر بالمسافر على متنها، وتتفّ صديدها ثم تفر في هرج ومرج وفي معمعة الدخان الكثيف. أنّى للمرء أن يرى ويسمع في مثل هذا المهرجان الصاخب؟ وها هي الحافلة مركونة أمام باب بيتي، على مرأى العالم كله في قوقعتها المقروضة

بالعثّ، تخور كما يخور الثور الهائج. ثم سمعتُ طرق الباب، بانغ بانغ. ما العمل؟ أفتح طبعاً، مع القفز فوق الخوف، وماذا ألمح أمامي؟ سيدة الحسن والجمال... شريفة! ومعها زوّادتها دوماً المترامية على قدميها.

ووصل نبض قلبي إلى عنان السماء.

ولحق به بصري الذي جال إلى ما وراء مغالق الشباك حيث أبصر خيال شهريار يترنح يمنة ويسرة كالأحدب الذي لم تسعه الفرحة. وقلت في نفسي وأنا متأثرة لكوني أراه متأثراً هو الآخر: أي والله يا شهريار، ها هي شريفة، لقد صدقتْ الرؤيا وعادت إلينا!

وجاء دور سائق الحافلة ليشرّف بالحضور هو الآخر مبتسماً بملء شدقيه، وتبدو عليه علامات الرضا بإنجاز معجزة العصر. هل دعوتُه هو الآخر؟

وما دامت أصول الكرم والضيافة على ما هي عليه فلا بد لنا من مراجعتها في يوم ما. مع العلم أن مسألة المقدمات لم تكن مطروحة ولا حتى مسألة العواقب. ولكن، ألا يجدر بنا قبل أن نقوم بدور الضيافة أن ندرك أولاً ضرورة القيام بذلك؟ وفي أي ظروف؟ وهل يمكن أن نتحمل في النهاية ثورة الغضب على كوننا

قمنا بواجبات الضيافة؟ قدَ نكون أحَياناً أهناً وأهدأ بالاً لما نقوم باتخاذ إجراءات الطرد التي تمليها الظروف.

والحالة هذه، فلقد كان الرجل صاحب الحافلة الذي يدعى 235، وهو رقم تسجيل حافلته، شخصاً فظاً ولكن فيه بعض الظرافة، وإنني أحتفظ بذكرى طيبة عنه.

وهكذا جرت الأمور، بهذه الصورة وليس كما أوهمني الزميل المدعو مراد. إنه بالتأكيد لا يعرف أي شيء عن بنات حواء. فليس هناك محطة قطار ولا أحياء جامعية، ولا هم يحزنون.

عادة لما أخرج من أزمة أكون مكدرة المزاج جداً، فهجمتُ على شريفة وفي رأسي فكرة تقطيعها إرباً إرباً.

وصرختُ في وجهها. "كان يجب أن تدليني على مكانك... كنت قلقة جداً عليك!

- ولكن عمة، أنتِ التي قلتِ لي لا ترجعي أبداً!

- قلتُ، قلتُ، كان عليكِ ألّا تصدقيني!

- وهذا هو الحال، لم أصدقكِ... وها أنا عائدة!

- ومع هذا، فليس لك حجة!"

كان سائق الحافلة ينظر إلينا محدقاً شاخص العينين. لأن اليوم الذي يدرك فيه الرجال كيف ينصتون إلى النساء لم يدوّن بعد في رزنامات التقويم.

"حسنٌ، والآن يا عزيزي رقم 235، ماذا لو

أطلعتني عما كنت تفعله في طريق شريفة، وماذا فعلت هي بك؟"

لم يكن المسكين من جنس الحكواتية. كان يبدو عليه أنه يحاول أن يقول بأن المكتوب هو السبب في كل أفعالنا. وقد أذهب إلى أبعد من ذلك. إن الحكواتي الذي يروي قصصاً ولا يترك هامشاً لأبطالها ليس له محل من الإعراب. إننا نروي القصص والروايات لأننا سئمنا تحديداً من المكتوب، ونرغب في جعل الناس تتصرف، وتقرر، وتحتال، وتخطئ أحياناً، وتتخلص من الوِرَطِ كالقطط، وتربح المعركة، وتسفه السلطان، ولا تكون كالمساكين مثلنا تنتظر كل شيء ينزل عليها من السماء، ولا شيء ينزل بالتأكيد.

"ماذا تريدين أن تعرفي يا أخت، صعدتْ البنت إلى الحافلة في الصباح الباكر. لم يكن المحرك قد سخن تماماً آنذاك، وكان يسعل من الإجهاد؛ ولم أكن أستطيع تغيير السرعات. لقد سئمتُ من تكرار الموضوع على المعلّم: إن الزيت المستورد أحسن بكثير من الزيت المحلي، ولكن لا حياة لمن تنادي، إنه يريد أن يتلف محركاتنا. هل لك فكرة، إن محركات ماجروس دوتس ماركات أصلية ولا تفهم إلا الألمانية!

- ولماذا لا تعوّدوها على العربية؟

- لا يمكن، إن المسألة مسألة ضمان! نعم، كنت

أقول، إنني أؤمّن النقل على الخط 12، شوفاليي-البريد المركزي مروراً بمنحدر فالي. فالنزول والصعود مضنيان، وأنت تعرفين ذلك. المهم، أخذتْ البنت تذكرتها وجلست في المقعد الموجود خلفي. ورأيتُ في المرآة العاكسة من تكون، بنت مسكينة، وذلك مكتوبها...

- المكتوب!... وعدا ذلك؟

- ظلت طول النهار تقوم بنفس الرحلة؛ شوفاليي-البريد المركزي، وهي ماكثة في المقعد نفسه ولم تغادره، تصوّري، ثم غلبها النعاس فنامت...

- أشعر أنني لن أتأخر في الاستسلام للنوم أنا الأخرى، ولكن أريد معرفة نهاية القصة... أين كنّا؟

- ولكن عمة، ماذا دهاك؟ إنه يروي القصة جيد جداً، وأقسم لك أن هذا ما حصل بالضبط!

- أصدقك، وأصدق كل شيء، والوقت ليس وقت تكذيب، أدرك ذلك... كنت تقول يا حضرة السيد؟

- عند الساعة الثامنة مساء انتهت مدة الدوام، ووقتها قلتُ للبنية: انتهت الرحلة، والجميع يغادر!

- هل نزلتْ؟

- كلا، كانت تريد أن تقضي الليلة في الحافلة. لم يسبق أن سمعتُ بمثل هذا أبداً! وقلت لها مستحيل، فالنظام لا يسمح لك بذلك. وعليّ أن أركن الحافلة في المستودع ولا يمكنكِ حينئذ الدخول.

- تعقدت المشكلة إذن!

- إطلاقاً، إننا مسلمون، وكرم الضيافة ليس غريباً عنا! وقلت لها: إن لم يكن لك مكان تنامين فيه فتعالي معي إلى المنزل، إن مجيئك سيسعد الوالدة ويؤنسها، المسكينة، فهي...

- حسنٌ، ها قد ذهبتم إلى البيت!

- هناك اعتنت بها الوالدة كما لو كانت ابنتها. فأنا ابن وحيد، وأنتِ تفهمين... أنا رجل... والنساء في حاجة إلى من تتكلّمن معه عن شؤون اللباس، والطبخ، وتدبير البيت، والحديث عن شجون الحياة...

- كم أفهمها المسكينة! ثم ماذا؟

- بعد ثلاثة أيام، أي... نعم، في هذا الصباح، قالت لي المسكينة: سآتي معك.

- يا سلام!... وبعد؟

- وهكذا أتت معي. وهنا، وبينما كنتُ منشغلاً بفحص الحافلة قبل إرجاعها لركنها في المستودع، يصادف أن ينسى الناس أحياناً وثائقهم أو أغراضهم تحت المقاعد، قالت لي: سأذهب إلى العمة لامية.

- التي هي أنا!

- إذن، ها نحن، أتيتُ بها... حسنٌ، عليّ أن أرحل فالمستودع تُقفل أبوابه على الثامنة تماماً.

- ليس قبل أن نسقيك شراباً، يا عزيزي 235. فأنا أيضاً أعرف كرم الضيافة، ولا يمكن أن تسير الفضيلة

في اتجاه واحد فقط، والمستودع لن يطير ويترك حافلاته.

- الوقت هو الوقت،

- في سويسرا فقط، يا عزيزي، في سويسرا. أما عندنا: فكل عطلة فيها خير. وما علينا إلا أن نقول للمستودع ومن في المستودع بأن الحافلة تعطلت، وهو ما يحصل لها ست مرات في الأسبوع وما دام العدد يسع ستاً فلا يضيق المجال بسبع.

وفي أثناء الحديث أخبرني السائق الشهم بكل صغيرة وكبيرة عن حياته. وهي تتلخص فيما يأتي: توظف وهو في السادسة عشر من عمره في الوكالة المستقلة للنقل الحضري للجزائر الكبرى، راتوغا اختصاراً بالفرنسية، حيث تسلق سلم الترقية بالمثابرة في شغل الشحم الأسود من غسّال فمشحّم فقابض ثم سائق في الوقت الحاضر، وتقلد هذه المراتب في أقل من عشرين سنة. والبقية؟ مراقب، إن شاء الله. ولماذا لا يشاء الله ذلك وهو الذي يحثنا دائماً على معاقبة المحتالين والمغالطين؟ نعم، ولكن أصحاب الحل والربط لا ينظرون إلى الأمور من هذا المنظار، فلهم أصدقاؤهم. كنا قد انخرطنا في سياق الفلسفة ولكني تداركت الأمر وجذبت المكبح. هل توجد حياة بعد العمل؟ الحق يقال، إن الشخص لم يكلّ طرفة عين

ولم يتكاسل أبداً، فهو يكرس حياته كلها لوالدته، وحلمه الوحيد يقتصر على إرسالها إلى الحج وزيارة الكعبة المشرفة. متزوج؟ كلا، فالمكتوب لم يسمح بذلك. وفوق كل ذلك فالشخص لين العريكة ولكنه ملحاح حقاً، فهو يريد عروساً كاملة له ولوالدته المسنة. إنه واقع تحت تأثير ما، وذلك واضح بيّن، فلا يوجد إلا مدمن مخدرات المسلسلات المصرية من يتكلم باللسان الذي يتكلم به. هل يمارس الرياضة؟ الكرة الحديدية مع زملاء العمل أثناء استراحة تناول طعام الغداء. ثم، بالمناسبة كيف تمارس هذه الرياضة؟ هل بالرمي المباشر أم مسح كل ما على الميدان؟ لقد قرأتُ في مجلة من المجلات أن الفرق بينهما شاسع. ممم... حسب ما تمليه ظروف اللعبة. حسنٌ، وماذا أيضاً؟ الصيد أثناء العطلة. ثم ماذا؟ ممم... لعبة الدومينو مع الخلان في الحي، ممم... المسجد أيام الجمعة. ثم يوجد التلفزيون، أليس كذلك؟ نعم، كل مساء.

يا له من رجل شهم هذا 235، حياته مضطربة كحياتي بالضبط، ولا ينقص فيها إلا ما هو أساسي وتلك الأشياء الزائدة عن اللزوم لكي يصاب القلب بأولى اضطراباته. ورحتُ أنظر إليه بكآبة وهو يغادر ممتطياً تنيناً بست عشرة عجلة وأربع عيون.

إن الوكالة المستقلة للنقل الحضري للجزائر الكبرى محظوظة حقاً في أنها توظف آلاتياً من هذا الطراز. وحتى أمه الطيبة محظوظة هي الأخرى لكونها أنجبت ولداً من هذه الطينة النادرة. ولكن عليها مع ذلك أن ترخي له الحبل قليلاً، فالمسكين في حاجة إلى تذوق نشوة الحياة ولو بالقدر الزهيد.

تركتني شريفة يوم غادرتْ وأنا أستشيط غضباً ووجدَتْني على الحال نفسها. إن السافلة تصنع ما بدا لها معي، تحرد وتستاء، وتقوم بالأعمال الطائشة في كل مرة، وتعود إلى البيت متى شاءت وتجلب إليّ حافلات النقل. حتى في الفنادق لا بد من التقيد بالسلوك المقبول، وعلينا أن نخبر بموعد قدومنا ونعلم بوقت المغادرة، ونترك سائق التاكسي على عتبة الباب الخارجي، ونجامل المستخدمين فيها ونرتب لوازمنا وأغراضنا، ونسحب طرادة الماء ونقفل الحنفية لما يجف فيها الماء.

وفي كل عائلة لا بد من وجود قواعد وحدّ أدنى من الاستقامة في السلوك، لذا يجب عليها أن تخبرني بكل شيء، إن كانت متابعة أو كانت هاربة من خطر ما، أو... ولا تنتهي الفرضيات.

"اسمعي، يا جميلتي، إنني موافقة على أن تبقي معي ما دام أخي الأحمق تصور الأمر ببراعة، ولكن عليك أن تعلمي أن بيتي ليس فندقاً، وليس روضة أطفال يأتي إليها الأولياء لإيداع همومهم، ولا هي ثكنة، ولكن عليك الالتزام بالانضباط إذا كنت تدركين ما هو، وطلب الحصول على رخص الخروج!

- ولكن، عمة، لا يمكن أن أظل محبوسة!

- تخرجين معي فقط... واضح؟

- ممم.

- هل فهمت؟

- مممممم!

- ها هو البرنامج إذن. غداً سأصطحبك إلى الطبيب لإجراء فحص، إذ لا بد أن نعرف ما تحملين في بطنك. ثم نذهب لكي نتخلص من هذه الصُّدرة الرهيبة وأجهزك بملابس تليق بامرأة توشك أن تصبح أماً. وسنفكر في المولود طبعاً، بنت أم ولد، هل هو في حاجة إلى مهد أم إلى كسوة وأقمطة وما شابه.

- ورضاعة، وطاقية، وحفاظات، وخشخيشة، و...

- سوف نعدّ قائمة بذلك! وثالثاً، وهذا هو الأصعب بالنسبة إليك، لا بد أن تتقيدي بنظام معيشة سليمة: حساء الشوربة، والتمارين الرياضية، والراحة. والجد!"

وتناولنا عشاءنا ونحن نحضر قائمة الرضيع القادم التي كانت تطول كلما طال مكوثنا على المائدة. تكلمنا في الألوان، وكان علينا أن نختار بين الوردي والأزرق، وتوصّلنا إلى أن الأبيض يفي بالغرض. وصار هذا الصبي مُكْلفاً ومثيراً للمشاكل حتى قبل أن يشرّف بالحضور. ولكن، علينا أن نبجل أولياءنا الصالحين بالصورة التي نعرفهم عليها كما يقال، ولقد فتحتُ خزائن مدّخراتي وقلبي ولن أتراجع الآن. وعرفتُ أن الطفل هو أقدم سعادة عرفها الإنسان على الأرض وأكثرها كلفة، ويجب أن نتذكر ذلك جيداً.

وكنا حينها في تلك الأيام الواعدة بالسعادة التي لا يعرف سحرها إلا مدينة الجزائر.

ويا لها من سويعات عامرة بالسعادة، كنت أراني وقد أصابني ما يشبه الخرف!

ثم فجأة، شعرتُ بألم مباغت، هل هي أفكار متداعية خطرت لي، أم شيء من التنبيه ودعوة إلى توخي الحذر؟ كنتُ مستغرقة في ذكرى لويزة، أختي من الرضاعة، حبة الجزر المحببة إلى قلبي. في أي مصلحة لحفظ الجثث هي الآن يا ترى؟

كانت لنا أعمار عرائسنا

وكانت أحلامنا سنا
والخلد كان في أيدينا
والسحر كان يغمر الدنيا.

دون أن نرى ما يجري
دون أن ندري
وافتنا المنية
في الحبس.

هكذا هو القانون
والحمد لربّ الخلق
وليخلد في جهنم
كل مدافع عن الحق!

خربشتُ هذه الخواطر في مدونة الكآبة في يوم من الأيام حيث كان للوحدة طعم السم.

وطال ليلنا في جو المرح والحبور. وأفرطتُ في النكت وراحة الحلقوم، ظناً مني أنها الوسيلة الأجدى في كشف الأسرار الصغيرة التي تخبؤها هذه البنت المتعودة على الفرار. وفي منتصف الليل كانت تبكي من الضحك وقد أجهدها السهر ولم تصبح قادرة على مسح فمها. وكان الأمر وقتذاك قد تجاوز مصطفى ولويس-جوزيف-يوسف وكارباتوس وداود بن شقرون، إذ كنت أراهم يتلوون من الضحك في قبورهم. ومررتُ بفكري

مرور الكرام على المدعو مراد، إنه مضحك فعلاً، وهو نال ما يستحق من السخرية والتهكم على الحكايات التي اختلقها عن قطارات البروليتاريا والأحياء الجامعية المنظمة في شبكات سرية والتي لم أستطع استيعابها. أما مسك الختام فكان مع شهريار الذي استحضرته للمثول أمام ميزان العدالة وسردت عليه جملة من الجرائم البهية من بنات أفكاري.

بقي عليَّ الآن أن أستدرج البنية لكي تبوح بأسرارها. ولا تعدو المهمة أن تكون لعبة أطفال لا غير، فكل التقنية وما فيها أن أبدأ مثلاً: "أنا، كنتُ" على سبيل وضع الطعم وإثارة استرسالها في الحديث، وعليها الباقي: "وأنتِ، ماذا فعلتِ مع مَنْ؟" ورغم ذلك ينبغي لي أن أوفق في اختيار اللحظة التي يسودها جو الهدوء الواثق وإيقاظ الرغبة لدى الآخر في قول الحقيقة، وذلك هو فن المهارة.

أما أنا المرأة العاقلة وحسنة السلوك، فلم يكن لي ما أتباهى به وأعلنه، عدا أثر جرح باد عليّ وبعض آلام طواها النسيان. لذا تجنبتُ الخوض فيما ليس لي به علم، ولم يكن مطلوباً مني أن أختلق خرافات لاستمالتها، وفوق كل ذلك فلست أنا الحبلى والموشكة على الغرق. قصصتُ عليها غرامياتي المكبوتة وأنا في الثامنة من العمر يوم كان أبي يقف لي

بالمرصاد على باب المدرسة حيث كانت البنت الوحيدة آنذاك وسواس كل أب.

لقد كان ظني في محله، صاحب الصورة إذن هو صاحب المشروع المنتفخ في بطنها. وفي لحظة من اللحظات كنت أخشى وآمل أن يكون الأبله سفيان هو الفاعل. وقلتُ في نفسي إذا كان مكتوباً عليّ في طالعي أن أضطر للاعتناء برضيع فالأولى والأحرى أن يكون من دم العائلة. ولكن، سفيان الآن في كوكب آخر ومشاريعنا ليست مشاريعه بالضرورة.

كان اسم الشخص الهاشمي، وعمره ثمان وثلاثين سنة، أما في الصورة فيبدو أصغر من ذلك بعشر سنوات. وهذا الفارق هو الخطة التي أوقعتْ بالصبية المغفلة. كانت تقول عنه وهي تتلوى غنجاً إنه جميل، وذكي وطيب وقوي... وأوقفتُ المسلسل، إنه ليس إلهاً بل هو رجل عديم الأهمية والسلام. ويمكن أن نلمّ من أشكاله بالعشرات وزيادة وعيوننا مغمضة، على ناصية أول شارع.

•أين تعرّفتِ عليه، وكيف؟

- في وهران. كنت أتفسح على الكورنيش مع صديقتيّ الجديدتين، ليلى وبيبة...

- يا سلام، ليلى وبيبة! ثم؟

- تقدم منا قائلاً: تعالوا، أقدم لكنَّ مثلجات!
- وتبعتهنّ طبعاً.
- نعم. ثم أخذني معه في فسحة بالسيارة.
- كفى، أحزر البقية. حدّثك عن مجموعة طوابع البريد أو الشعر المسلوخ من الجمجمة!
- ماذا؟
- دعيك من هذا. ماذا كنتِ تفعلين في وهران، فهي ليست الدوار الذين تقيمين فيه؟
- فررتُ منه، إنه الجحيم. بدأ والديّ يضايقاني، وكانا يريدان أن أمكث في البيت وألبس الحجاب، وأدفن نفسي. كان الأمراء حينذاك يطوفون بالنواحي المجاورة، وكانوا يذبحون البنات. وقال الإمام إنهنّ أهل الذبح، يا له من مغفل! كانوا يريدون أن نظل مسلمات طوال الدهر، تلك ليست حياة!
- لقد عرفنا ذلك، اهدئي!
- وهران رائعة، كنا نلهو طوال النهار.
- لم يكن لي مثل هذا الحظ، فالجزائر ليست وهران، والحكومة لا تسمح بالمبالغة في البهجة، وعليك أن تعلمي ذلك. وما مهنة هذا الهاشمي الرائع والهمام؟
- رجع إلى الجزائر. إنه شخص مهم، مسؤول أو شيء من هذا القبيل. ووعدني بالعودة.
- حسبك، أحزر البقية: لقد نسي الموضوع!

- كلا، كان يأتي مرتين أو ثلاث مرات في الشهر وكان يجلب لي معه الهدايا والملابس والحليّ...

- هذه التي تلبسين الآن.

- نعم.

- أفهم.

- ماذا؟

- دعينا من هذا. ماذا كان يهديك أيضاً؟

- المال، وكان يصطحبني إلى المقاهي والمطاعم.

- لا داعي للتوضيح، كان ينفق عليك على سبيل العشيقة!

- وهكذا، وفي يوم من الأيام وقعتْ له أزمة النسيان.

- فيم؟

- في أعمال ومهام جديدة.

- نعم، هذا هو بالضبط. جاءتني بيبة وأطلعتني على صورته في الجريدة، لقد عيّن وزيراً أو شيئاً يشبه ذلك. فأنا لا أقرأ، قالت لي ذلك ولكن لا أذكر كل شيء بالضبط.

- ها قد وصلنا إلى مربط الفرس، كنت أقول إنَّ هذا الوجه الغريب ليس غريبا عني! وهذا هو، لقد رأيته يرطن كلاماً من خشب أمام جمهرة من الببغاوات!

- ماذا؟ إنه ليس نجاراً!

- موافقة. هل له علم بموضوع الحمل؟

- لقد كلمته في الموضوع.
- وهنا وقعت له آفة النسيان نهائياً.
- كان قد وعدني...
- يا لك من بلهاء خرقاء، إن الوزير لا يرغب أبداً في أن يعلم الناس بوجود القمل في شعره.
- لماذا تقولين هذا الكلام، إنه نظيف جداً!
- ولكن، من أي عالم أنت، إن هؤلاء الأشخاص في غاية الخطر!
- لما كلّمته في الأمر لم يكن وزيراً بعد.
- قبل أزمة النسيان. طيب، وهكذا ذهب الرضيع مع ماء الاستحمام.
- ماذا؟
- دعينا من هذا. وبين المجيء إلى الجزائر والانقضاض عليه في مقر وزارته وهي مهمة خطيرة جداً كما سبق أن شرحتُ لك، أو الانتحار أو العودة إلى الدوار حيث سيذبحك والدك أو الإمام أو الأمير، ماذا اخترتِ بالتحديد؟
- الذهاب إلى المغرب أو إسبانيا.
- وهكذا تعرفت على أخي الأبله، ذهبتما سوياً لترقب الباخرة .وعاشت إسبانيا!
- وأين يمكنني أن أضع حملي؟ فليس لي من يوقّع بدلاً مني.
- يوقّع ماذا؟

- كل شيء... الوثائق... والمال.

- وتعتقدين أنّ في أوروبا لا توقيع ولا بطيخ!

- قال لي سفيان أن حرق الطريق خطير بالنسبة لي وأنا في هذا الوضع. وعلى الحدود، يطلق الحراس النار على الجميع ويرمون بالجثث في الوهاد. ونصحني بالمجيء إليك.

- وها أنت ذي، وعلينا التصرف على هذا الأساس.

- ...'

كانت الساعة الثالثة صباحاً وكان الليل يمتد ويطول. وحاولت ساعة الحائط الإشارة إلى وجودها ثلاث مرات، ولكن في تلك المياه المكدرة يتعذر حتى على الأشباح أن تسمع صوتها. إن المكان ليس آمناً على الأشخاص العقلاء، وأنا لست عاقلة البتة في المدة الأخيرة، وكل شيء يتسارع من حولي.

وسقطت شريفة في أحضان النوم، مربعة اليدين، فاغرة فاها، وساقيها أيضاً، مخمورة بالضحك ومتخمة براحة الحلقوم. وأدركتُ أنها كانت تلك طريقتها في الاسترخاء، لكن أراها الآن أقل وقاحة وقد باحت لي بأسرارها.

أسرار، أسرار... بل الأمر عادي جداً! كل الحكاية

وما فيها أن رجلاً يوقع في حبال حبه بصبية غرّ، يكيّفها على مزاجه ويجعل منها صاحبته "في حالة ما" عند خرجاته المهنية ثم يرمي بها ومعها دمية القراقوز على سبيل الهدية. إنها مشاكل القرون الخوالي التي تتكرر في كل مرة.

لقد سبق لي أن مررتُ بهذا، ولكن بلا دمية القراقوز على سبيل الهدية، ولذلك فلن ألومها ولن أوبخها. كنتُ في سنّها، ودخلتُ الجامعة وأنا ما زلتُ أربط شعري في ضفائر كما في الثانوية. ووقعتُ في الغرام مثلها من أول نظرة، وتجولت مع حبيب القلب مثلها في السيارة، وانتظرتُ مثلها وصول فتى الأحلام في المواعيد على قارعة الطريق، وتم الاستغناء عني مثلها بعد الاستعمال. وكان أمامي متابعة الدراسة لأشغل فكري أما هي فليس لها إلا شقاوتها الصبيانية لمواصلة المشوار. وبعد مرور الوقت علمتُ لمّا بدأتْ جلسات التجنيد الفكري والمذهبي أنّ منْ أوقعني كان شخصية مهمة في الحزب مهمته مراقبة الجامعة التي كانت ميدانه المفضل للصيد وملكه الخاص، وكان عميد الجامعة يتزلف له، وكذلك الأساتذة الذين يقبّلون يده، أما الطلبة الذين وضعوا رجلاً في فيلق التنظيم فإنهم يعظّمون له السلام. كان شخصاً ذا نفوذ وكان يحسن التحدث إلى الناس، وكانوا لا يترددون في

الارتماء على قدميه بمجرد إشارة منه وهذا ما جعلني فخورة أمام ذهول الزميلات. وكنتُ أفكر وإياه في غد مشرق واعد، وكلّ منا يعد الآخر ببذل كل الجهد من أجل نجاحنا معاً. ومع بداية العام الجامعي الجديد اختار منظّر الجامعة رفيقة من الدفعة الجديدة الوافدة وفقاً للعرف المتّبع، وكان يمارس على هذا الأساس حقه في التفخيذ. وفي ذلك الوقت كان موسم الشقراوات. وكانت المحظية شقراء من شقراوات الصيف التي كانت محظوظة في الظاهر كما كنت قبلها في موسم الصهباوات.

كان الموقف يدعو للرثاء لما أستذكرته بعد عشرين سنة، ولكن في ذلك الوقت غدا الموضوع كما لو أنه حلم من الأحلام. كانت الواحدة منا في السابعة عشرة وقد خرجت لتوّها من حضن العائلة لا تشغف في الغرام باعتدال بل تسبّل حياتها للموت في سبيله.

ليست هذه القصة هي سبب استنكافي في الوحدة، بل كل ما يحيط بنا ويعكر صفو حياتنا كل يوم أكثر فأكثر، ويتفسخ حتى تنغرس أقدامنا في وحل منطقه المدبق ويتقزز فينا القلب وكذلك الروح. فهناك في هذا العالم من يصرخ بملء رئتيه ومن ينهب ويسلب ومن يغتال. وفيه أيضاً ما لا يمت للحقيقة بصلة والجو الخانق والملهاة التي تدفع إلى الجنون. وفوق كل ذلك

توجد تلك الحقيقة التي لا مناص منها، وذلك اليقين المرعب وتلك السجون الخفية التي تزدرد وتقزّم وتخرب العقول وتدمر وتمتلئ عن آخرها بالجماهير الغفيرة الهائجة بفعل الكوابيس التي تعيشها. ثم هناك الباقي، كل ما ينقص عن اكتمال العدد، وما يزول، وما يتهدم، وما لا جدوى في وجوده، وما لا ينفع وجوده، وما يسبب الملل والضجر. وكما يوجد البشر الذين يواجه بعضهم بعضاً في صراع محتدم، فهناك من يغالون ويمعنون في المغالاة مشرئبي الأعناق من الخيلاء وكذلك من يعانون في صمت مطأطئي الرؤوس.

ماذا أفعل على هذا المركب؟ فأنا أحسن حالاً على ظهر الطوف، أشرب الماء وأحملق في السماء وأنصت إلى الريح، وكل شيء على ما يرام. وإذا صادف وأن اصطكت أسناني أو اقشعر بدني أو شعرت بحكة جلد في ظهري فذلك مرده دوماً إلى ذكريات التقصير مني لا غير.

لقد أصدرت ساعة الحائط صريراً أربع مرات. يا إلهي كم يمر الوقت مسرعاً!

في تلك اللحظة بالذات كان الشك قد استولى عليّ، ولم أعد أدرك هل ينبغي لي أن أنام أم أن أصحو من النوم.

يا إلـهي، إنـها بـداية الأسبـوع! ومعه يبدأ سبـاق الـمـاراثـون ومـسـلـك الـمـحـارب. الـبـدايـة كـانـت مـن المستشفى، فالتحاليل ثم الصيدليات، وتلتها مباشرة الدكاكين وأسواق البراغيث ومستودعات العطارين والأسواق الشعبية. وفي كل مرة تحدث اللقاءات التعيسة الاعتيادية، وفي كل مكان تتوافد الحشود الحاشدة على الطرق، والعربات القديمة الهائجة التي لا يحصى لها عدد تحمل على الخلق دون تمييز وتسير حتى على الأرصفة. وهكذا وجدنا أنفسنا مرة نقع فريسة إنذار بوجود قنبلة لا تبقي ولا تذر وانتهى الأمر بسلام، ولم يكن الأمر سوى اختبار نظّمه من لا شغل له ولا شأن في الحياة. إن كل هذا يسبب لي صداعاً لا يُطاق، إذ عليّ أن أسابق الزمن في الصباح وأسابقه في المساء. من التاكسي إلى الحافلة إلى السلالم ثم إلى التاكسي فالحافلة فالسلالم وهلمّ جرا. وفي كل تلك الأثناء عليّ الوقوف إلى ما شاء الله في لفح الشمس حيث أصبح لنا على الخط رقم 12 الامتياز

بمجانية التنقل واختيار المحطة التي نشاء، وهذا يشعرنا بالراحة. وجاءنا صديقنا سائق الحافلة في شركة راتوغا، سيد العارفين، والخبير بما خفي في مدينة الجزائر بالعناوين التي نحتاج إليها فبالغ في الكرم إلى الحد الذي عرض علينا فيه صحبته حيث شعرنا بالخوف والرعب، ما هذا 235، وإلى أين؟ وكدنا نطلب النجدة لإحساسنا بأننا ضحايا الاختطاف والسرقة والظلم، ولكننا وافقنا بحرارة لما استظهر قائد المركب البطل جدول الأعمال ويده على قلبه وهو يصيح: "إنها العائلة، يا هذا، وأنا بصدد مرافقتهن إلى البيت! أنتم مؤمنون أم ماذا؟" ثم توقفنا مع منتصف النهار لسد الرمق بابتلاع بعض الأكل الذي يجعل آكله يموت واقفاً؛ مأكولات تتقاطر منها الدهون، تغمرها السكريات وتعشش فيها البكتيريا. ففي مدينة الجزائر يوجد مصنع للأكل لكل نسمة ولا يوجد فيها أي شخص لتنظيف الشوارع. ولا يمكن أن يموت الإنسان جوعاً فيها إلا إذا صمم على ذلك ولكن الحياة ليست أكلاً فحسب بل علينا أن نعيش في جو من النظافة. وكلما ازداد البؤس ازداد عدد محلات الأكل الرخيص وارتفع عدد طالبي الوجبات السريعة، لذا، فإنَّ الموقف يدعو للحيرة حقاً! إن المساومات التي تجري تفقد

الإنسان المؤمن إيمانه، لكني لم أكن أتصور أن اقتصاد السوق الذي امتدحه الخطاب الرسمي يمكن أن يكون بهذه الصورة. لقد كان كل ما ينتج في شتى أقطار العالم من منتجات فاسدة وبضاعة لا تباع وأفلام هابطة وخردة تبهر باللمعان الكاذب تتدفق على أسواقنا وتتهافت عليها جموع الشارين مع أنه لا أحد يشتغل ولا يوجد من يعرف من أين تتأتى موارد رزقه. أتمنى أن يغادر علماء الاقتصاد الصالونات لحظة ليشرحوا لي كل هذا، ولا داعي في أن أشغل نفسي بمسائل ريع البترول والأشياء الباقيات الأخرى لأن الأسعار أصبحت تندرج ضمن مجال علم الخيال. كذلك أصبح التجار عديمي الضمير يخرجون لنا بأسعار كيفما شاؤوا. يا إلهي، ما هذه النظرة! إنهم لما يرون الشخص البائس قد نال منه الإحباط يقذفونه بوابل السعر الذي يختارونه. أما أنا فجنت عليّ هيئتي الأنيقة، وكان حظنا في الأسعار المطبقة على الأغنياء الموسرين، فهرولنا مسرعين في اتجاه بضاعة أخرى حيث ينتظرنا كابوس آخر. كنت تراني في موقف حرج، فشريفة لا تتصرف إلا بدافع النزوة وتريد كل شيء فوراً وحالاً. وإذا بدر مني تردد أو تحفظ اكفهر وجهها وقطبت حاجبيها وأخذت تضرب الأرض برجليها بنرفزة وهي التي لا شأن لها بميزانيتي ولا بصحتي.

آه، يا إلهي، ما هذا الذوق، وهذه الألوان، وهذه الأشياء التي لا تسمى، وهذه الخرق الغريبة، إن الأمر ليدعو إلى التقيؤ حقاً! وما هذه الطباع الفظة! إنها تستعد لكي تصبح أماً لكنها ما زالت ترغب في الظهور بمظهر غريب. ولحسن حظي كنت أحتفظ بذلك القانون الإقطاعي البالي الذي يحكم الأواصر الاجتماعية وهو أنّ من يدفع هو الذي يقرر.

أخيراً! حلّ المساء ومعه السعادة، والحمام الساخن، والعطور الندية، والفرش الوثيرة التي تجعل الإنسان يحلم بالموت وهو نائم ناعم فيها! وما ألذّ متعة فتح المتاع وفك الأزرار والتراجع خطوة والدنوّ خطوة والدوران على محور الكعب العالي والاستغراق في الضحك! لا يمكن أن أطلب أكثر مما أنا فيه، مهنة عرض الأزياء هي أجمل تسلية خفيفة في العالم. وكم يكون تبرجز الإنسان ممتعاً لما يكون فقيراً معدماً! وخطيراً في آن واحد. إن شريفة ليست سليلة الملوك وأنا لست إلا وريثة أبي البروليتاري المسكين. وكنت أقول في نفسي إن عفريتتين صبيانيتين ونحيلتين مثلنا محكوم عليهما بالنكوص إلى القهقرى والثغثغة إذ إن كل تقدم يعود عليهما بوبال الحسرة والألم. وفي مثل تلك السويعات من ضيق الحال المعنوي كنا نستشعر

الرغبة في التشرنق في قوقعتنا ومراقبة حالنا ونحن نموت من كمد التقشف، لأننا ندرك جيداً: أن الآتي أهول دائماً على الفقراء المساكين. ومهما يكن، تباً لكل مكدر صفو ومعكر مزاج، فنحن سنحاول البكاء يوم الأحد القادم! ولا يوجد أي قعر سحيق كفيل بإيقاظ الحالم المكد.

وفي النهاية، وُفّقتُ في التصرف والتدبير، واشتريتُ كل ما اشتهيتُ بأبخس الأثمان. فكلما كانت البسمة غير مجدية كنت أكشّر عن أنيابي وأمسك بخناق البائع المريب. إن كل الأشرار يفقدون أعز ما في فحولتهم أمام النساء العاقدات العزم على إثارة الفضائح، فيتملّكهم الرعب وسرعان ما يسارع إليهم هواة إراقة الدماء وينهب قردة الحي الصغار ما بقي في المحل. تلك هي سنة الحياة، لكل مشاكله التي تغنيه. وهكذا تزينت شريفة وصبيّها القادم حتى الموسم المقبل، ووصل بي الأمر إلى الحد الذي جعلني أهديهما حلية اقتنيتها بثمن لا أحلم به، ولم يبق إلا أن نتبع نظام الحمية لإعادة تمويل الميزانية.

أما عملية العثور على غرفة تناسب ذوقها وتأثيثها وترتيبها فقد أخذت مني وقتاً طويلاً، إذ كانت الدار

تحوي ثماني غرف، وثلاثة صالونات، وأربع حجرات، وعشرين مشكاة، وعشر خزانات حائطية لكل منها سحر خاص، وثلاث شرفات تطل إحداها على البحر، وقبواً هو في ذاته عالم لحاله بنخاريبه التي لم تسبر أغوارها وجوّه الموحي بمدفن قبو الكنيسة التي تعود إلى القرون الوسطى، وتسقيفة على ثلاثة مستويات، وأروقة تمتد على مدى مائة متر وسلالم متعرجة، ومع ذلك لم تجد ما يروقها. وفي نهاية المطاف وقع اختيارها على غرفة مربعة الشكل لا ملتوية ولا مستوية كغيرها من الغرف، كانت محاذية لغرفتي، وكانت الغرفتان تتصلان بفتحة صغيرة عليها قوس منمق، وربما ما جعلها تتخذ قرارها كان الجانب المتصل بالصوت، فقررتْ قائلة: "هكذا يمكن أن ندردش طوال الليل دون القيام من السرير أو الصراخ لتسمع إحدانا الأخرى!" للأسف، عمو حسين لم يعد من أهل الدنيا، وإلا كان أعدّ لنا عشاً في غاية الأبهة. لا أدري إن كان سيعمل عن طيب خاطر من أجل هيفاء مغناج، فلقد كانت له مبادئ تعود إلى العهود الخوالي: البنت هي البنت، لا يجوز لها التحدث بل عليها التزام الهدوء وكفى، وشريفة فيها عكس هذه الصفة تماماً. لقد تصرفنا كيفما أمكن لنا التصرف، وأفلحنا في ستر الجوانب الظاهرة جداً

والتمويه على الباقي. ولما خفّفتُ وهج نور قنديل السرير بغلالة الوجه قرمزية اللون النادر تخيلنا أننا وصلنا أبواباً في الجنة. وبكت شريفة لذلك المشهد أما أنا فضممتها للمرة الأولى إلى صدري وقبلتها في جوف أذنها، وأحسستُ بصعقة السعادة كما لو كانت كهرباء. وفكرت قائلة: "عجباً! ليس فيها إلا الجلد الذي يكسو عظمها"، وتحرك في داخلي إحساس رهيب بالذنب. حتى لويزة المسكينة لم تكن بدينة ولكن طباعها كانت صادقة، وكان ذلك يسر الناظرين. كم أنا مشتاقة إليها! وكم تسبب لي هذه اللاجئة القلق والانشغال!

وسرعان ما شرعت في تطبيق البرنامج الاستعجالي عليها "إفريقيا في الحرب": سكريات ودهون ونشويات بلا حسيب ولا رقيب. ولم ننس الفيتامينات، والوقوف على الميزان مع كل ملعقة صغيرة تتناولها. وفي غضون ثمانية أيام كانت قد استردت صحتها أما أنا فعاد الارتياح إلى ضميري. وصارت في وجهها نظارة وأصبحت لأثوابها هيئة آدمية، وبدأ الجنين يدب نشاطاً، وكنا نتابع تطور أحواله وكلنا غبطة وسعادة. ولما صارت في الشهر السادس أخذ الصبي ينمو فوق حدود التوقع، وكان كل شيء يسير على أحسن ما يرام.

أما الأسماء التي سندعوه بها فكانت قابلة للنقاش كالألوان. وكانت شريفة سمّاً قاتلاً، فهي تتشبث برأيها وتضطرني إلى الصراخ بأعلى صوتي لكي أسمعها كلامي. إن الصبي ابنها، ولكن في بيتي لا بد أن يكون لي رأي. لم أكن أنوي أن أفرض عليها اسماً من الأسماء الأمازيغية أو الفينيقية التي يفتخر المسمى بها بحملها، ولكن كنت أحاول أن أثنيها على الأقل عن التفكير في التنقيب عن أسماء من التراث الوهراني، فهناك كل شيء غير صالح للاستعمال، وأتساءل من أي كوكب نزل أهلها. لقد كان يدور في رأسها اسمان لا ثالث لهما؛ أول اسم يصاب الميت لسماعه بالطفح الجلدي وأما الثاني فيدفع بالرغبة في عض أي شيء ولو كان كلباً.

"إنك مجنونة، لا شك! سيف الإسلام، ما هذا، أهو تحريض على القتل؟ صدقيني إن طفلاً يحمل اسم سيف الإسلام لا مناص له من الإرهاب، ولا من الإرهاب المضاد. أهذا ما تتمنين لابنك؟

- إنها الموضة في وهران.

- إذن هي موضة منبوذة! وبئس الموضة، والاسم الثاني ما هو؟

- ابن شيحه... على اسم الشاب الذي يغني الراي في كانستيل.

- أكيد أنت مجنونة! ابن شيحه، ما هذا، أهو تحريض على التقتيل؟ صدقيني إن شاباً يحمل اسم ابن شيحه ليس له حظ واحد ولو على عشرة مليارات في الوصول حياً إلى التصنيف ضمن المراتب الخمسين في سباق الأغاني. أهذا ما تتمنين لابنك؟

- إنها الموضة في وهران.

- إذن هي موضة منبوذة! وبئس الموضة، عليك أن تفكري في كل شيء عند اختيار اسم المولود، ويجب أن يتوافر فيه الإيجاز والرنة الموسيقية..

- على كل ستكون بنتاً، وسأسميها... هيه...

- أرأيتِ، الآن بدأت تفكرين. سنسميها لويزة، اسم جميل، رقيق وراق.

- ممم.

- حسناً، وهو كذلك. أما إذا كان ولداً، فسنسميه... هيه...

- الهاشمي؟

- حذار من التفكير في هذا الاسم!

- سفيان؟

- كلا، أبداً، يكفي فرد واحد في العائلة لحرق الطريق! ياسين، يجوز، ويجوز جداً جداً، وهو واسع الانتشار في مدينة الجزائر.

- ممم.

انتهينا من تسوية مشكل واحد، لكن بقي الكثير، وعليّ اتباع المنهجية اللازمة، إذ يجب أن أعلمها القراءة في أسرع وقت لأنه لا يمكنني أن أعيش مع فتاة أمية تحت سقف بيتي، سأقتلها لا محالة. ثم ننتقل إلى الترقيع والرتق والخياطة والطبخ، وسيكون لوجودها جدوى وفائدة. عليّ أن أبدأ في تلقينها أول قاعدة عن الحياة في مدينة الجزائر التي لا ينبغي أن تنساها أبداً: وهي الشك في كل الناس، في المارة والجيران والوعاظ المرشدين وفي السوقة والشرطة والقضاة وفي السادة المحترمين جداً الذين يجيدون فن اللباقة كما يجيد الصيادون استعمال رُحيّة قصبة الصيد.

وبقي الباقي، وهو الأساس، الذي يجب أن يرسخ في ذهنها مرة واحدة وإلى الأبد؛ وهو النظام والانضباط واللطافة والنقاوة، وهلم جرا. إنني أثق ثقة عمياء في الفضائل التي يسمو بها السكون والنظافة والنعومة والرقة في الحديث. وسوف أذيقها الويل، سترى!

يا إلهي، إنني أتساءل دوماً، كيف يربي الناس أبناءهم ويعلمونهم.

عليّ أن أتولّى الأمر بنفسي وأعيد قراءة قصة روبنسون كروزو، ولن أكون في حاجة إلى وصفات

تلقين الهمج. إني أحس بوجود ألفة بيني وبين ذلك الغريق اللطيف. فالجزيرة المهجورة موجودة لدي، وداري تقع خارج الزمن وبمنأى عن الطرق والمسالك، ولي ذاكرة قوية تذكّرني جيداً أن الصبية المتوحشة أتت إليَّ في يوم جمعة أو يوم آخر. أمّا أنا فلا تنقصني لا الروح القتالية ولا آداب السلوك حتى وأنا في أشد الفقر والفاقة. إنَّ ذلك كله يناسبها جداً، فلقد حرصت العناية الإلهية على أن يكون الدواء بجنب الداء. وهناك شيء آخر، لقد بدأت أتلذذ بالقيام بدور سيدة القصر صاحبة القلب الطيب، ولم يصبح ينقصنا شيء عدا الهودج أو عربة رولس رويس الفاخرة لكي أروّح عن وحدتي في نزهة. لقد صارت لي سحنة ممتقعة وهيئة متكبرة متعجرفة دون مبالغة، وصار يلوح في البيت جو زوال الملك وأفوله، وفي الجوار كانت الحياة تدعو للغرابة، إذ صارت الدهماء لا تلوي على شيء والأعيان أهلكتهم رذائلهم، أما الأمراء فأغرقتهم الدماء ولم يعد للرئيس التعيس معارضون ليغتالهم، لكنّ مآثر العالم التي تصلنا بعد قرون وقرون فكان يغطي عليها هرير الأجهزة ونواح النائحات. وكان كل هذا الجو ينطبق تماماً على الفكرة التي يكوّنها الناس عن سيدة القصر الطيبة المعتكفة في قصرها العتيق.

صارت شريفة تنام باكراً في كل ليلة. وفي منتصف

الليل كانت تحلق في النوم السحيق، وتغط في النوم ملء جفونها. كنت قد عودتها على تناول الشراب المنقوع والمخصب بمنوم الأطفال، وبقيت أنا على العادة التي ألفتها دائماً، أتسكع في البيت، أرتب شؤونها، وأنقر بعض الأكل، وأطالع، وأفكر، ثم لما تبدأ قدماي أو عيناي في التنميل ألملم ذاتي في ركن وأركن إلى تعليل النفس بالآمال صاغيةً إلى سكون الليل وطقطقة البيت ومن ورائه إلى ارتجاج الوقت المتعذر وصفه، فأجد في ذلك حلاوة الموسيقى التي تلفني وتتوغل في أحشائي وفي جزيئاتي وأصغر ذراتي، وتزدهر حينئذ في أعماق ذاتي شعلة نور هائلة تأتي من البعيد السحيق وتضيع في البعيد إلى درجة يعجز فيها البصر عن التمييز، ويتوقف كل شيء، وشيئاً فشيئاً تصبح البرهة ردحاً أزلياً. عندها أصبح بلا حراك أبداً وبلا تنفّس وتشع فيّ حينئذ حرارة ناعمة وخارقة، بحيث أشعر في تلك اللحظة بأني متحررة وفي حل من كل شيء، فأوشك على الغرق... إني أغرق...

وعلى شفا الهاوية يمر في أرجاء رأسي صوت: لا بد من إنذار أهل شريفة، وطمأنتهم! كيف لم أفكر في ذلك من قبل! فلقد انقطعت عني أخبار سفيان. ولكني ما زلت أتحرق شوقاً إلى سماع أخباره منذ أكثر من

سنة، ولذلك أتفهم معاناتهم، وأحس بها. إنني سأكلم شريفة في الموضوع، وسنقوم بما يليق القيام به.

وخطرت ببالي فكرة أخرى في زحمة الأفكار: الاتصال بصاحب الصورة، وزير أي كلام، ووضعه في مواجهة مسؤولياته. ولكن سرعان ما صرفت النظر عن هذه الفكرة، لأن السافل له ذراع طويلة في الوقت الحاضر، ولن يتورع عن رمينا في الحبس، ووضع الصبي بين يدي امرأة شرسة موشومة، مثل مدام تيناردي مع كوزيت[1] ولكن بحجاب، سترهقه بسخرة جلب الماء وبعدها تسخّره للإجرام. وقد يعمد إلى انتزاعه من أمه ومني ويؤلب علينا الدولة كلها. يا إلهي، إنه سيرتكب شيئاً شنيعاً على شاكلته، شخص منغمس في المضاربة، إنسان مزيف وبشع وانتهازي! إن هذا الرجل ليس جديراً بالحياة، لهذا لا داعي للتفكير في الأمر.

وما دمتُ بصدد طرح الأسئلة فسأذهب غدا مبكرة إلى الجمعية لاستقاء الأخبار. فلقد مر عليّ وقت طويل دون أن أنتقل إليها، إذ قد يكون جدّ جديد لديها.

---

(1) كتاب البؤساء ـ ڤيكتور هيغو.

لم أعلق أملاً كبيراً على الموضوع ولكني سأواصل التردد إذ إنّ تنقلي صار عبارة عن عادة، وقد تكون عادة لازمة إذْ أصبحت حياتي تسير على وقع الألم وذات الأسئلة المعذبة التي تلاحقني: أين أنت يا سفيان، ماذا فعل بك الزمان، متى تعود؟

لقد كانت الجمعية تشغل الطابق الأرضي في بناية في وسط المدينة بُنيت بناءً فاخراً في زمن ولى. ولما كانت خراباً موشكاً على التمام يحيط بها خراب كامل مكتمل فإن مظهرها كان معقولاً. أما اليافطة المثبتة على يسار المدخل فإنها تحمل تسمية طويلة بطول ذراع قرد الشق المرقط: الجمعية الجزائرية لمساعدة العائلات والبحث عن الشباب الموجود في ضائقة والضائع في الهجرة السرية وإعادة إدماجه. إنني لا أريد الإطالة في اجترار التسمية وأكتفي باسم جمعية المفقودين وما ورد في ذيل اليافطة من أن تلك الجمعية معتمدة من قبل وزارة الداخلية. لست أدري إن كانت تلك الإشارة إجبارية أم أن الأمر لا يعدو أن يكون شكلاً من

أشكال الولاء الطوعي. كذلك لا أريد أن أكيل الاتهام لأحد ولكنني أفهم أن الأمر واحد في بلد الإجرام، وإذا لم يعجبنا الوضع فالأمر سيان. لقد علمت بوجود الجمعية من الزميل المدعو مراد الذي دلني على عنوانها. إنه غريب الأطوار، وأتساءل دائماً في موضوعه: هل يأتي إلى المستشفى بدافع البر والإحسان أم يشتغل لدينا كمخبر متطوع في المخابرات. كنت أقف مشدوهة دائماً أمام الزملاء معجبة بعلمه بكل صغيرة وكبيرة، قبل الأوان وقبل كل إنسان، ولا أعرف منهم من يتردد أمام التعقيد والصعوبة. من أين لهم كل هذا؟ كذلك كانت تستهوينى أحياناً الرغبة في تصويب رصاصة في أم رأس أحدهم على حين غرة لكي أكتشف علامة واحدة فقط من علامات الحيرة في عيونهم وبعض الذهول أمام المجهول فأفاجأ بهم يخرسون أمام ما يمكن أن يفقهه العامة. فالزميل المدعو مراد هو ممن لهم علم بالأشياء، لذا شكرته على المعلومات وأرجو أن يذكرني بخير.

أخبرتني مديرة الجمعية في أول لقاء جمعني وإياها أن الأسئلة التي كنت أطرحها ليست في محلها. أما أنا فكنت لا ألوي على شيء، لأنه لا بد لي أن أعرف، فكنت ألح عليها وأستميت في الإلحاح. لقد شرحت لي

الأمر باختصار، وكانت تريد أن تقول بأن لا فائدة في الكلام في الهواء والتباكي ، بل يجب الالتزام بالهدوء وترك الخبراء يقومون بعملهم. بعد ذلك رمقتني مباشرة بابتسامة كمن يبتسم لصبية في غاية الهدوء وولت مدبرة بجسارة وجرأة، تحمل حقيبتها في يدها وهاتفها النقال في أذنها، وفي مشيتها شيء من الخداع المكار. إنها هي حضرة النقيب التي تجري وراء المجد، في كامل هيئتها، حتى إعلانات التلفزيون لم تعد ترتكب حماقات مثل حماقاتها. ووددتُ لو أمكنني أن آذيها بالسحر لكانت في تلك الساعة تبحث عن نفسها في جحر في مكان ليس له قرار. إنني لم أعد أراها بعد ذلك اليوم أبداً ولله الفضل والمنة، يا لها من مغرورة متنفجة ومتعجرفة قميئة؛ فهي من النوع الذي يرتاد الصالونات وتجامع أدعياء البروليتاريا الذين يحتكرون مراكز النفوذ العليا في هرم الدولة، ومن اللواتي يدبرن المواعيد الكاذبة. أما نائبتها العاملة المطلعة تماماً على ملفاتها فنصحتني بالتحلي بالأمل والاستعداد في الوقت نفسه لأسوأ الاحتمالات. وتعمدتْ أن تؤكد لي من باب الشعور بالرضا عن النفس أن في ذلك دليلاً على الكرامة والمسؤولية. فلقد أرهقتني بالإحصائيات، والصور المروعة، وقصاصات الجرائد، وأتخمتني

بالعبارات التي تليق بالمأساة. فالبلاد تفرغ من شبابها ولا أحداً يحرك ساكناً، ذلك كل ما أفلحت في تلقيني إياه، فأجبتها بالسرعة التي استخدمتها في أسلوبها:

" لا أريد منك دروساً في كيفية الاحتفاظ بالوقار بل أريد أن تقولي لي كيف ستعملون من أجل العثور على أخي الأحمق!

- إن لنا وسائلنا الخاصة" هكذا ردت عليَّ في همس كما لو كانت تتحدث في أسرار القنبلة النيترونية أمام جمهور من الأميين.

كيف قالت هذا! ولكن، سأعذبها وأنكل بها، هذه المومس!

- بالضبط، ما هي؟

وبوضوح وبكل عناء، راحت تسرد عليَّ ما حفظته عن البروتوكول وهي تعد على أصابعها.

"نبدأ بإعداد بطاقات عن المفقودين... نخطر السلطات التي تقوم بدورها بإخطار المؤسسات الأجنبية المعنية... ممم... نراجعها في الأمر دورياً... نعقد الاجتماعات... ممم... نعد تقريراً سنوياً مكتوماً نرفعه إلى الحكومة..

- لماذا هو سري؟ فالمفقود مفقود، والجميع على علم بذلك.

- ممم... قلت مكتوم، هناك فرق.
- أفهم ذلك جيداً، ولكن المفقود يظل مفقوداً.
- ممم... نعم، نعتزم توزيع نشرة موجهة إلى أولياء المفقودين.
- إنها فعلاً منهجية جيدة. النشرة فكرة هائلة للاحتفاظ بالمرضى جاهزين.
- هل لك منهجية أكثر فعالية من هذه؟ ردت عليّ بسرعة وقد زمّت شفتيها البارزتين.
- نعم، رمي زجاجات في البحر والخلود إلى النوم."

بعد ذلك شعرت بالراحة لأنه كان عليّ أن ألقنها أن الطريق الوحيد الذي يصلح لإنقاذ البلاد التي أشرفت على الغرق يتمثل في رمي الحكومة في البحر ومعها زائدتها الذنبية، الإدارة. وبعدها لن يفكر أي شاب في أن يرمي بنفسه في البحر مخافة أن يلتقي بهم بين عباب الأمواج. إنها السياسة، والخطر محدق بي، وأنا أريد أن أظل على قيد الحياة ومتشبثة بمنصب عملي بمستشفى بارني. إنهم يريدوننا أن نعلم أن لنا في هذا البلد الذي فقد أهميته أن نتذمر ما شئنا ولكن لا يجوز أن نزعج عمال الحكومة، فهم عصبيون، والمنظمات الدولية تضايقهم وتريد أن تعرف لماذا هم محتالون ولماذا هم شرسون جداً، وتريد أن تعرف

كيف يختفي الناس المغلوبون على أمرهم على مرأى ومسمع العائلات والسلطات العمومية. صحيح أن السؤال مطروح ولكنه ليس السؤال الوحيد الجدير بالجواب. ولا يوجد شخص واحد يمكنه أن يقنعني بأن الجمعية ليس لها ضلع في القضية. إنها مجرد حجاب ساتر، تقوم بدور الإدارة في جهودها الرامية إلى الإلهاء وإجهاد الغير. ولا توجد وسيلة أفضل من جمع نسوة متحذلقات للتصدي لأولئك المسؤولين الكبار في المنظمات الدولية وإرغامهم على التسليم بالأمر الواقع والاعتراف بالذنب. إن لهن حيلاً وألاعيب، ويمكنهن تفسير كل شيء حتى ألم القطان الذي تشكو منه حارسة العمارة، بواسطة الاستعمار والإمبريالية والصهيونية وصندوق النقد الدولي وتصرفات "اللي في بالك". ولكن ما هن لسن بارعات فيه هو وصف علاج للمسكينة حارسة العمارة.

قالت لي بأسلوب العالم الفاهم: "إذا أخذتِ في الحسبان أن المرشحين للهجرة يعملون في ظل الكتمان وينتقلون عبر فروع سرية تنتمي غالباً إلى المنظمات الإرهابية المتعددة الجنسية التي كما هو معلوم ليست المنظمات التي يدلنا عليها الغرب، ويموتون عند الاقتضاء في السرية، تدركين مدى صعوبة المهمة التي نقوم بها".

لست أدري إن كانت تنوي التنكيد عليّ طوال الليل أم ستخوض في الجعجعة إلى أن ينبلج الصبح. يجب أن أوقظها من سباتها.

"إنني أدركُ خصوصاً أن الشباب ينفون أنفسهم لأن كل شيء هنا مقفل في وجههم حتى حنفية الماء. هل تعرفين الكثير من الشباب الذين يحبون العيش في الأسر؟ ثم هناك أمر آخر: لماذا تقولين الهجرة السرية، إن العبارة الصحيحة هي النزوح المكثف... الانتحار الجماعي، قد يكون الأصح!

- وأنتِ نفسك، ماذا قدّمت لأخيك لتثنيه عن البحث في مكان آخر؟ قذفتني بهذه العبارات وكأنها تصوب إليَّ نظرات الحنق والغضب.

- إذن، علينا نحن الأسرى المغلوبين على أمرنا أن نمنح شبابنا الحرية، والمدرسة التي يكون فيها انعتاقهم، والعمل الذي يضفي عليهم القيمة، ونعطيهم الهدف المنتظر من الحياة الذي لن يكون أنشودة يرددونها عن ظهر قلب أمام الصم، ووسائل التسلية والترفيه التي لن تكون دموية أو مشفوعة، كما هو الحال، بالانخراط في السّريّة أو الارتماء في أحضان الوعاظ، أو لا قدّر الله، لدى المدافعين عن الحرية؟

- ماذا... إنكِ تخرفين!

- ولكني أفقه ما أقول!

- ..."

هكذا كان حال اللقاء الأول. ولم تكن اللقاءات الموالية بأحسن حال. وكانت النسوة في الجمعية بمجرد أن يلمحنني قادمة وهو ما كنت أقوم به دون سابق موعد، يسرعن مهرولات مع إحداث هرج ومرج. وكنّ يتذرّعن بالاستعداد لحضور اجتماع طارئ كنّ قد نسينه ثم افتكرنه فجأة وعلى حين غرة. أما تصرفي معهن فإنه مثير للسخرية، ولم يكن يؤدي إلى أي نتيجة، إذ لم تكن عرائس القراقوز تلك في حاجة إلى حجة أو ذريعة لتثبيط كل ذي عزيمة، وأنا المسكينة كنتُ أظن أنهن قابلات للتعبئة والتعاون بمجرد أن يتمنى المرء ذلك. لذا، بدّلتُ رأيي رأساً على عقب، وقررتُ ردّ الصاع صاعين، وتبوأتُ دور بطلة الكرامة والمسؤولية، وصرتُ أتباهى بصداقاتي الجديدة.

هكذا أنا بالضبط، فكري يرفض المواربة، ولذلك لا أستطيع إلا أن أكرههنّ! ورُحتُ أفكر في شريفة. صارت الفكرة التي تساورني بأن هذه البنت التي يمكن أن تضيع حتى وهي في هذا البلد المفلس أو تتيه في أي مكان أو في أي مرفأ من هذا العالم الفسيح، تشعرني بالجنون. وصارت الفكرة التي تساورني بأن آلاف الشباب الذين وصل بهم الأمر إلى الانتحار

بسبب أبواب المستقبل المقفلة في وجوههم تصيبني بجنون أكبر. وأصبح منظر أولئك النسوة المسنات الهانئات المطمئنات، ومنظر ببغاوات الحكومة يتلمظون ويتلذذون تحت الشمس، ومنظر كبيرهم وكبير المهرجين يتباهى في وضح النهار يجعلني أحس بالغضب الشديد. أقول كل هذا الكلام فقط لأبيّن أن اللقاء معهن كان صاخباً وعاصفاً، بينما كان لقاء ذلك اليوم لقاء حسناً، إذ وصلتُ وعلى محيّاي بسمة وقورة، متأبطة تحت ذراعي شريفة الفاتنة التي كانت كالملكة.

"كم أنا سعيدة بلقائكنّ، عزيزاتي. كيف الحال؟ أنا واثقة أنكن لن تبخلن عليَّ أخيراً بمعلومات عن أخي الغبي.

- كلا، للأسف، يا حبيبتي.

- عفواً!

- إننا نعاني تأخراً في العمل في الأيام الأخيرة، تصوري... إننا بصدد انتظار زيارة وفد الاتحاد الأوروبي... ونعوّل كثيراً على مساعدته المالية... علينا أن نحضّر الملفات..

- أي ملفات؟

- أنت تعلمين، الميزانية، وبرنامج العمل، وتنظيم المواعيد، والمقالات الصحفية...

- وسفيان في كل هذا الموضوع؟

- اطمئني، إنه موجود في القائمة.

- القائمة؟

- نعم، القائمة!

- يا سلام، القائمة!

- بالضبط، قائمة مفقودينا الأعزاء على قلوبنا. نبلغ بها الاتحاد الذي يدرجها ضمن قائمته الخاصة. وهذا عبارة عن وضع ضمن الشبكة... هل تدركين؟

- تماماً، يمكننا أن نقع مغشياً علينا مرتاحين طالما ورد اسمنا في القائمة.

- هل ينبغي أن أفهم أنك تستهزئين؟

- بل سأقوم بأكثر من هذا، سأصفعك إن لم ينقذك أحد مني!

- ...»

كنتُ قد خرجت عن طوري ولم أعد أتمالك نفسي. إن هناك جرائم لا بد أن تشجع، أقول هذا بكل صراحة. لو أن كل ملوك وأشباه ملوك هذا البلد أعدموا عن آخرهم دون نسيان مهرجيهم المغلوبين على أمرهم لأمكن للشباب أن يروا النور أخيراً. كنت أقول لنفسي كلاماً من هذا القبيل وأنا قافلة مهرولة إلى الدار ومستعجلة على كسر بعض الأواني. لقد كان الناس يخلون لي السبيل إما بدافع الذعر وإما التقزز، أولئك الحثالة وأشباه الرجال الذين يرون أن لا حق للمرأة في

الغضب بمنأى عن رقابة رجال عشيرتها. وشددتُ شريفة بشدة وأغلظت في معاملتها بقسوة وشراسة، وكانت المسكينة تتأوه إلى درجة يتفطر فيها القلب.

لقد قررتُ وانتهى الأمر، لا جمعية بعد اليوم. سأفتش بنفسي. كيف، لا أدري ولكن سأجد مخرجاً. سأوظف شاباً من شباب الحي المتأهب لحرق الطريق، وأدعمه لكي يلتحق بأخي الأبله سفيان و...قد يكون الأمر من قبيل العته، ولكن، لم لا أدفع عنه مصاريف السفر لكي يرسل إليّ بطاقة بريدية من طنجة أو ماربيللا أو من الآخرة؟ كلاّ، توجد طريقة أفضل، سأجند شرطياً من المتقاعدين، إنهم محتالون وماكرون هؤلاء الشرطة، ولكن قد يكونون أمناء. إنهم في النهاية سيحاولون استرجاع بعض إنسانيتهم المفقودة. ولا يلزمني إلا واحد ممّن ترك ابناً له على طريق الحراقة وبذلك ستكون لنا قضية مشتركة. وسوف أراجع المدعو مراد في الموضوع، إذ قد يكون فيهم من يخالطهم. سأقوم... لا، إن الموضوع سخيف، لقد اختلط عليَّ الأمر، ومعه لا بد أن أمر من متاهة إلى متاهة أخرى! لن أنسى بسرعة ما اختلق لي من قصة محطات القطارات! سأعمد إلى نشر بلاغ في الجرائد، هنا وهناك، في المغرب وفي إسبانيا وفي كل مكان. "بحث في فائدة العائلات" وأتساءل إن كانت الزاوية

موجودة دائماً. لقد ولى عهدها الذهبي، وما زلت أذكر أبي الذي كان يقرأها بلهفة وبولع، عندما كانت تنقطع آنذاك أخبار الكثير من أصدقائه القدامى. إن الأمر لا يكاد يصدق، كيف كان الناس يختفون بكل تلك البساطة في تلك الأزمنة الهانئة الهادئة نسبياً. ولكن الموضوع كان هيناً في ذلك العهد، وكان المفقود ينسب إلى مخلفات الاستعمار، أو أحد الحركى الذين ما زالوا متربصين، وقضي الأمر والسلام. وما كان يدعو أكثر إلى الضحك أن من المفقودين من كانوا يعودون للظهور أحياء يرزقون وتائهين في الطرق العامة ولكن مشوهين إلى الدرجة التي يتعذر عليهم فيها شرح ما وقع لهم، ثم يمسك عليهم بعدئذ متلبسين بتهمة التشرد البرجوازي الصغير، فيحملون على الشاحنات ويرمى بهم على بعد ثلاث قرى أو أبعد من ذلك. وفي الوقت الحاضر لا بد من الفطنة في التملص ويكفي كل شخص أن يحدد محله من الإعراب. وليس أصعب من ذلك على الأولياء الذين يرغبون في معرفة قطاع التّضفدع، ومن يموّل، ومن يمسك برأس الخيط، وهل للمنظمات الدولية علم بالموضوع. وهنا تكون بداية قصة لا نهاية لها حيث نذهب إلى محافظة الشرطة لتقديم شكوى في الشرطة أو في مكتب من المكاتب ونخرج منها وقد لفقت لنا جريمة كانت جاهزة لمن يتلبس بها.

قلتُ لشريفة وأنا أفرك ذراعها: "أرأيتِ ما سيحصل لابنك إن إنتِ لم تعتني به وتحترسي من الآن من الناس الذين يخالطهم!"

- ولكن، لماذا تتمنين لنا هذا المكروه؟

- ماذا فعلتِ أنتِ بنفسك؟ غادرتِ أهلكِ، كما فعلها الأحمق سفيان، كما يفعل كل السفهاء الآخرين الذين يهرولون في كل الطرق بدل أن... وأن..."

أف، ها أنا قد بدأتُ في النحيب.

وقالت لي شريفة وقد تملكتها العاطفة: "بدل ماذا؟

- بدل الموت هنا، في ديارهم، بين ذويهم!

- لماذا تكررين دوماً "ذلك الأحمق سفيان"؟

- لأن موت المرء بعيداً عن قبره لا معنى له، أيتها الحمقاء!"

وهوت عليّ برودة كما تهوي حجرة شاهد القبر على الميت. لم يبق لي ما أقوله، أو أفعله، أو أرجو حدوثه. إن اللعنة لن تتوقف عن أداء مهمتها. فبعد مائة سنة أو ألف أو عشرة آلاف سنة، عندما نكون قد متنا وطوانا النسيان ستأخذ الحياة مجراها، لا محالة، وسيكون للنساء وللأطفال نصيبهم وحصتهم. أما في الوقت الحاضر فالدنيا ضاقت بالوعّاظ وغيرهم من دعاة

الدفاع عن الحقيقة، والجبناء الذين لا يعرف المرء لكثرتهم أين يزج بهم. لماذا يحملون لحى وثآليل على رؤوسهم طالما لا تنفعهم في شيء؟ إن هذا السؤال يحفر في رأسي ولا يتوقف.

انزوينا في ركن وانخرطنا في النحيب والعويل إلى أن جفت مآقينا.

وقصّت عليّ المسكينة قصتها. كانت في الرابعة من العمر لما فرّق الموت بينها وبين أمها، وهي لا تذكرها ولا تذكر الداء الذي ماتت به. إن لي معرفة بالموضوع، ونستقبل من هؤلاء الكثير في مستشفى بارني، حيث يكون المرض والتعب قد نالا منهم إلى حد يصبح لا طائل من وراء محاولة معرفة الداء الذي يعانونه، فهم بذلك قد حجزوا لأنفسهم قبراً قبل حلول الأجل. وكنّا نكتب عنهم فقط "قصور عام" ونطوي الملف. وكان إخوتها الثمانية الذين يكبرونها سناً يزاولون عملهم في المزارع المجاورة وفي المطاحن القريبة، وهذا ما جعلها لا ترى منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة في المرة الواحدة إذ كان الطريق مأواهم. وفي يوم من الأيام تزوج أبوها من امرأة قاسية القلب طلعت لهم من جهنم، وولدت له البنين والبنات بما يضيق به العد والحصر. "كم كان له من الذكور ومن الإناث؟

الكثير، لا أذكر، كانت أمهم تدللهم طول النهار وأبي لا يرى في ذلك مانعاً". الخلاصة، كان يخافها. ثم جاء الإسلاميون وشرعوا يذبحون البنات. كانت المسكينة تتملقهم كالبهيمة، وتفتل لهم الكسكسي، وتنقل إليهم الأخبار عن عيوب الناس ظناً منها أنها بذلك تصرف أنظارهم ولا يحيق سخطهم ببيتها. ولكن شريفة كانت تطرح مشكلة عويصة، فهي غريبة الأطوار، متحررة، كثيرة الاحتجاج، متعودة على الهروب من البيت، ومليحة بشكل فظيع: إنها كانت فتنة لا قبل للإسلاميين بمقاومتها. وذات صباح حملت حقيبتها وولت هاربة. إنها قصة من القصص الموجودة بالمئات وبالآلاف في ربوع البلد، وعما قريب في جميع أنحاء المعمورة. إن الآفة الخضراء لا حدود لها لتقف عندها. وفي يوم ليس ببعيد، ستذبح البنات في كاليفورنيا، إني أرى ذلك من هذا المكان، وساعتها لن يكون كلو كلوكس كلان هو الفاعل.

"... كانت زوجة أبي تكرهني كما لو كنت جالسة دوماً على رأسها! إني أمقتها، كانت دميمة وشرسة، إنها سارقة! كانت تنعتني ببنت الشيطان، وكانت تروي عني أنها رأتني، مع أنني لم أفعل شيئاً أبداً.

- رأتكِ أين... فعلتِ ماذا؟

- الذكور!

- كنت أظن ذلك.

- أبي كان جباناً، كان يترجاني في السر، كان يرغب في أن أختبئ تحت الحجاب لكي آمن من شرّ العلقة زوجته ومن الذابحين. ولما صرختُ في وجههم بأني لا أحب دينهم، هذه هي القصة، سعوا إلى هلاكي. وهكذا هربتُ من البيت، تبّاً لهم!

- هيه، لن نقول هنا بأنك لا تحبين الدين! هل جننتِ، إنك في أرض الإسلام، سيحرقونك وأنا معكِ!

- لا همّ لي!

- كلا، يهمك، إنّ لك صبياً في أحشائك، وأنا لست مستعدة للموت حرقاً!

- سأذهب إلى مكان آخر، وترتاحين!

- إلى أين تذهبين؟ إنهم في كل مكان، إنها قصة مجهولة لا بداية لها ولا نهاية! ولا تحاولي أن تقولي بأنك ستذهبين إلى أوروبا، لأني سأخبرك بأنهم حطوا الرحال هناك أيضاً، وصارت البنات يعانين عناء شديداً!

- أذهب إلى مكان آخر!

- الأمر سواء، أيتها الحمقاء!

- سأ... ممم.

- أرأيتِ أنك تفهمين لما ترغبين.

- ممم...

- معك حق على العموم، الدين سينتظر! ولماذا

البكاء إذا كان الله لا يحبنا؟ سنتبع الشيطان، وانتهى الأمر. هيا، سننزل إلى المدينة، ونريهم، سنفرح ونمرح كالمسعورات، سنلعق المثلجات، وسنضحك ونقهقه، سنمشي تحت لفح الشمس، سنبذر كل ما لدينا من مال في أشياء تافهة، وسنشتري حتى الفساتين التي تبدو فظيعة للناظرين! وإذا ما أحرقونا، فلا ضير، سنأوي إلى جهنم كالألعاب النارية!"

يا إلهي، ما أروع النزول! لما تكون لنا الرغبة، والجزائر سهلة على العشاق. واكتشفتُ أنها تفتح لنا ملء ذراعيها اللزجة. وهِمنا في المحلات والبازارات وقاعات الشاي، وعَدَوْنا في الأنهج والشوارع، وتوقفنا نمرح في الحدائق الغناء. كنا نمضي في جو مفعم بالفرح والحبور بينما شريفة تختال وتتمايل مبدية غنجاً ودلالاً كأنها لم تفعل إلا ذلك في حياتها وأما أنا فكنت أتظاهر بالوقار لأن هيئتي لم تصبح برشاقة العذراء المشيقة؛ وكان يسير في أثرنا سرب من المعتوهين يعدونّ رتل خطاهم على وقع خطانا ويتحينون الفرصة للانقضاض علينا، ويا ويلنا! لذلك كنت محترسة لأرد الصاع صاعين قبيل اندلاع ثورتهم وأصير عندئذ امرأة لا تصلح إلا للفضائح، ويا ويلهم. وها هم يولون الأدبار، ويندسون في الأزقة كالصراصير. إنهم محض جبناء لا حياء لهم ولا خجل.

ولشدة الفرحة لم نشعر بقدوم الليل، ولم ندرك أنه أرخى سدوله إلا عندما رأينا الناس يدسون رؤوسهم بين أكتافهم ويسرعون في مدّ خطاهم. كان البواسل المساكين يهرعون إلى مخابئهم، ولسان حالهم يقول نفسي، نفسي. يا لهم من رعاديد! لقد أعلن وضع حظر التجول منذ مدة، وستبدأ حالة الحصار في يوم ما، كما ستقام مراكز التعذيب، وأما التلفزيون فلقد صار كله أماسي موسيقية ودردشة هادئة، وغدت الجرائد مجرد ثرثرة ولعب طمبولا، وبينما الرئيس هانئ في رحلات الاستجمام، وكل شيء على أحسن ما يرام، ولكن السلوك القديم بقي هو هو، فهؤلاء الرجال المساكين يعيشون في رعب حقيقي، يرهبهم البهتان كما تفزعهم الحقيقة. وكانت السيارات وقتذاك تسير بسرعة في شوارع صارت مشاعة فجأة للأسى والكآبة، وخيّم على المدينة، وحتى على تخومها، السكون ورائحة الموت.

بلغنا الحي في حدود التاسعة ليلاً. ولم يكن يوجد أي سبب في الدنيا يبرر وجود امرأتين وحيدتين في الشارع ويصدقه عاقل. إننا في الأدغال ونحن على مشارف منحدر فالي، ناحية ضائعة في ضواحي العاصمة، دروبها وعرة المسلك، إنها الوجه المستتر من القمر بالضبط. لا يوجد بالحي تاكسي ولا حافلة

باص، ولا قنديل يضيء لنا الدرب ويرافقنا المشوار. يا لها من سخافة أن يتمسك الناس بالنور بهوس؛ لم التعب ونحن على مرأى الرجال المتربصين بدياجير العتمة؟ إن هذه العادة المهووسة تذكرني بقصة المصباح... وقصة الرجل التائه الذي يفتش عن محفظته في المكان المسلط عليه النور. إنها بالضبط عبثية المانوية، نقف حيثما يبتدئ التالي. من أين خطرت لنا تلك الفكرة التي أقنعتنا أن النور ميزة؟ أخذنا بزمام الشجاعة بكلتا اليدين وأوغلنا في ظلمة المتاهة الحالكة. كنت أتقدم مستنيرة بعادة الذاكرة. كل شيء مرسوم بوضوح في رأسي، المسافات، والمنعرجات، ومصارف المياه، والتلال، والجدران. أخذنا نتصبب عرقاً. لا كلب ولا قط ولا حتى فأر، لا شيء يتحرك، كان الحي يبدو وكأن الحياة توقفت فيه منذ قرون وقرون. وما عدا طقطقات جزمنا ولهاثنا، وذلك الصوت المتواتر والغريب القادم دوماً من بعيد مع ما يحدثه من ارتجاج في السماء، فلا يوجد أي شيء، السكون والجمود والفراغ.

يا إلهي. أبهذه الصورة تمضي كل الليالي في مدينتنا المقدسة؟

كفّت شريفة عن التفاخر والجسارة، ها هي تتشبث

بكلتا يديها في ذراعي وترتجف من قمة رأسها إلى أخمص قدمها كما يقال. لقد أثمرت الرحلة الاستكشافية وكانت أبلغ في الإقناع من كل الخطب، كان يكفي الاطلاع للإقناع. وحتى روبنسون كروزو لم يكن ليتخيل أفضل مما أنجزتُ.

لمحتُ وأنا أصدّ الباب خيالاً يرتعش من خلال شجر الحور كخيال رجل يمرّ في ظلمة الليل. أهو الخيال الذي خُيّل لي أني لمحتُه لما قامت شريفة بأول مروق لها من بيتي؟ هل من معنى لذلك إلا أننا واقعتان تحت طائلة الرقابة! ممّن؟ ولماذا؟

إن للاستهتار وجهاً ثانياً سيئاً، ها نحن أصبحنا في ورطة.

لقد كنتُ أردّد دائماً: كل يوم يأتي بهمّ وغمّ أكبر.

وتعاقبت الأيام على هذا المنوال، ولم نصبح نغادر البيت إلا للتبضع. وذات صباح اصطحبتُ شريفة إلى مستشفى بارني لإجراء بعض الفحوص الروتينية عليها، وفي يوم آخر، وبعد عشرة أيام، هرعنا مسرعتين إلى مكتب البريد للوقوف في الطابور لسبب أجهله، وتبين أن السبب كان للرد على أسئلة لم أفهمها. ولا أذكر بموجب أي قانون تم استدعائي لكي أبقى تحت تصرف الشباك رقم 6 إلى غاية تسوية المنازعة. أيّ منازعة؟ أين، متى؟ واتضح في نهاية الأمر أن القضية كانت تعني شخصاً آخر، ظاهرة رجالية من الظواهر العجيبة يكون قد قدم شكوى بشأن سوء معاملته من شباك البريد المعني لدى المديرية العليا، وكان لا بد من أن يخضع للقصاص، ولسوء حظي وطالعي وقع الاستدعاء الموجه إليه في صندوق بريدي. ومهما حاولتُ التجمّل بالشجاعة والتحلي بالاستبسال فلا أمل في برئي وشفائي من الوثائق الإدارية التي ستقضي عليّ في يوم من الأيام. لم أدرك بأي لغة كانت تحرر تلك الوثائق،

أباللغة السيريلية التي تضرب بجذورها إلى عهد المومياء أم باللغة العربية المستعملة من لدن الأممية الإسلاموية؟ كنتُ أهرع لما تبلغ إليّ إلى الاختباء حتى قبل أن أتحقق من مدى صِدْقيتها. قد لا يصدقني أحد، ولكني كنت أصاب بالذعر إلى حد عدم التعرف على اسمي. إنّ تلك الحادثة لم تكن أول طيش يرتكبه الشيطان موسى، ساعي البريد المحكوم عليه بالأشغال الشاقة الذي يسكن في منحدر فالي. إذ كان يحدث أن يبذر رسائلنا كيفما قدّرت المصادفة. إنني أعرف السبب في شعوره الدائم بالغضب، ولكن عليه على الأقل بذل القليل من العناية والانتباه. لقد كان ساعي بريد يعود إلى الزمن البائد، فهو تعلم في المدرسة الغربية، وكان مزهواً بقبعته ولفاعه الطويل، وكان مولعاً بحذائه العسكري الضخم! وكنتُ أنا ولويزة في صبانا مبهورتين أمام الدفء الذي كان يلفه وهو يرتدي أثواب الصوف، وكما كنّا معجبتين أيما إعجاب بمواظبته على الوقت مهما تكن حالة الطرق. وأذكر أننا في يوم من أيام البرد الشديد حلمنا بزواجنا منه نحن الاثنتين. كان يدبر حاله ويبلي بلاء حسناً، وكانت هدايا رأس السنة من اختصاصاته فهو يبيع الروزنامات بطريقة سريعة وعجيبة، ونحن نرحب به دائماً بالصياح "هيه، موسى!" عند

قدومه، وننادي "برافو، البوسطة!" عند مغادرته. ثم لما حدث الزلزال، تعرّب كيفما تيسر له، في بضع ساعات، عندما كان الإنذار الأخير قد وقع عليه فجأة كما وقع علينا جميعاً. فلقد أفشي اليوم سراً ظلت الإدارة تحفظه بغيرة شديدة: كان المسكين قد كذب على رئيسه في العمل وهو نفسه طائر نادر من طيور المدرسة القديمة، وكانا كلاهما لا يحفظان من الأبجدية الجديدة إلا نصفها أو أقل، إذ اعترف لي بذلك بنفسه يوم ضبطته متلبساً بجرم التوسل المشهود: كان يتضرع إلى تلميذ مبهور لكي يهجي له حروف عنوان رسالة لأن العناوين وقتذاك كانت قد تغيرت أسماؤها ولغتها ونمطها بين عشية وضحاها. إن الأمر لم يكن هيناً عليه إطلاقاً، لذا كان يصاب أحياناً بالرعب فيتخيل نفسه في خارج البلد، وقد هوى من علياء المجد الذي كان يتربع عليه بقدرة جن مارد، وهو لم يكن يعتقد أنه مطارد بسبب جرم القدح في الذات الملكية إذ كان يعمد إلى التخلص من رسائلنا كيفما استطاع إلى ذلك سبيلاً، مع التظاهر طبعاً بالتحكم في زمام الأمور. لقد شرح لي مأساته ذات يوم من أيام الرعب الرهيب لما سقيته إبريقاً كاملاً من القهوة ليعدل بها دماغه وترتفع معنوياته. أرجو أن يفلح

الرجل المهذار في الخروج سالماً من مأزقه، لأنني لا أستطيع حرمان المجانين من عطفي وتعاطفي.

لـم يبق بوسعي إلا تلك المشاوير لأقدمها إلى شريفة لتنشق الهواء الطلق أو تنشيط الدورة الدموية في أرجلنا.

وفي المرة الثالثة التي عرضتُ عليها الخروج تأففت وهزت كتفيها وعادت للانغماس في تزيين قدميها الصغيرتين. كنت قد دعوتها لمرافقتي إلى دار البلدية لاستخراج وثيقة من الوثائق التي طلبت مني إدارتي استظهارها بسرعة، ولا أعرف دواعي ذلك بالضبط فأغاظني موقفها وتكدر حالي، ومع ذلك شكرتها عند عودتي، فلقد خرجت منهكة ومذهولة من مغامرة غريبة لم أرَ مثلها حتى في أضغاث الأحلام.

إنَّ الوحدة شر لا يطاق لمن لم يتسلح لها بالعدة اللازمة، أما أنا فتعلمت أن آخذ منها الجانب الأحسن، إذ كنت أحسنُ شغل أوقاتي باللاشيء، بالصمت وبالأحلام وبالتيه في ربوع البعد الرابع وبمناجاة الذات في طيش، وبنوبات الأعصاب الفلكلورية، وبتدبير شؤون البيت بدقة متناهية. لقد كان لي رصيد من الأصول ومن الخصوم أقوم بمراجعته عندما أشعر بالرغبة في ذلك، فكان لي عمل أزاوله

وكانت لي كتبي وأسطواناتي الموسيقية وجهاز تلفازي ونظام البث على الأقمار الصناعية TPS المقرصن، وكذلك نطاقي الضيق في ظل الفوضى العارمة التي تسود العاصمة، بالإضافة إلى بيتي الذي لم أنته من سبر أغواره وأسراره. وكانت لي نافذة على الزمن، أعرف كيف أخوض عبابها وولوج أغوارها والرسوّ بأمان على شواطئ برّها غير الآمنة.

أما شريفة فلم تكن لها حيلة في أي شيء، الوحدة بالنسبة لها فراغ، وقلق، وتشويه، وإهمال مبهم يتعذر تفسيره.

ماذا عساني فاعلة؟

أنْ أدلل هذه البنت فلن أنتزع منها ولو مجرد شكر، أن أكرس لها وقتي فلن يحرك فيها قيد أنملة من المشاعر، أن أهمل عاداتي وانضباطي وأضبط حالي على وقع نزوات الطفلة المدللة التي تنام بداخلها فلن يعدو أن يكون أمراً واحداً في نظرها. يا لها من أنانية!

ما العمل؟ أحدثها ما شاء لي من حديث، عن الأيام التي أقضيها في مستشفى بارني، وأنمق الكلام بالثرثرة المشوقة التي تبهر النسوة الماكثات في البيوت. أشاهد المسلسلات المصرية بعينيها حتى لا أستشيط

غضباً وأخرج عن طوري. صرت ألفت انتباهاً أكبر لحاجاتها، أتركها تقاطعني وتغير موضوع الحديث، وهو أشد ما أكره، وأصغي إليها بأذنيّ دون صرف نظري عنها. صرت أخضع لحالات ندمها وتوبتها التي تسحق فيّ كبريائي بمجرد أن تغتاظ أو تستاء. ولكنها مع ذلك لا ترى أي شيء، عمياء، فأنا بالنسبة إليها عبارة عن خيال يسبح على الجدران، شيء ما عادي للغاية لكي يتوقف عنده النظر، عبارة عن أخت قبيحة نوعاً ما، عمة أو خالة خرفة، أمّ مزعجة إلى حد ما. لست أدري، ربما أنا عبارة عن لا شيء بالنسبة لها، مجرد مؤجّرة منكدة أو جارة حشرية. لقد كانت لها طرق غريبة في الإشاحة عني وهي قائلة "خليني!" إنه طرق كان يمكن أن تصيب آلة صدئة بالجنون.

كانت عندما تشرع في خوض حديث ما أشعر بالسعادة وأنا أجاريها إلى حد قطع نسق الحديث لأن تركيز الانتباه يشعر المرأة بالاضطراب، وعندها تغتاظ وتتعصب، فأحاول ترقيع ما يصلح ترقيعه، وتكون الخاتمة حتماً وبالاً علينا. ولنضرب في ذلك مثلاً:

"السماء تمطر، قالتها عرضاً.

– أتعتقدين ذلك؟

– ألا ترين؟ قالتها بعصبية.

– كنتُ أتساءل إن كنتِ قد لاحظتِ ذلك بنفسك.

- لستُ عمياء! قالتها وهي تصرخ.
- أحياناً، لا ننتبه جيداً. نسمع أشياء دون سماعها.
- لستُ صمّاء!
- أقول هذا الكلام هكذا، عرضاً.'

في تلك اللحظة بالذات ترمي كل ما لديها من أغراض وتغادر الحجرة.
هل تدرك حقاً أني أحبها فعلاً؟

كيف يمكن أن يعامل الراشد طفلاً؟ طُرح التساؤل عرضاً وما فتئ يكبر ويكبر كلما كنت ألمّ وصفات الطبخ التي جمعتها من هنا وهناك. لقد ترك لي والدي ووالدتي سلة كاملة منها وظللت أجمعها أيضاً وأنا أكبر. وطالما ظل التطور على ما هو عليه، والعالم الإسلامي على ما نراه عليه، حاولتُ أن أفهم لماذا كانت البنات تتعرضن إلى العذاب الشديد بيد أن البنين كانوا يحظون بالتقديس، وهل لي أن أرى في ذلك إرادة الله أم فعل الشيطان. وتوصلتُ بسرعة إلى الخلاصة البسيطة للغاية وهي أن مجتمعنا ليست له آذان لسماع صوت البنات.

أما أنا، فكيف يجب أن أعامل طفلاً؟ وبنتاً فوق كل ذلك!

نشعر بالارتياح مع أطفال الآخرين، فإما أن نتجاهلهم أو نصفعهم أو نضحك في وجوههم ولسان حالنا يقول: "واصل على هذا المنوال، ستكون مثل أبيك الأخرق أو كأمك الحمقاء." وإما نرى فيهم ملائكة خفاف الظل وندعهم يبالغون في كل شيء إلى أن يجاوزوا الحد. إن هؤلاء الأطفال ليس علينا أن نطعمهم أو نكسوهم أو نعلمهم أبجديات الحياة. يمكن أن نحبهم دون جهد أو نصفعهم دون حقد أو نتناساهم دون انزعاج.

غير أن المشكلة هي أن شريفة ليست طفلة ولا هي امرأة، هي بين بين، لا أعرف بالضبط، يمكن أن تكون بنتاً هيفاء لا غير، دون محاولة فهم ما وراء كل ذلك. إن الطبيعة واضحة دوماً في مسارها، تعبر بنا من حال إلى حال، تبقي علينا في ما يشبه غرفة تخفيف الضغط حتى يمكننا التخلص من أحلامنا الأولى وبناء أحلام جديدة. وأحياناً تتعطل آلة لف دورة الزمن، نتردد بعض الوقت ريثما تمر الأزمة الطارئة، ولكن مع ذلك ألاحظ بصورة خاصة أن هناك بعض المتنكسين يتشبثون بأفكارهم البالية كما تتشبث حبة البلوط النخرة بالشجرة، وهناك آخرون ملهمون يرون الظهر ساطعاً على أبوابهم حتى في منتصف الليالي الحالكات.

أدرك فيما يخصني بأني لم أتجرع إطلاقاً طعم الحلاوة عندما غادرت طفولتي ولا أحب أبداً ما أراه يرتسم في الأفق القادم. فالمستقبل يبدو لي صورة طبق الأصل من التاريخ القديم، أما براءة الطفولة التي مازلت أجرها معي كهبة من السماء فلقد صارت عوقاً مرهقاً في الأدغال التي أنا فيها. وخلاصة لكل ما أنا فيه صار السؤال يكمن في معرفة ما إذا كان موت المرء قبل حلول أجله أهون من العيش لتأبيد حياة سلفه. إنني أفكر في ذلك المستكشف، وقد لا توجد بالضرورة صلة مباشرة من الدرجة الأولى، عندما يقع وجهاً لوجه أمام لافتة إشارة كتب عليها بإسهاب: على اليمين ستؤكل نيئاً، على اليسار ستشوى حتى تستوي، على طول تنتظرك حلة موضبة بالخضر. أما إذا رجعت القهقرى فستموت جوعاً.

كفى ألغازاً، إنّ لي مشكلة عملية يجب حلها! ينبغي لي أن أحظى بحب شريفة، يجب عليّ أن أجعلها تفهم بأني أحبها، كما ابنتي، بكل قواي وبكل ضعفي.

أين السبيل؟
من باب إلى باب

الصمت أصم
والريح لا تنطق بما يسمع
أما الناس فتمضي هباء
وأما الكابوس فيسدل ظلاله
وأنا أشعر بألم في القلب.
أأقول للجدران أهواك
وأسترق السمع
ذلك يأخذ مني العقل.
أين السبيل؟
مَنْ مِنَ المجهول
يصوغ من بلد الأصل
عشقي ومحياي
ومماتي؟

الآن أصبحتُ أخشى الرجوع إلى البيت. غريب هذا الأمر، بالأمس فقط كنت أهرول إليه حتى قبل أن أغادر المستشفى. وصادف أن مزقتُ مئزري بسبب التسرع. فالبيت كان ملاذي الآمن وقصتي الشخصية وحياتي. هناك سؤال واحد كان يصاحبني ويوشوش عليَّ خطاي، صار يرهقني. أعرف أن الجواب أجده عندما أصل البيت، شريفة الآن في البيت، أمام التلفزيون، تسبح بآلة الريموت كنترول أو تحصي عدد أصابع رجليها، أو تكون قد غادرت دون ترك كلمة

لأنها لا تعرف كتابة هذه الكلمة، ولا حتى أن تفكر في ذلك طالما الكتابة غائبة عن طبيعتها، ولكني أتراجع عن تفكيري، وأتساءل، أتصور حدوث الأسوأ، ثم سرعان ما أتخيل الأحسن، وأتشبث به دون أن يبدو لي ذلك على أنه نهاية التوتر والقلق. كنت أخفف الخطى تارة وأسرع تارة أخرى، وهنا وهناك، في الأزقة الملتوية التي تتشابك في أحشاء حيّنا، كنت أستمع إلى النسوة المسكينات اللائي كن يترقبنني على عتبات بيوتهن لكي يتسنى لهن أخذ شيء من وقتي لأقص عليهن ما وصل إليه وضع قضيتهن. كن يصغين إليّ وهنّ يضربن صدورهن أو يندبن خدودهن ويصدرن صوتاً فيه الآه وفيه الأوه دون إقناع. إنَّ تلك الحركات تزعجني أحياناً، ولما كنت أرى فيها ركوناً واستكانة، وفيها جبناً رجولياً خالصاً كنت أزجرهن إلى درجة أخاف بعدها على حياتهن، وكن يدمين لي قلبي أحياناً أخرى فأروي لهن ما يجعلهن يغنّين ويرقصن طول الليل. يا إلهي، إن الحياة التي يحيينها لا تمسك إلا بخيط رفيع، بكلمة، بوميض، بقانون! وكم هي سخيفة الحياة التي أحياها.

إن شريفة ضجرة. لم أعد أراها ذلقة اللسان كما كانت، صارت أقل سطحية، أصبحت متأملة، سارحة وجادة؛ حتى هي لم تعد تصدق ما هي فيه. لقد

صارت كما يصير العصفور في القفص الذي فقد شدوه، ولم يعد يتنفض في حمّامه أو يطير فرحاً، ذلك الفرح الذي ظلت له منه شبه ذكرى بعيدة وزائلة لكي تكون مدعاة على بعث البهجة. وصار في عينيه اللتين تشبهان عيني الدمية شيء من الشرود، هل هو بصدد مراقبة القضبان أو ما وراءها ، وينظر إلى أبعد من ذلك، هناك ما يشع في السماء وما يهفهف في الريح وما يغني في ثنايا الشجر؟ وتحضرني قصة ذلك الضرير المسكين الذي استرد البصر في يوم من الأيام برهة من الزمن، بفعل معجزة خارقة للعادة، ولم يتسنّ له حينها إلا أن يرى فأراً جميلاً ورائعاً يعبر الجدار مسرعاً. وصار منذ ذلك اليوم يسأل في أي موضوع يدور حوله الحديث، بذهول وحيرة: "هل يشبه الفأر؟"

لقد أصبح الجديد قديماً، وكذلك صارت أحاديثنا وألعابنا وتسكعنا في منعرجات الدار بحثاً عن شبح ظل منسياً في ثناياها يثير فيها الدهشة، وفغر فيها تعجباً، وفتح عينيها حيرة. وراودتني فكرة أن أقصص عليها قصة عنزة ميسيو سيغان التي التهمها الذئب اللعين، ولكني خشيت أن أوقظ في داخلها طبيعتها البدوية. لقد بقي لي أن أفتح في وجهها الباب فلعلها تقاوم نداء المغادرة والغوص في المجهول على الأقل لوقت يكفي لكي تقول لي كلمة وداع. مشكلتي أنَّ قلبي تعلق بها،

ولم أعد قادرة على تصور الوحدة إلا بصحبتها. يا إلهي، إلى أي مدى نحن أسياد حياتنا بالمعنى الحقيقي؟

في الأفق تغيّر، أحس به وأستشعره. ماذا فعلتُ؟ وماذا حصل لها؟

الحمل، طبعاً! يا له من تحوّل! الجسم الذي يمتلئ وينتفخ ويوهن القدمين، وهبوات الحرارة، والعصارات التي تتكتل والمزاج الذي يتعكر، وحالات الوحم التي تسيطر على كل شيء وتعتمل في الدواخل. لقد رأيت من حالاتها العجائب في مستشفى بارني، بعضهن يلتهمن أصابعهن، ويقرضن عظامهن إلى أن يبلغن لب المخ فيها، وبعضهن ينتفن شعرهن، ومنهن من يحملقن في السقف كالقديسات، فلا شيء يشرد بذهنهن، لا بلبلة القابلات ولا زقزقة الصبية التي خرجت إلى النور ولا صمت الملائكة، ومنهن من يضربن الممرضين والممرضات، وينتفضن في وجه البعل وإخوته. وفيهن الأميرات، الأنيقات والمعفى عليهن، اللاتي أتين إلينا بدافع الطيبة أو عرضاً، فنحيط بهن للتمعن والعناية والإطراء ولكن لا شيء يوقف هذيانهن، فهن لم يصبحن من أهل هذا العالم، فيشِحْن عنا بحركة من يدهن وكأننا مجرد ميكروبات. إنهن شرسات، وحمل الوريث ووليّ العهد يجعلهن في حالة

غير طبيعية! وهناك الدجاج المبياض، الجوقة وما فيها، اللحيمات البدينات، المريّشات والمنتفخات كلحاف الريش، اللاتي لا يتعبن من الرواح والغدوّ في الأروقة وهن يثرثرن، إن الحياة لا تزعجهن إطلاقاً، بل هن يعشقن الفوضى العارمة وصياح الديكة، مستعدات دائماً على الانقضاض، وبمجرد أن يضعن ما كنّ يحملن في بطونهن حتى يهرعن إلى تصريف شؤون البيت وهن ينقنقن. إن لكل امرأة قصتها، ولا توجد من بينها قصة عادية تماماً. وهناك الباقي، وشريفة لها ما يكفيها، الشباب والأمية والآمال الزائفة، والأحلام الكاذبة، وما أدراني ما وراء الأكمة، والنزوات، وروح الثورة، ورواسب الوراثة. إنها بنت مزاجية، ملتهبة وعدوانية، ثم تتحول بسرعة إلى بنت عصية على الفهم ومكفهرة. كما إن للعشق والجنس وما بينهما وللارتباك أيضاً تأثيراً، فكل ذلك يغشى على الفكر ويهدّ كيان المرأة ويشوهه. إنها شابة يافعة، متوحشة، وعندها نداء الغريزة أقوى من أن تثبطه أي قوة في العالم. أما أنا فلقد ولى الزمن الذي أتممتُ فيه حدادي على مثل هذه الهموم، ولكن كان لي زمن كنت أتخبط في الأرض كالمدمنة التي لم تجد جرعتها.

ماذا يمكن أن أفعل؟

في الواقع، أصبحتُ لا أخرج معها إلا نادراً. بل

لم نعد نخرج معا أبداً، في الحقيقة. الخروج إلى أين؟ فمدينة الجزائر لم تعد محلاً للنزهة، نتعب فيها كثيراً، وكثيراً ما يلاحقنا الرجال ويشيرون إلينا برؤوس الأصابع ويعتدون علينا. أما القردة الكبار فيخوضون في الجهر بالأمثال التي حفظوها عن ظهر قلب، لكن العجائز الشمط فإنهن يشرعن في الهمز واللمز عند مرورنا مرور الكريمات، بينما رجال الشرطة يصفرون لنا وهم يلعبون بالعصي في أيديهم بطريقة داعرة. ومع ذلك فإن ألعن شيء يأتي من الأطفال، فهم يتلفظون بكلام فاحش، ويقومون بحركات، ويلتصقون بنا، ويحرضون المارة. أي تربية هذه التي يتلقنونها، فبمجرد خروجهم من حاضنات الولادة يبدأون حربهم ضد جنس النساء! وكلما طالت هذه الحكاية كلما ذكرني هؤلاء الوحوش بفيلم غرمليز لمخرجيْه دانتي وشبيلبرغ. يا لها من قصة! هي قصة شخص، نصفه مجنون والنصف الثاني فيه مخترع له باع طويل في الكوارث، ورغم ذلك فهو لطيف جداً، أكتشف ذات مرة شيئاً غريباً في خبايا كنوز الصين الأزلية، في قلب حيّ الصينيين في أمريكا، لدى أحد باعة العاديات، وكان هذا الشيء الغريب عبارة عن دمية من الوبر، له عينان تشبهان عيون قرد الليموريات وأذنان تشبهان أذني قرد الباندا، وكان هذا الشيء الغريب لطيفاً إلى درجة أن كل من يراه تمنى أن لا يكون في قاعة جلوسه إلا

أنواع كثيرة منه فحسب. فلقد رغب في شرائه على سبيل إهدائه لابنه في عيد ميلاده، ولم ير شيئاً آخر يمكن أن يكون أحسن منه؛ فرفض القيّم على متجر العاديات طلبه. وألح المخترع عليه بورقة عملة أخرى، فقبل القيم على البيع على مضض، وحذّر المخترع قائلاً: "إني أحذرك، وقد أعذر من أنذر، وعليك كامل المسؤولية والوزر، إن هذا الشيء هو عبارة عن موغواي! إياك أن تعرضه على ضوء الشمس، فهو يقتله. ولا تطعمه بعد منتصف الليل، وإياكم أن ترشوه بالماء. كانت تلك الوصايا الثلاث لمن يرغب في العيش مع الموغواي تحت سقف بيته. وأومأ المستكشف بالموافقة وقفل راجعاً إلى أمريكا، التي لا تبعد إلا بثلاث مجموعات من البنايات. ومضى كل شيء كما اتفق عليه، حيث كان الصبي في غاية السعادة، وكانت الأم على الحال نفسه فليس لها أن تطعم القادم أو تغسله. ولكن ذات مساء، قام الصبي بإطعام الموغواي بعد منتصف الليل وصبّ على رأسه كوب ماء وكل ذلك أمام النور الساطع. ولا حاجة إلى رواية البقية: فلقد تحول الموغواي الوديع إلى كائن شرير، حيث أصبح غريملين، وبدأ يتكاثر بسرعة جنونية إلى ما لا نهاية. ومع نهاية الفيلم كانت أمريكا القاهرة التي لا تقهر جاثية على ركبتيها وقد خربتها تلك الكائنات الصيّاحة والضحّاكة والنهّابة التي لم تتوقف

عن الأكل بنهم والتكاثر استعداداً لغزو بقية أرجاء العالم لتقضي فيه على الأخضر واليابس. إنني أسرد وقائع هذه القصة لأبيّن مدى شعوري بالحصار. فلا يمكننا أن نردّ على كل الناس فرداً فرداً، لذا نطأطئ رؤوسنا، ونغيّر الرصيف الذي نمشي عليه، ونضع ضمادة على الجرح. عادة هؤلاء الرجال الطيبين والمؤمنين، الذين لهم عائلة يعولونها، من البسطاء الذين لا وسيلة لهم ولا حيلة، يرق قلبهم دون إحداث الضجيج ويعرفون من هو جدير بالفعل حقاً لو لم تكن الحياة بهذا القصر في هذه الديار. إنهم يحقدون علينا، حتى بؤسنا يزعجهم ولا يركزون إلا على بؤسهم. إن البلد في حاجة لا ريب إلى كل شيء ولكن ليس إلى الوعاظ الذين يجهلون حتى أنهم يجهلون، وإلى المحرضين الذين يتعبون العالم، وإلى الجبناء المتأهبين للانكفاء والانزواء. إن منظري كامرأة هادئة ومظهر شريفة الجهنمي الفتان يخدش قداستهم المزعومة والطاغية. إننا نستشعر نُذُر الخطر، الكلبة الحائلة التي لا هم لها إلا السفاد، والمرتدة الكاملة المكتملة، لأنَّ وقاحتنا تعدّت كل الحدود. ويقولون باحتقار: البنت نسخة من أمها، وفي نظراتهم حَوَلُ الغيظ وعلى شفاههم الاستخفاف. ففي يوم من الأيام سأنفجر في وجوههم وألقنهم رأيي في الكمال المطلق. إنهم يعتقدون أنهم يؤمنون بالله وذلك يسوغ لهم كل شيء،

السب والنهب والتفجير، والأدهى من ذلك أنهم يعظون الناس من طلوع الشمس إلى غروبها، ومن يوم الاثنين إلى يوم الجمعة. ما ذنبي إن كانت شريفة بهذا الجمال الشيطاني وأنا في هيئة العذراء؟ الطرق صارت كئيبة، وسخة، تخنقها الجماهير الهائجة، وما عدا التملي بالنظر في واجهات المحلات البئيسة والتخبط في المتاعب بسبب التجار الذين انعدم فيهم الضمير والوازع، ما العمل؟ صحيح أنني أنهر هذه البنت المسكينة أكثر مما تحتمل أن تسمع. إنها متأففة بطبعها وأنا سرعان ما أصبح غضوبة شكسة؛ إن لي جسد المتعضي، وصار البلد يخنقني، والقلق يسحقني، صرت مشتاقة إلى سفيان ومنهكة من المستشفى. إن الحياة العائلية مع ما تقتضيه من تنازلات وملاطفات ليس من اختصاصها، وأما شغل البيت فحدث ولا حرج، إنها تكرهه.

آه، لو كانت تعرف القراءة! مكتبتي تزخر بالكنوز، فلقد ترك لنا الفيكونت وطبيب المساكين من الكتب ما يكفي إلى يوم قيام الساعة. وحتى الآخرون، هم أيضاً تركوا لنا ما تركوا، سلالاً ممتلئة، ولكنها عبارة عن كتابات لا قيمة لها ولا أحتفظ بها إلا بدافع الشفقة. ولقد علّمنا الوالد رحمه الله حب الورق، زيادة على احترام القديم، ولا أستطيع أن أتحرر من هذا. كما

أنني لا أحاول أن أتحرر من ذلك إطلاقاً. ومن جهتي أضفتُ ما وسعتني إضافته، بعض النفائس وأشياء لا يمكن تجرعها تباع بالكيلو غزتها اليرقات وامتلأت بغائط الذباب؛ لقد كان يجب عليّ القيام بكل ذلك للتغلب على آلامي والتمكن من اجتياز أهوال الفراغ. وأعتقد أني التهمت من الكتب أكثر ما استطاع القرد أن يلتهم من الفول السوداني في حياته. لقد طفح البيت بها امتلأً وما زلتُ مستعدة على جلب المزيد لو شاءت. إنها لا تدري حقاً ما هي بصدد فقده، فلكل رجل في الأرض كتاب قد يقول له كل شيء كما لو كان وحياً رائعاً، ولا يمكن أن يقرأ الإنسان هذا الكتاب، كتابه، ويظل هو هو، نفس الإنسان. أما المأساة مع الجهلة فهي أنه لا بد أن نبيّن لهم كل شيء، وكلما حدثناهم كلما ازدادوا انغلاقاً، فرفض التعلّم يجعلهم يشعرون بالأمان.

قررتُ إعلان القيام بحملة التنظيف الكبرى. أي فكرة يمكن استحضارها للانشغال؟ هزّت كتفيها غير مكترثة. راودتني فكرة إعلان الانسحاب ولكن ما تقرر لا بد أن ينفذ، والشباب يكرهون من يتراجع عن أقواله. لبسنا بزة المعركة، وشمرنا على سراويلنا، وتعممنا بعصابة البندانا وشرعنا في صب الماء بالسطل. وتلك هي الطريقة الجزائرية في التنظيف العام؛ لا بد

أن يسيل الماء منهمراً حتى تحت السجاد، مع هرج ومرج لا يطاق وإحداث فوضى لا أول لها ولا آخر. إنها حرب تشنُّ على التنظيم العلمي للعمل، فهي انقلاب حقيقي على الوضع، وتلك هي تقاليد الحريم.

وبحلول الساعة الثامنة مساء لم نكن قد حققنا أي تقدم، وكانت الفوضى ضاربة أطنابها في كل مكان. فضحكنا وشوّشنا وتسابقنا وتراهنّا وركضنا، ومرّرنا المماسح والمناشف والمنافض في كل مكان، ولكن بلا فرح وبلا قناعة. كنت أقول وأنا أبذل جهداً مضنياً إنّ القيام بدور الخادمة للنجاة من الغرق هو أسوأ حل يمكن أن تفكر فيه امرأة عاشقة. وكنت أتصور كيف كانت هي الأخرى مذعورة من المسافة السحيقة التي تحول بين أحلامها والواقع الذي أعرضه عليها. طيب، ولكن، ماذا يمكن أن نقدم عندما لا تكون في اليد حيلة؟ ها هي الكآبة تطبق على أفكارنا وتغوص في الأعماق، وهكذا تنتقل العدوى من إحدانا إلى الأخرى ويتعفن الجو. إنَّ في ضحكاتنا الكثير من الصياح، والكثير من الكلام المسكوت عنه في إفصاحنا.

أحياناً يسبق الفشل الفعل، ونحن على هذه الحال. وبما أننا كنّا ننتظر قيام الساعة فلا يمكن أن تسير الأمور بصورة عادية.

كانت الأمسية رائعة ولكن مع طعم المرارة. بدأتْ كما ينبغي، وأسكرتنا رائحة مواد التنظيف الممتزجة بعطر الشاي وحلوى راحة الحلقوم، فرحنا نتهزهز في مشاياتنا، ويبدو أن الانقلاب الكبير أثقل كاهلنا كثيراً. فتصرّفتُ كما ينبغي في الوقت المناسب، ووضعتُ أغنية مسجلة على قرص مضغوط لرحمانينوف في أوج مجده، لكي ينفتح قلبانا وتستيقظ أحاسيسنا على كل جميل في الدنيا. وسرى في ثنايا البيت شيء رائع وفسيح وبارع، حيث كانت تلك هي السعادة والنشوة والأحلام الوردية والأسرار المنظمة بروعة وإحكام. ففي هذا البيت المنكفئ على أسراره يصبح لرجع صدى اللحن الشجي سحر لا يوصف. ولما فتحتُ عينيّ رأيتُ وجه شريفة المكفهر، إذ كانت تحس بدوار وتكاد تتقيأ كل ما في بطنها على السجاد. لم تكن الموسيقى الراقية شأنها، وهي لا تدري أن هذا الشيء كان موجوداً حتى قبل أن تأتي هي إلى الوجود. كذلك وضعتُ أغاني أزنافور في مجده وجلاله، ثم موسيقى فادو دي براديس الكفيلة وحدها بدك جبل من الغرانيت، ثم مالك المغني الفرنسي-المغربي ثم إيدير المغني الفرنسي-الجزائري، ولما رأيتُ أن كل ذلك بعيد كل البعد عن أذنيها وضعت على جهاز الحاكي العتيق أسطوانة قديمة بالية، كانت قد سجلت على ما يبدو في عام الشر كما

يقال، أو عام المجاعة الكبرى في عام 1929 أو 1936. كان الغلاف يحمل صورة عجوز موشمة تجلس متربعة على مدخل خيمتها قبالة الصحراء، وفي السماء الساطع بالنور وبالحر كتب عنوان على طريقة أفلام الويسترن السباغيتي بشكل دائري وذائب: المومس ونافخ الناي. وكانت الأغنية تشنّف الأسماع بغناء رتيب من التراث القديم يفر لهوله قطيع فيلة كامل إلى بر مفازته الأصلية. كانت العجوز شيخة مشهورة في الغناء في فترة ما قبل الحرب ولها صوت حاد نوّاح بمآسي بنت من بنات الأعيان تربت على أيدي نخاسين سلّموها مقابل ثلاثين دورو إلى قوادة شرسة وضعتها مباشرة في سرير الماخور. وهنا تبدأ المأساة المؤثرة والمحزنة، حيث تم تدريب العذراء البهية الشهية على أقدم مهنة في العالم بسرعة إلى أن انقطع نفسها وغاصت في الإحباط والقنوط. ثم جاء موسم الحصاد وبدأ وقت العربدة في أوساط الفلاحين، وأقيمت الفانتازيا والمشوي، والإفراط في السكر والجماع، ودبر السحر وارتكبت الجرائم باسم الشرف، وهلمّ جرا. ففصل الصيف عادة ما يكون حاراً جداً تحت الشمس حيث يهرع الرجال من الأرياف البعيدة لركوب البنت التي جيء بها إلى الماخور ذات الجمال الذي ذاع وشاع في كل الربوع، ووصل سحر عينيها اللتين تشبهان عيون المها حتى إلى أسماع الصم والعمي في

الفيافي. كذلك جاء مدّاح جريء كانت هوايته ارتياد المواخير بين كل حفل وحفل ووقع في حبها منذ اللحظة التي وطئ فيها سريرها أو تم الوطء في سريرها. وفي هذه اللحظة من القصة تتكرر لازمة الأغنية: "ادخل يا حبيبي ادخل، الفوق يوجد قلبي، إنه ملك من وصل!". وتكرر الشيخة هذه اللازمة ثلاثين مرة وهي تنوح وتتأوه من الأعماق. ولو كانت تتأوه وهي تعاني غمرات الموت لما كانت مقنعة بالصورة التي هي عليها في الأغنية. واختطف المداح "القوّال" الجميلة وحملها على صهوة جواد عربي أصيل سرقه من شيخ القبيلة، وهكذا دخل الطائران العاشقان في دوامة المغامرات المضنية وفي أعقابهم تسير جحافل قطّاع الطرق الذين استأجرتهم القوادة الشنيعة وحرس القايد الدنيء. لقد كان من الأحرى أن تتوقف القصة عند هذا الحد، على نغمة أمل واعد، إذ أن الهروب معناه الخلاص أحياناً، ولكن الشاعر قرر أن يستمر في اتباع طريق "من السيء إلى الأسوأ" حتى النهاية: ألقي القبض على العاشقين، أما النایاتي فذُبح ومثّل به على الساحة العمومية وأما العاشقة الصغيرة فكبلت بالأغلال ورميت في حفرة لتنهي فيها أيامها في شدة وحسرة، وهكذا فإن الانعتاق كان مشكلة منذ الأزل. اكتشفتُ هذه القصيدة الرعوية في أغراض سفيان من ضمن المجموعات الغريبة التي كان

مولعاً بجمعها. إنّ شباب اليوم ليسوا عصريين إلا على السطح، وأبسط شيء يمكن أن يعود بهم إلى غياهب الماضي التليد. وهنا بالضبط، فهمتُ أن الأغنية لم تكن إلا صيغة هجينة من قصيدة حيزية الشهيرة التي بكت لها جداتنا بحرقة. فمنذ انطلاق النوتة الأولى بدأت شريفة في الارتعاش، ولنقل في الرقص، وصار الأمر عبارة عن تموج رتيب كصيف لم يعد صالحاً للاستجمام ولا نرى له نهاية، وعبارة عن ارتجاج زلزالي لما قبل الميلاد، ويرتفع الصخب ومعه الجلبة وكأن الجنود المرتزقة عادوا من الحرب. وتفاعلتُ معها بما تيسر لي، تململتُ على المقعد بخلاعة وشبق، ثم بحرارة وشوق، وجرّبتُ حتى إطلاق زغرودة ذهبت هباء. وأسفتْ شريفة لجهلي، كنتُ قد أفسدتُ عليها رحلتها، ورمقتني بنظرة فيها الاستغراب كمن ينظر إلى السائح الاسكندنافي في جزر بابوازي وهو يقف في أثناء حفل السحرة ليسأل كبيرهم عن قدراته في مجال المخادعة. قالت لي باستهجان: "إنك لا تعرفين شيئاً". شعرتُ بالكدر، وعندها وضعت ألحاناً من عندنا، أغاني قبائلية؛ موسيقى الروك القادمة من الجبال، وبيّنتُ لها ما معنى تحريك العجيزة في منطقة عين الحمام. فإذا قاوم المرء تأثيره فمعنى ذلك أنه أصم وأبكم وأعمى ومحنط منذ ولادته. وبدأ النزال بين الريف العتيق والجبل الزاهي، وصارت أغنية هذه

المنطقة ترد على الأخرى، وبذلك تم حفظ شرف الجهة، وكانت النهاية تدعو إلى الرثاء، فهوينا مغشياً علينا من التعب قبل طلوع الشمس.

لستُ أدري أين نمتُ وبأيّ معجزة استيقظتُ في سريري. كنتُ أحسبني أعرف كل عفاريت البيت. إلا أن هذا العفريت كان حمال الجرحى في حياة أخرى، إذ أنه قام بمهمته وعاد مسرعاً إلى جبهات حروب أخرى. سأسميه مبروك. رأيتُ نفسي في مكان ما، لست أدري أين، في الحلم، في أرض بعيدة، في جزيرة فيها نخيل جوز الهند، بعدما غرقت بنا السفينة. كنت مع شريفة ولويزة وسفيان وياسين، وآخرين بذات القدر من الجمال والبراءة والعنفوان. لقد كان من بينهم أصدقاء حديثو العهد، وكان فيهم نافخ الناي وعشيقته العذراء، وكذلك بنات الحي وأخريات، ومعارف قديمة ضاعت وسط زحمة الحياة. كنا جميعاً عراة كالديدان أو فينا من يضع ورق كرم العنب، وكنا نرقص حول نار هائلة، بينما عمو حسين و235 (سائق الحافلة) يتصببان عرقاً وكلاهما يشغل كلتا يديه، حيث كان الأول يمسك منفاخاً ضخماً، وكان الثاني يمسك سطاماً طويلاً بطول ذراع التوصيل في محرك باخرة. وبعيداً عنا كان يوجد بركان ينفخ دخانه بهدوء في بوق التوبا، والأرض تزلزل بالقدر الذي يمكّن من رقص الرومبا. أما المغنون المبتهجون فإنهم يجلسون على شجر

الشورى وهم يعزفون على خيوط قيثارة المندولين وكأننا نحن سلاطين الكرنفال، أما في النار فكانت تشوى الناس ومخلوقات غريبة. لقد كنا ندفعها بأرجلنا لتعود إلى قلب اللهب عندما كانت تحاول الفرار من النار؛ فعرفت فيهم رئيسة الجمعية ومساعدتها، ومجموعتين أو ثلاثاً من قرود الشق أي التي كانت تضع على رأسها الخوذة، وأصحاب لحى بجلاليب، وسمك الشيق المجمدة من الحزب الواحد، بالإضافة إلى وزير لست أدري من أي وزارة، والقوادة اللعينة والقايد الدنيء، وغيرهم، من طيور الببغاوات الخرساء التي نراها تجول بعيونها في المنصات وفي الاحتفالات عندما يقوم القائد الأسمى لجميع القبائل بالاستعراض، أو يروي وقائع أيامه المخصصة كلها للتحيات مع المندوبين المفوضين فوق العادة القادمين ليقدموا له النماذج الأخيرة من كؤوس الشاي. وكانت توجد عربة تقوم بتموين اللهب بالوعاظ وبالمدافعين عن الحقيقة مكبلين ومكممين، حيث تفوح رائحة كريهة كنا نستنشقها ملء الرئتين إلى حد الشعور بالنشوة.

كان الحفل في غاية الروعة ولقد نمت في تلك الليلة نوم الملوك، ولكن كان في ذلك شعور مسبق بالخوف، لأنني كنت أنتظر أن تهوي السماء على رأسي أو تنشق الأرض من تحت قدمي.

مناجاة النفس في ضوء القمر

لما كانت صورة الأطفال تأتي تؤرق لياليّ
كانوا دوماً يأتون والصمت في عيونهم الكبيرة
على جباهٍ ليس فيها تذمر.
نظراتهم المفتوحة على طيش العالم الفاجر
وفوضى أعراسه وعيده الكافر
والاختلاج البارد في ركام المقابر
يتكشف عن روحهم السابحة فوق الدوامة
ووجوههم المشعة بالأنوار اللامعة
تنذر بدنوّ حكم الله القادر.

دائماً، في جوف لياليّ، تأتي تلك العيون
ذلك الصمت القاهر
والعناء الثقيل على الحمل
كلها تحكي عن الحياة
عن معجزاتها وغفرانها المتجدد إلى الأبد

عن نشوتها التي لا ترتوي وآمالها
رغم الداء والأعداء
عن الغلّ والشطط الذي فينا
عن اليأس والآلام التي تحتوينا
عن جرائمنا والخيانات
عن الدناءات والنذالات
وعن استحالة سموّ الإنسان.

لما أدركتُ أن الموت ليس عاقبة
بل عقوبة حرمان من الحياة
رحت أحلم
باحتواء الكون في نظراتي.

في الثقافة يوجد الخلاص. لا ينبغي لي أن أعيد إنتاج المنظومة التربوية في بيتي والإبقاء على البنت المسكينة تغمَه في الجهل وتتخبط في التبعية. فقد تراودني الرغبة مع طول الوقت في استغلالها بصورة لا تليق، أو يؤول بي الأمر، وهو أخشى ما أخشاه، إلى قتلها. يجب أن أعلّمها القراءة، وأفتح عينيها على الآفاق الكبرى الأربعة في الحياة وهي العلوم والتاريخ والفن والفلسفة؛ وها هو البرنامج.

يجب أن أعلّمها أنّ نقطة البداية تأتي دائماً في الصدارة. والأمر ليس سهلاً، فالجهال مغرورون وسريعو التأثر وشديدو الاحتراس، وشريفة مستخفّة فوق اللزوم. ومع ذلك، يجب أن تقيس جهلها إلى الحد الذي تصاب فيه بالذعر إن هي رغبت حقيقة في تدارك نقصها لأجل مصلحتها ومصلحة الآخرين. هذا هو ما يجب عليّ استثارته فيها.

بقيتُ أفكر طوال الأسبوع، سجلتُ ملاحظات،

وتوصلتُ في النهاية إلى خلاصة أن من يريد تعلم العوم عليه أن يلقي بنفسه في الماء. أقصد التعليم. والباقي تكون حركة الدينامية وحدها كفيلة به. وأحسن ما يمكن البدء به يكون في القيام بزيارة مدروسة إلى مدينة الجزائر. وزيادة على ذلك، فالجزائر ليست زاخرة بالمعالم، ولا ضير في ذلك، فروما في حد ذاتها لم تُبن في يوم وليلة! وغالباً ما يكون اللقاء بمعلم ما أو بلوحة أو بشيء غريب أو بمشهد خاطف أو تناغم في الإشارات مبعث اندلاع الرغبة في المعرفة. وتذكرتُ فيلم 2001 ملحمة الفضاء، وقصة ذلك القرد الذي يقوم في بداية الفيلم بطريقة عجيبة بإنجاز كل ما يمكن أن يقوم به الإنسان بالفك السفلي لفيل الماموث المنقرض، ومن ثم خَلَفُه الذي يكتشف بعد ستمائة مليون سنة الرحلات المكوكية بين المجرات. وفكرتُ في تفاحة نيوتن وكل ما يروى للتلاميذ لإثارة الفضول لديهم. وأنا نفسي حدث لي الشيء نفسه؛ فالكتب التي تركها الدكتور مونتالدو وعُدّته الغريبة والدقيقة هي ما أيقظ فيّ الرغبة في تعلم الطب وحبّ الترقيع، فلماذا لا تتصرف شريفة بالطريقة نفسها؟ لا شك أن شيئاً ما سيعلق بنظرها ويثير في وعيها الباطن عملية المعرفة المذهلة.

إن برنامج الخروج للنزهة يتطلب تحضيره أسبوعاً

كاملاً. سآخذ ذلك من عطلتي، وسأغري المدعو مراد بالمشروع، فنحن في حاجة إلى سيارته. ثم إن حضور رجل مثقف وقرف مثله لا بد أن يأتي بالملل اللازم لتكريس المسعى، والتعلم ليس متعة إلا لدى كبار الراسخين في العلم، ولن أطلب منها كل شيء من اليوم الأول في الدراسة؛ ففي التأني السلامة.

وهكذا جرت الأمور. ولكن لسوء حظي ولحسن طالع الغبية الصغيرة، حققتُ عكس ما كنتُ أنشده. وحدث الانطلاق، ولكن في المنحى المؤدي إلى الانغلاق. لقد كانت شريفة مستبسلة في مقاومة كل جهد ذهني بصورة كلية وأساسية. فهي لا يؤثر فيها سحر المعرفة إطلاقاً، ولم تثر فيها التوضيحات التي قدمتها والتعليقات التي كان المدعو مراد يسربّها أيّ رعشة أو انتفاضة في جسمها، وشعرتْ بسأم لم يسبق لها أن شعرتْ به. لقد حصل كل ذلك ونحن مازلنا بعد في اليوم الأول .

يا إلهي، ماذا فعلوا بها في المدرسة؟

اعتقدتُ أنّ من الأحسن البدء من حديقة التجارب الشهيرة. قد لا ندرك قيمتها الحقيقية ولكنها كانت شعار الجزائر في يوم من الأيام كما كانت ولا تزال غابة بولون بالنسبة إلى باريس وهايد بارك بالنسبة إلى لندن.

كانت الجزائر تفاخر الأمم بتلك الحيازة إلى درجة أنْ لا أحد صار يتردد عليها. فالشعوب مع كل ما هي عليه من تزمّت وسطحية لا ترغب في أن يقوم من يسوسها بالمبالغة فيما يثير السخرية. كما إن صور الحديقة التي يسدّ بها التلفزيون ثغرات النسيان هي صور من الأرشيف، والجميع على علم بذلك، والزوار الذين يظهرون في الصورة تبدو عليهم سمات عمال يعطّلون يوم الأحد وليسوا ممّن تكون عطلتهم نهار الجمعة، بينما يعود تاريخ الفاصل الموسيقي إلى عهد ديوان الإذاعة والتلفزيون الفرنسي، فرع الجزائر. فالرجال في الصورة يلبسون سراويل عريضة بعرض ساق الفيل ويضعون في أفواههم سيجارة على طريقة الممثل الأمريكي هنفري بوغارت، وأما النسوة بتنورات \القرينولين فهن يتأبطن حقائب اليد في جوف مرافقهن على الطريقة التي شاهدنها في السينما بالضبط. وكذلك الصبية الصغار المساكين فإنهم يضعون قبعة \البيريه بطريقة تكاد تحجب عنهم كل منظر. ولهذه الأسباب جعلتُ هذه الحديقة على رأس القائمة، إذ سنكون وحدنا لنمتع النظر في تحفة من العجائب القديمة.

كانت غلطة، كارثة؛ لقد اندثر ركن الجنة الخلاب كما اندثر الباقي. وليس هذا هو المكان الذي ستصاب

فيه شريفة بفيروس حب عالم النبات. ففي الماضي كان والدي يصطحبنا إليه، إلى أن صارت الزيارات عادة راسخة، وكانت كل العائلات العاصمية الخارجة آنذاك لتوّها من حرب التحرير تواظب على ترسيخ ذلك التقليد الكولونيالي الخالص في زيارة الحديقة أيام الأحد، حيث نرجع منها وعقولنا تغلي وتزدحم فيها الصور الخارقة للعادة، والعطور الشذية الأخاذة، والأحلام اللامتناهية؛ كنا مستعدات لمواجهة دروس التعبير القادمة برباطة جأش. أما المعلمة فكانت تقول بعدما تعلمتْ هي منا كل شيء عن الحديقة: "جيد جداً، لامية، أسلوب شاعري ومعبر، ولكن يمكنك تغيير الموضوع، فليس ممنوعاً. الكلام يعنيك أنتِ أيضاً، لويزة". في المرة الأولى صُعقنا لعظمة الموقع، فهو يوحي بانطباع الوفرة والندرة، والأصالة والغرابة، والنضارة غير الطبيعية إلى الحد الذي يفقد معه الصواب حيث كانت نظراتنا تتذبذب كشعاع الليزر غير المضبوط. يا للروعة! ما كل هذه الأسماء الملصقة بالأشجار وبالأدغال وبالأزهار، من ذا الذي يقوى على قراءتها وحفظها! وكنا نرجع إلى منحدر فالي وفي رؤوسنا دوار يكفي لأسبوع كامل. أما انبهارنا فكان يبلغ أوجه عندما نشرع في زيارة حديقة الحيوانات الرابضة في قلب الحديقة. آه، يا للبهجة! يا للاكتشاف الذي لا يتصوره عقل! يا لها من أصوات، نخير

وزمجرة ونهيم ومهانقة وصياح وحفيف، وخرير آت من بعيد وقريب في آن واحد، وذلك الشدو الوحشي والأنين المؤثر والأصداء اللامتناهية في الأرجاء إلى حد اللامعقول، تتداخل وتتصادم وتتناغم، ثم تتوقف فجأة بشكل ساحر في صمت مطبق استعداداً لاستكشاف البقية، على صعيد آخر! وما هذه البلبلة، والنظرات الثاقبة، والألوان الزاهية، والروائح العطرة التي تؤلف التناغم الوحشي للبرية وترويه لنا كما استعمرناه في البدء مع بداية الخليقة على الأرض! من جهتي، كنتُ أحس بالارتعاش والقشعريرة. كان كل ذلك البهاء يصرفنا تماماً عن عالم الكلاب والقطط وطيور الكناري وغيرها من الأنعام الأليفة التي دأبنا على الاستئناس بها. وسأظل أحتفظ في ذاكرتي ما حييتُ بأسد الأطلس الشامخ الذي كان نائماً في قفصه كالملك في قصره. وبسرعة كنا نغوص في القصص التوراتي الذي كانت تهواه والدتي، كنتُ أفكر في شمشون خانق الأسود دون العالمين، ودليلة الخطاءة التائبة التي كانت قبل ذلك مذنبة ولا كل المذنبات. وكان الأسد وهو يتثاءب أخال نفسي ولويزة واقفتين في فمه مربعتي الذراعين. ولن أنسى أننا تعاهدنا حينذاك على ألّا نفترق أبداً. يُذكر أنه كانت توجد لافتة كتب عليها:

هدية من سمو صاحب الجلالة الملك محمد الخامس، سلطان المغرب وأمير المؤمنين، إلى الأخ أحمد بن بلة بمناسبة انتخابه الباهر رئيساً للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية.

كان هذا الإهداء يثير غيظ والدي. وكان يقول وهو يخوض في السياسة: "إن الحمار حمار، حتى لو كان ابن عم ملك الغابة". إنَّ والدي كان يهوى الغموض، وكان يقول: "الدود في الفاكهة موجود" بصوت خافت وبلهجة الحكيم العارف لما تذكِّره أمي أن الحمار وقع منذ عدة سنين وأن من أوقعه سيجد من ينتقم منه. كنا صغاراً، وكانت أحاديث الكبار تثير فينا الملل، وفي تلك السن كان الناس عديمي الأهمية في نظرنا. لم نكن نعرف من السلطة إلا سلطة الوالدين، ومن نكران الجميل إلا جحود القذارة في الحي. مرةً قلتُ في نفسي إن لا أحد يزور الأمكنة تلك، غير أن جمهوراً غفيراً كان موجوداً في ممرات الحديقة وحتى في ما كانت في السابق مساحات لا يجوز اجتيازها، وفي بيوت استنبات المجلوب من النبات المحظور ولوجها، وكان فيها أناس تخطوا الحد الفاصل للخفية والتستر فأصبحنا نمر أمامهم دون أن نراهم؛ كان فيهم

المتقاعدون المذعورون الذين يسيرون زمراً مترنحة، وأطفال ومتسولون يهرولون بسرعة غير معهودة، ومجموعات من الباعة المتجولين الملحاحين والمقترحين بيع المأكولات الخفيفة والسجائر بالتفصيل والساعات الإلكترونية والكتب الإسلامية والبخور وغيرها من الراتنجات والصور الرائجة لابن لادن وبوتفليقة والزرقاوي وصدام وترميناتور أو زيدان وجون وين ومادونا ولارا كروفت وميكي ماوس وبلموندو وبروس لي وبن فليس وأم كلثوم، وأشياء أخرى لا علم لي بها؛ كان المكان سوقاً حقيقية، فكل شيء متوافر حسب كل الأذواق. أما الحيوانات فقد أصيبت إما بالبرص وإما نال منها الهرم، وحصل الشيء نفسه للأسيجة والعرائش التي راحت هياكلها تتساقط وتتفتت. أما الجفاف فقد كان بادياً للعيان، وكانت الجزائر قد دخلت في المرحلة اللامائية من دورتها المناخية، وصار الماء فيها نادراً والهواء موبوءاً. ولهذا السبب فإنَّ الحيوانات قد قضت نحبها الواحد تلو الآخر، وفيها من حفر حفرة عميقة بحثاً عن الرطوبة، وأما الكواسر واللواحم فتآكلت فيما بينها قبل أن تنقرض، وأصيب من بقي بدوار المواشي. وما زلتُ أذكر أن جريدة نشرت رسالة شخص حانق على إهمال السلطات تولى

بنفسه مهمة إرواء المخلوقات المسكينة التي كانت تحتضر. حيث كان يندد بها على أنها جريمة ضد الإنسانية، يا له من فكه مزّاح! لم أكن أقدِر شخصياً لأقول مثل هذا الكلام، فقد يكون ثمة خطر عدوى التواتر بين هذه الفكرة وفكرة أخرى غامضة. فهذا الشخص أخذ يمر كل صباح حاملاً صفيحة الماء متنقلاً من قفص إلى آخر ليسقي كل حيوان حسب حاجته. ولما أنهكه عناء المهمة استنجد بالشعب برمته عبر صفحات جريدته المفضلة. وإنني لست على علم إن كان أحد من الشعب مَنْ استجاب لندائه أم يكون المسكين قد تعرض للاعتقال والتعذيب بتهمة تلبّسه باضطرابات عقلية. إن لغياب الصيانة والعناية دوراً في المآل الذي آلت إليه الحديقة؛ إذ كانت تنبعث منها رائحة تعفّن تشمئز منها النفوس الحساسة، بينما أخذ الصدأ ينفّر نظر كل الناظرين. لقد قلتُ إن الحديقة أخذتْ رمز علامة الجزائر، والعالم الثالث الذي يتعثر في سعيه، والعمل الذي لم يكتمل والآيل إلى التلف، والأشياء السائرة إلى النسيان، والتضييق المتكرر والهوس المتواتر. وهكذا يتقلص الزمن على هذا المنوال ليصبح عبارة عن لا شيء، ويضيق الفضاء الرحب لتصير الحياة محض تنازل عن العيش. ولحسن

الحظ يأتي البؤس دائماً بترياقه المتمثل في الإيمان بالقضاء والقدر الذي يأتي بأسباب الاستسلام للموت في صمت بلا أسف ودون المطالبة بإحقاق الحق.

كيف أمكن لنا العيش في ظل هذا الكمّ القليل من العظمة المحيطة بنا، والقليل القليل من الوضوح؟ أتساءل حقيقة، كيف؟

وقررتُ الانسحاب لأن مكوثنا في هذا المكان هو هلاكنا لا محالة. ولمّا بلغنا عقد جسر الباب الهائل عند مخرج الحديقة نطقتْ شريفة بكلمة أزْدتني بها وأجهزتْ على ساعديّ: "ماذا جئنا نفعل هنا؟ قلتُ لها وأنا مرتبكة وغير مقتنعة: "كنّا نمرّ! انظري، أمامنا يوجد متحف العصر القديم والفنون الجميلة، سترين إنه مثقف... أقصد مسلّ". إنَّ منظر البناية من الخارج يبدو وكأنه ملجأ للبُرُص ولكن لا ينبغي الانخداع بالمظاهر فقد يكون ما بالداخل فاخراً وباذخاً.

وكان كذلك فعلاً. لا بد أن يراه المرء حتى يصدق، وهو ما رفضتْ شريفة القيام به وهي أمام المدخل. فهناك أربعون قرناً من الجمال والسحر الغامض المتساوقين في تناغم تحت السقوف الشاهقة التي شعرتُ وكأنها تقول لنا بازدراء: "ماذا أتى بكم؟"

شعرنا بنفوسنا صغيرة ودميمة وبليدة، كل ما شعرتُ به كان هواننا أمام الأفكار البالية التي تعشش فينا. وشعرتُ بالانقباض الذي أصاب شريفة. فلقد كان قد استحوذ عليها سحر المكان المهيب، وذلك مؤشر يدعو للبهجة لأنَّ البهو الهائل المبطن بالرخام والحجر المصقول على طريقة الملك لويس فيليب الخالصة كان كفيلاً بالتأثير في أناس مثلنا نحن الذين نسكن في بيوت كقرى النمل الرطبة والمعتمة. وفجأة لمحتُ في نظراتها السؤال الذي كان سيجهز على ركبتيّ ويجعلني أتخلى نهائياً على طريقتي البيداغوجية، عندما طرَحَته قائلة: "وهنا، ماذا جئنا نفعل؟"

وزال كل سحر.

وهِمْنا في الأسى، رؤوسنا منكسة. اجتزنا قروناً وعبرنا حضارات دون أن يثور في نفوسنا هاجس بسيط ليطرح علينا سؤالاً أساسياً: "ماذا تفعل هذه الأشياء في هذه الديار؟" كانت القاعات خالية تروي أوجاع الفراغ المستديم، وغياب الروح، والقهقرى. وكانت اللوحات الفنية والتماثيل والتحف والحجارة الأزلية والرسوم قد تحولت إلى أشياء رثة عفا عليها الزمن، رتبها كيفما شاء عمال منتدبون أعيتهم رتابة الروتين لأنَّ الجمال لا يكون جمالاً ما لم ندركه. ومررنا بجانب

أشياء لم نرها ووجدنا نفسينا نتيه في الخارج تحت لفح الشمس، بئيستين تعيستين وقد نال منا التعب والخيبة.

لقد كان كل ذلك في نظر شريفة عبارة عن عالم آخر، عالم مجهول ومزيف، تم تجميعه من الأشياء الرثة على مدى القرون وآلاف السنين الخوالي. لذا كانت تنظر إليها بعين المذهول كالبومة التي أيقظتها ضوضاء لا تطاق. كنتُ أتمنى لو أمكنها إدراك هذه الأشياء، فنحن لم نخرج من مصباح علاء الدين أو بفعل شعوذة المخابر بل خرجنا من هذه الأشياء العتيقة الرثة، ولكن أحياناً لا توجد الكلمات القادرة على اختراق حواجز الفكر؛ ولشريفة دخل في الموضوع بالدرجة الأولى لكي يمكنها المضي إلى الأمام، ولا يسعني أن أحل محلها لأفعل ذلك بدلاً منها، إذ يجب أن تتكلم فيها الكارما الخاصة بها.

إذن، علينا أن نغير البرنامج، فلنسلك الطرق حسب ما يقتضيه قانون المرور ولنتذبذب حسبما تقتضيه الأشياء الغامضة. أما متحف الباردو، والمساجد الكبرى، وجامع كتشاوة، وجامع اليهود، وكاتدرائية قلب يسوع، وكنيسة السيدة الإفريقية، والقلعة، وفيلّا الألفية، ومقبرة الأميرات، وقبر الرومية، والآثار

الرومانية في تيبازة، وغيرها وغيرها، فلنتركها إلى موعد آخر، ولكل حادث حديث.

والتهمنا شطيرة بيتزا في كوخ عفن كغيره، وتجرعنا شراب الليمون من فم القنينة ورجعنا إلى البيت في الباص بعد أن استرحنا من مراد في حانة تبدو عليها مظاهر الزهد ويكتنفها دخان كثيف تهيّأ له أنه رأى فيها أصدقاء قدامى من الندماء.

شعرتُ أن شريفة ناءت بنفسها عني. صارت تنظر إلي كما لو كنتُ غريبة عنها أو قريبة لها اكتشفتْ فيها بطريق الصدفة ميلاً من الميول المنحرفة.

إنَّ الثقافة هي الخلاص ولكنها أحسن وسيلة تفرق بين القلوب.

هل حصل ما كان مقدراً له أن يحصل؟ طرحتُ السؤال على نفسي قبل أن أفتح الباب. أهو شعور مسبق؟ كلا، بل هو إشارة واضحة: صمت مطبق، كثيف وغامض. وكل ذلك ليس من طباع شريفة، فهذه البنت تسبح في الضوضاء؛ يظل التلفزيون والراديو والحاكي الكهربائي وقارئ الأسطوانات المضغوطة تتناوب في الاشتغال على يديها من الصباح إلى المساء، دون شفقة ولا رحمة. لقد اعتلّت الجدران، وتلفتْ أذناي. ومنذ أن وطئتْ قدماها بيتي نسيتُ معنى السكون. وكان ما استقبلني هذه المرة ثقيلاً أكمد، وغير مألوف البتة، فهو شيء يصم الآذان، ويجمد الدم في العروق. هرولتُ مسرعة، ناديتُ واستصرختُ. توقفتُ ثم جريتُ بسرعة أكبر وصحتُ حتى بحّ فيّ الصوتُ: "شريفففة... شريفة... شريـ... !" ثم جثيتُ على ركبتيّ... لست أدري أين. لم أعد أذكر كيف ألفيتُ نفسي على الكنبة، رأسي مدفون بين يديّ وأنا أرتعد من الحمى. كنتُ أشعر بالألم وألمح إعصار تسونامي يهل عليّ بأوجاع أخرى.

أبي وأمي وياسين غادروا لما شاءت مشيئة الله، ثم سفيان الذي انجرف بمحض إرادته وراء مهازله، وها قد جاء دور شريفة. إنها لا تمثل شيئاً بالنسبة إليّ، صبية تاهت بها السبل فدعتْ نفسها ضيفة لديّ، غير أن الحب الذي صرتُ أكنه لها جعل منها حبيبتي وشقيقتي وبنيّتي وصبيّتي. ماذا فعلتُ بحق السماء؟

ثم، فجأة لمحتُ أغراضها، هنا، مبعثرة بالضبط كما عوّدتني، كنتُ أدوسها، وكان بعضها مرمياً على التلفزيون، أو على الطاولة، وبعضها الآخر على الصوان وعلى الكراسي! ويقال حيثما وُجدتْ أغراضنا فنحن موجودون، أو غير بعيد. أنا عصبية بطبعي ومندفعة، أبالغ دائماً، أعذب ذاتي، أنقضّ على من أجده أمامي وبعدها أفكر على الرّحب والسعة.

كان الأسبوع قد مرّ علينا مروعاً، ودبّرتْ الساقطة محاولتين للفرار، لم تمكث أثناءهما وقتاً طويلاً، بعض الساعات فقط، ولكنها كانت همّاً ووبالاً عليّ إلى الحد الذي حطم أعصابي، إذ إنَّ كل ذلك هو عبارة عن علامات تبشر بالآتي.

أهي تتدرب كما يفعل الطائر الصغير الذي يحرك جناحيه على الأغصان قبل أن يطير؟

حياتنا ليست ملكاً لنا إلا في حدود النصف، اكتشفتُ هذا الأمر مع الأيام، يوماً بعد آخر. ولا يوجد فينا من يدري إن كانت الحصة التي بأيدينا أهمّ من الحصة التي تفلت منا.

إن هذه البنت غريبة الأطوار حقاً. ولم يكن لي علم بأن دواويرنا العتيقة تزخر بمثل هذه الأشكال. قد نتصور كل شيء في تلك الضواحي النائية المغبرة والضائعة في العزلة الرهيبة ولكن لا نتخيل أبداً هذا النوع من المجنونات المتقلبات المزاج والسليطات اللسان والأنانيات والمتعودات على هجر بيت الأسرة والوقحات. إن كل هذه الآفات حكر على المدينة على ما أظنّ، تبّاً لهن جميعاً!

والمضحك المبكي هو أنني سأتعود على هذا الغدوّ والرواح. سينتهي بي الأمر إلى أن أكفّ عن ملاحظة متى تغادر ومتى تعود، كما تعوّدنا ذلك مع قطط البيت التي نلحظ غيابها فقط لما نحمل إليها جفنة الأكل ونناديها ولا نجدها: "مينو، مينو، مينو، هيا، تبّاً لك من حيوان؟" ورجوعها لما تأتي تطالب بلحم مفروم وهي تصرخ كالكواسر عند أسفل الثلاجة: "مياو، مياو، افتحي لي هذا الشيء!" إن كل ذلك يجعلنا

نتساءل من منّا يشعر بالتبعية للآخر. إنه الابتزاز بعينه؛ لا أطيق هذا ولن أتحمله.

إن طريقتها في رواية قصص ذهابها وإيابها يجرجرني نحو الجنون إذ يعتقد السامع وكأنها ذهبتْ إلى الخباز أو عادت من عند اللبان: "سلام، علبة حليب من فضلك، شكراً، إلى اللقاء!" عبارات الشكر والامتنان أضفتها من عندي، فهي لا تضحك، تومئ بإصبعها وتتذمر، هذا كل ما في الأمر. كما إن اللبان لم يصبح موجوداً ولا العلبة ولا الأبقار ولا الماعز، انتهى كل شيء، وصار الحليب يباع عند البقال في أكياس بخصية على غرار كل المواد الأخرى. كما صار للخبز طعم الصابون.

يجب أن أُخرج كل ما في جعبتها.

إن تشبيه هذه البنت بالقطط يناسبها تماماً، فلقد غادرت بالأمس فقط لما لمحت ذكر القط تحت شرفة البيت، إنه هو، ذات الشخص الذي لمحتُ خياله يتسلل من خلال شجر الحور، بعد منتصف الليل، في اليوم الموالي ليوم وصولها إليّ أول مرة. إذن لم نكن تحت طائلة المراقبة بل كنا فقط محل متابعة! أوف! لقد انقشع سرّ واحد وبان للعيان. كان الشخص النكرة هذا يسكن في ناحية باب الوادي، في بيت من البيوت

القصديرية غير المعرّفة تمام التعريف، بين منحدر فالي والغيتو الموالي، في حي مناخ فرنسا. كان يتسكع في الحي لما لمح شريفة تسأل عن عنواني. لست أدري إن كانت شرارة الحب صعقته من النظرة الأولى في تلك اللحظة أم تريث الوقت اللازم ليفكر في الأمر؛ الخلاصة أنه وجد سبباً مقنعاً للغاية للتردد على الحي والوقوف تحت نافذتي. وصار منذ ذلك الوقت يتعقبنا كالخيال الملازم، منتظراً إشارة من المكتوب لكي يتجرأ على القيام بكل شيء ممكن. وهو ما قام به بالأمس فعلاً.

"وماذا بعد؟ قلت لها بإلحاح.

- لا شيء، تحدثنا أمام الباب!

- ثم ماذا!

- قمنا بنزهة قصيرة ما دمتِ ترغبين في معرفة كل شيء! كان يريد أن يطلعني على الحي الذي انطلق منه فيضان باب الوادي في العام الماضي.

- إنه موقف مثير للعاطفة فعلاً، مات فيه زهاء ألف، والعدد نفسه من المفقودين، ولست أدري كم من بيت جرفه الفيضان. ثم ماذا؟

- المسكين، فقد أباه وإخوته ونصف عدد أصدقائه في سيل الطوفان العارم.

- يا له من موقف محزن... ثم ماذا؟

- نزلنا إلى سوستاره لمشاهدة المطعم الصغير الذي انفجرت فيه قنبلة تقليدية ، إذ إنه كان قد عاد من العمل في المرسى وجلس يتناول فيه لمجته، فإذا به يفقد ذراعاً ورجلاً وأذناً وعيناً وأنفاً و...

- المسكين، عاطل عن العمل ومعوق، يا له من حظ عاثر، ما هذا النحس! ولكن يوجد أمرّ من هذا. ثم ماذا؟

- إنهم يدعونه المريّش في الحي.

- لطيف. ألم يستدرجكِ إلى كهف للصعاليك لمشاهدة التلفزيون معاً، هذا هو المهم.

- ذهبتُ معه إلى بيته، في حي مناخ فرنسا، كان يريد أن يعرّفني على أمه.

- وهذه فكرة خطرتْ ببالك، أليس كذلك!

- ماذا؟

- دعكِ من هذا. وكيف حالها، هي؟

- لقد أصابتها رصاصة طائشة في أم رأسها أثناء عملية التفجير في سوق لا لير حيث كانت تبيع أقراص الخبز الذي تحضّره بنفسها. ومنذ ذلك اليوم كفّتْ المسكينة عن الحركة.

- حسنٌ، وبعد كل هذا، كلّمكِ عن الشيء الذي يريده منكِ؟

- التعارف! إن المسكين سيء الحظ، لقد فقد

نصف أصدقائه في الكوارث والنصف الآخر في الاغتيالات. وقال لي أولى له أن يختار صديقات، فمعهن يجد حظوظاً أوفر في الاحتفاظ بهن.

- إذا عاد مرة أخرى للتسكع في هذه الناحية فقولي له بأن مصير الصديقات الزواج وأن الاقتراب منهن حينئذ لن يكون أقل خطراً من وضع الذي يضع أنفه تحت آلة فرم اللحم."

لم تكن تصغي إليّ، وقالت لي بكل بساطة:

"أما أنا فأحب الذكور، لأن البنات عاهرات، تسلبكِ كل ما لديكِ، إنهن غيورات.

- أوافقكِ الرأي، ولكن هذا ليس موضوعنا. واليوم، أين كنتِ طوال النهار؟

- ما أعرفش.

- لا تحاولي هذا معي يا حبيبتي، سوف تقولين لي كل شيء، بسرعة! إذا قتلوكِ أو اختطفوكِ فعليّ أن أعرف كيف وممّن.

- إنكِ مجنونة، والله، كل الناس يتجولون طوال الوقت!

- نعم، ولكن ماذا يفعلون بعد ذلك، ليس لك به علم إطلاقاً!"

يا إلهي، هل ينبغي أن يكون كل شيء عسيراً مع البعض! إن المجنونة تتهمني بالجنون، انقلبت الأمور

في هذا البلد. وفي النهاية ضممتها إلى صدري ولكني كنتُ قد خرجتُ عن طوري.

قالت لي ساخرة: "قمتُ بفسحة في الحي!

- يا سلام! وماذا استجد فيه منذ القرن الماضي؟

- دردشتُ مع العمة زهرة.

- هل قلتِ لها الحقيقة؟ أرجو ألا يكون قد حصل ذلك، ستؤاخذكِ عليه، إنها تستمتع بالخرافات التي أخترعها.

- تكلمنا فقط.

- وبعد ذلك؟

- ذهبتُ إلى الدار القديمة.

- أين؟... أعيدي عليّ!

- هناك، قبالتنا!

- ماذا؟... أعيدي عليّ!!

- الدار القديمة!! أومأ لي السيد بإشارات من نافذته...فصعدتُ إليه...

- شهريار؟؟؟!!!

- إنه شيخ لطيف للغاية.

- ماذا؟... أعيدي عليّ !!

- السيد المسنّ!!! هل أصابكِ صمم؟؟؟

- هل له لحية؟... هل لحيته زرقاء؟

- كلا، شعر رأسه أبيض ويحمل نظارات كبيرة على أنفه.

- أهو آدميّ؟؟... يعيش؟؟

- إنه يتكلم لغة لا أفهمها... أهي الفرنسية؟

- كيف لي أن أعرف ما هي؟

- إنها كتلك التي تتكلمين بها لما تغضبين مني.

- إذن هي الفرنسية، فأنا لا أدمدم بغيرها.

- كما يتحدث باللهجة الجزائرية ولكن بلكنة خاصة.

- لكنة الأقدام السود، لا يمكن أن نخلط بينها وبين اللهجة الإنجليزية. حسن، ماذا قال لك؟

- قال عني جميلة، وعنِكِ مؤنسة. قالت ذلك بغنج ودلال.

- هكذا إذن، شهريار له حكاية أيضاً! كيف ستنتهي، كنت أعرف ذلك منذ الطفولة.

- سألني إن كانت لديك أخبار عن سفيان، وهو يتمنى عودته قريباً.

- إنها طريقة بارعة في دخول الموضوع. ثم ماذا حصل، أريد أن أعرف كل شيء!

- لا شيء، شربنا الشوكولاطة. إن له أشياء كثيرة وجميلة، أشياء، أثاث، لوحات، تحف مزخرفة، قطط...

- وما عدا الشوكولاطة والقطط، فلقد سبق لنا أن

زرنا بقية المتحف. هل نسيتِ؟ طيب، كيف لم أره أبداً، صديقك العجوز هذا؟

- إن بابه لا يطل على الزنقة التي نحن فيها بل يفتح على المنحدر من الناحية الأخرى. ثم هو لا يخرج أبداً.

- آه، يوجد ممر سري إذن! عجيبة هي الطريقة التي نجد بها معك حلولاً بسيطة للألغاز. عما قريب سيكون لنا علم بكل شيء. ثم ماذا؟

- أهداني هذا العقد، انظري... إنه عقد كانت تضعه ابنته، لقد ماتت منذ مدة طويلة.

- طبعاً هو الذي يقول هذا، قد يكون ذبحها كما فعل مع النساء الست الأخريات.

- عمّ تتحدثين، كانت ابنته الوحيدة، كان عمرها عشر سنوات آنذاك!

- إني أتحدث عمّا أعلم به!

- ...

يا لها من سوقية، استقرتْ في الحي أسرع مني، وأنا التي لم أتمكن من معرفته بعدما ظللتُ فيه طوال خمس وثلاثين سنة أغدو وأعود حتى أرهقتُ نفسي من البحث والتقصي. إن هذا الأمر لا يطاق، سوف تفسد عليّ تقاعدي. سينقلب بيتي إلى ملهى نادي القطن،

وستأتي الجموع لتستكشف أسراري وتضايق أشباحي وتقلق عالم سكان العوالم الأخرى الماكثة عندي.

كلا، وكلا، ثم كلا!

ولما وصل بي الوضع إلى هذا الحد نهرتُها كما ينبغي وحسب الأصول. يجب ألّا تخرج البنت ولا تتكلم مع الغرباء، يجب عليها أن تحترس، وتتوجس من الجميع، ومن كل الناس، وليس الأمر بعسير، تباً لها! ثم، رحتُ أشرح لها الوضعية وما فيها بهدوء، شرحتُ لها الأشياء الغريبة التي تدور في رؤوس الخلق وما إلى ذلك، والأموات التي تسقط بالعشرات، بالمئات، بالآلاف، بعشرات الآلاف، بمئات...

- إنك مجنونة لا شك!

- وأنت غير واعية! وكل الذين ماتوا لم يكونوا يشكون في ذلك، هم أيضاً! أين أنتِ عائشة؟ إنها الحرب هنا وهناك، وأكيد لم تندلع في هذا الصباح! وكدنا ننسى أننا قد نموت بصورة جماعية والآنسة لا تتورع عن الخروج والفسحة والحديث مع الناس... وتشرب شراب الشوكولاطة!"

ما زلتُ أذكر. لم أحدثها في موضوع حملها، وكانت تلك هي الطريقة المثلى في مداهنتها وملاطفتها. ولو فعلتُ ذلك لكنتُ كلّمتها عن تعقيدات وضع الحمل

وعن تعفن الدم الرهيب وعن سرطان قناة فالوب وتحول الجنين إلى تمساح، ما أدراني. ولما تكون المرأة قد شارفت على بلوغ الغاية ولم يبق أمامها إلا ثلاثة أشهر فإن عليها ألّا تتصرف كالجاهلة، عليها أن تكبح جماح كل تهوّر فيها، وتسهر على نظافتها، وتعد العدة لاستقبال الصبي. يجب القول والفعل والتصور والتنظيم. ويجب الانشغال بوجه خاص، فالمستقبل ليس بالأمر الهين بالنسبة للمولود.

ولكن، هذه هي النتيجة، إنها لا تفكر إلا في نفسها، وفي اللحظة التي هي فيها. يا لها من أنانية!

لم أعد أذكر ما قلت لها. كنت لا أرى الأشياء بوضوح. وأمعنتُ في تعنيفها مراراً وتكراراً، بالتأكيد. لقد خُلقتُ هكذا، محتجة معترضة، غضوبة شكسة وخطيرة، أتجاوز الحدود، ولا أعترف بالحدود... أنا... هل قلت كلمة زائدة عن الحد؟ أظن ذلك... أنا متأكدة... لست أدري، في لحظة ما، تسمرتْ في مكانها، وعيناها جاحظتان، ثم أشاحت عني وتاهت في المتاهة. وظلت المسألة تحفر في رأسي، ما هي الكلمة التي تلفظتُ بها؟ نعم، ما هي؟ ولا شك أني نطقتها، كعادتي السيئة، بعدما غلّفتها برداء الحقد الخالص.

وفي اليوم الموالي، وعند رجوعي من مستشفى بارني بعد يوم عمل مضنٍ، أدركتُ حتى قبل أن أسمع صوت السكون المتردد في ثنايا الدار أن المكان كان خالياً. لم أسع إلى الاقتناع، لم أكن قادرة على ذلك، كنتُ مذعورة. شريفة غادرت المنزل. كان صوت خافت كالموت يردد ذلك في مسمعي، ويكرر عليّ الكلام نفسه في أنين، لم أكن أفقه شيئاً، كنتُ أركز فقط في الفراغ ولم أكن أرى معنى كل تلك الأشياء. ثم انفجر شيء ما في رأسي، صوت مهول تجمدت له فرائصي ودمي، ورميتُ حقيبتي حينئذ جانباً وأسرعت مهرولة. غرفتها ها هنا، موضبة ومرتبة جيداً. لم تكن تلك معجزة بل إنها دليل واضح جليّ: كانت أغراضها قد اختفت، ومعها جهاز الصبي القادم في الطريق، ولم يبق من رائحة البنت المضطربة إلا عطر حافت من غاز خامد. وعندها شعرتُ أن الموت بدأ يستعد فعلاً لفتح لحدي.

لملمتُ نفسي وانزويتُ بها في ركن وبقيتُ أنتظر. ما العمل؟ وكما في فيلم آل لاغوليرز The Langoliers الذي يصور الأثر البليغ الذي يمكن أن تفعله جراح الزمن في البشر، بقيتُ أنظر إلى العالم عاجزة مذعورة كالبلهاء وهو يتهاوى على مرآي قطعة قطعة في سكوت ما بعد النهاية، ثم انتفض فيّ ردّ الفعل. إن لي وسيلة، كنت قد اخترعتها في صالح لويزة لما كنا طفلتين

صغيرتين ويواجهنا عنف العالم غير المفهوم: عندما نخاف من شيء ما نقوم بغلق عيوننا بإحكام ونفكر في نقيضه، وحينئذ يعود كل شيء إلى موضعه. شريفة ستعود، أنا متأكدة من ذلك. عما قريب. ويمكنني أن أتشبث بالحياة.

أنا متقلبة المزاج، وهذا كل ما في الأمر!

الفصل الثاني

الذاكرة أم الموت

التذكرُ هو حيلة أخرى
في أنْ يعيش كل منّا الحياة.
مكتملة كاملة
بأجلّ قدر ممكن
بأقل قهر ممكن.
والوحدةُ هي الوسيلة
في الاحتفاظ بذكرى
ما أخذت ضوضاء الأشياء
إلى طيّ النسيان.
يجب الترك بيد
للمسك بيد أخرى
ومما يولد من جديد

يُصنع منه عمر مديد.
هكذا يمضي الزمن وتمضي الحياة
ولا نسافر أبداً إلا بالذات.

نصيحة:
إياك أن تستسلم للأحزان.
إياك أن تنبهر بفراغ المكان.
فبالتّـهوِ دوماً
نهدر الحياة.

مضت الأيام والأسابيع والشهور وبقيتُ أنتظر رجوع شريفة في وقت من الأوقات. كنت أترك الباب مفتوحاً، وما كان عليها إلا أن تدفعه برفق. لم أعد أفتش عنها، تعبتُ، وهِمتُ في المدينة بما فيه الكفاية، ترددتُ على الأمكنة التي يعشش فيها بعض الرجال الذين قد تستهويهم نفس شريفة المنبهرة، وفضاءات البؤس الشاسعة التي تلتجئ إليها خطاف البحر في أيام الفراغ وفي الظلمة والرطوبة.

وذهبتُ إلى المدعو مراد لتعبئته. فهو لا يستطيع أن يرفض لي طلباً، لأنه في الواقع ككلاب سان برنار الأصيلة الذكية، يعرف أسرار كل المسالك، ثم إن له سيارة، وسيكون أسرع. أصبح المسكين لا يشتغل، ولا يتوقف عن التفكير والاتصال بالهاتف والاستشارة وشرب الخمر كالعادة ويدفع مقابل كل معلومة يرغب الناس في إمدادنا بها. وكانت صحته تعتل من كثرة الجري في جميع الاتجاهات، إذ يأتي إليّ ليبكي بحرقة على مئزري مخموراً من جهة، ومقهوراً من جهة أخرى

من لامبالاة البشر وانعدام الدقة فيهم. وكنا نضبط الأمور التي حققناها ونحن نتنهد، ثم نتخاصم ونتشاجر، أقول له رأيي فيه بصراحة ويرد عليّ بنفس سؤاله المرعب: "ولكن، بالله عليكِ، لماذا ما زلتِ تبحثين عنها؟" كانت رائحة الخمر الخفيف التفه تفوح من المسكين فأنىّ لي أن أسمعه!

هل لا بد لنا من الاستمرار في العناد والإصرار لما تكون الواقعة قد وقعت؟ كانت نقطة الرجوع قد قُطعتْ، ونحن ما زلنا نتشبث عاقدين العزم على المضي دوماً قُدماً. شريفة لن تعود من تلقاء نفسها، أدركُ هذا، وأحس به، والمدعو مراد أتفه من أن يعترف بخطئه على طول الخط.

نعم، لماذا أبحث عنها؟ ما عساني قائلة له؟ هكذا هو الأمر، والسلام!

ورجعتُ إلى الجمعية.

وجدتُ البناية قائمة، وقد يكون ذلك في حد ذاته شؤماً سيئاً وقد يكون فألاً طيباً، لست أدري، والزلازل كثيرة بما فيه الكفاية والمسافات بين الأثر الآجل والأثر العاجل قصيرة جداً. المهم، لا يمكن الحكم إلا بالبيّنة. وعلى العموم، توجد قاعدة يجب التقيد بها: يجب ترقب حدوث الأسوأ مع تعليق الأمل على

حصول الأحسن، وبذلك نكون قد أعددنا العدة لكل طارئ.

"مرحباً، بالعائدة!"

هكذا استقبلتني، تلك المرؤوسة المساعدة! العريف القيّم على المكان لما رأت طيفاً يلوح في الأفق فراحت تذيع خبر ظهوره على القاصي والداني. وقلت في نفسي وأنا ألقي عليها تحية: "سلام يا حبيبتي!" لو حدثتني هذه المرة عن القائمة لأحرقتها. ثم قلت لها: "إن لي مشكلة أخرى". ابتسمتْ في وجهي بفجور فاضح مغلف بالبراءة غير المعهودة في العالمين، وتظاهرتُ بالاكتراث للبلهاء.

ثم انخرطنا في الحديث. لا جديد تحت الشمس، البلد ما زال يفرغ كما يفرغ مغسل الحمام المثقوب، وطالما ظلت الحياة قائمة كان معها الأموات والمفقودون. وبناء على ما تقول به الإحصائيات، فإن مشكلة البنات تختلف عن مشكلة الذكور ولكنهما متساويان في التعقيد. فالبنات يتلاشين في داخل البلد أما الذكور فيتبخرون في الخارج.

"يا خبر، وصل الميز الجنسي إلى هذا الحد!"

- ليس لهم النوازع والدوافع نفسها. البنات يهربن من الوسط الأسري، فهن تواقات إما إلى التحرر وإما إلى مداراة غلطة أو العيش قصة حب ممنوع أو هوى

لم يعشه أحد من قبل، أما الذكور فإنهم حالمون، دأبهم المستقبل المدهش ولا يتصورون أن البلد سيوفر لهم في يوم ما فرص تحقيق أحلامهم واستيهاماتهم.

- لماذا يهجرن الوسط الأسري ما دام مفتوحاً وودوداً... ما هو تصورك لذلك؟

- الأمر ليس بهذه البساطة...

- ولكن ماذا؟

- الحنان ليس أمراً مطلقاً، هناك قيم تحكمها... و... هيه...

- تقصدين التقاليد، الأمور العربية الإسلامية، القهر، وكل ما يتبع، من نمط قانون الأسرة والقوانين العرقية؟

- إنها... لا أقول ذلك بهذه الصورة...

- ولكن طالما كان الوسط مفتوحاً وعطوفاً وليبرالياً!

- قد يكون كذلك، ولكنه يفرض حدوداً صارمة، ويوجد من البنات من لا يقبلن بهذا الوضع...

- إذن يجب النقاش للوصول إلى صيغة وفاق، فالأمهات موجودات لهذا الغرض.

- بلى، ولكن يوجد الإخوة، والأعمام، والأخوال، وأبناء العم والخال، والجيران. ثم إن الكلام، معناه... التعري أمام الغير، والبنات تربّين على الحشمة... والذكور في الشكوك الرهيبة. تخيلي شاباً

يعاني ميلاً من نوع خاص... هيه...كيف أقول ذلك...هيه!

- شاذ جنسياً؟ لوطي، مثلاً!

- هيه... إن شئتِ. هل تتصورين أنه يفاتح أهله في الموضوع؟ إن مجتمعنا... إنه...هيه...

- منافق ورجعي.

- أبداً، ما هذا الادعاء! أقول... هيه...

- سابق لزمانه وطيب القلب؟ لا أرى صورة أخرى غيرها، اللهم إلا إذا كانت في طور النشوء الجنيني والمضطرب.

- كلا، ذو نزعة تقليدية... في مواجهة العصرنة ضمن سياق دولي... أففف... موبوء... بالضبط، موبوء!

- إذا كان الأمر كذلك، كنتُ سأقول بكل بساطة: معتوه.

- الخلاصة، يفضل أن يفرّ إلى أوروبا وهناك يعيش حياته...

- لنبق في موضوع البنات.

- الأمر واحد. وعلى عكس الأفكار الجاهزة، فهن لا يتحملن سلطة الأهل والوسط الاجتماعي بأقل مما يتحمله الذكور. إن الضغط المفروض عليهن رهيب. فهن مصيرهن الذبح بيد أن الذكور يتلقون التوبيخ ثم الإطراء.

- حتى وإن كان سلوكي يوحي بذلك، فأنا لستُ متسلطة، إن كنتِ تقصدين هذا الأمر.

- أبداً. أقول إن التحدث إلى الغير صعب على الجميع، وحتى الأهل أنفسهم لا يجرؤون على الخوض في بعض المواضيع مع أبنائهم...

- لنرجع إلى شريفة. إنها حامل في شهرها السادس، وأشعر بأنها ما زالت هنا، في الجزائر، فهي حلم طفولتها. إلى أين تذهب البنات في مثل حالتها؟ هل توجد دور، أو مراكز مخصصة لاستقبالهن؟

- للأسف، لا توجد. فهن يرتجلن الحلول، هناك من يذهبن لمعاشرة أول طارق، وهناك من يَسْعَيْنَ للاشتغال خادمات في بيوت الأغنياء، وهناك من يؤول بهن المآل إلى التسول، وهناك...

- كفى! شريفة ليست بهذا الشكل، فنفسها أبية فوق اللزوم!

- بالضبط، الأبيّات جداً هن من يسلكن هذا الطريق، أما الأخريات فينتهي بهن الأمر للعودة إلى بيت الأسرة مهما يكن العقاب الذي ينتظرهن.

- شريفة ستعود! أحس بهذا، أدرك هذا!

- ...

أصبحتُ لا أسمعها، كان كل شيء مجرد ثرثرة مطابخ، كنتُ أرقب شفاهها الهدلاء تنطق بصورة فيها

ندم، وعينيها كعيون الخنازير تحملق في كبرياء. كنتُ أتخيل نفسي على تلك الشاكلة وقد شوّه الجدّ ملامح وجهي وأنا جالسة في وجه شريفة، وهي كعادتها سيدة نفسها غارقة في غرائزها وحبيسة عالمها الطفولي، إنه أمر فظيع.

ما هي الكلمة التي قذفتُ بها في وجهها كالطلقة؟... نعم، ما هي؟

"ماشي الحال؟".

ماذا، من المتكلم؟ ياه، إنها تلك البنت المغلوبة على أمرها من الجمعية!

فجأة، فهمتُ: لقد طويث صفحة. إن البحث لن يجدي نفعاً. فمدينة الجزائر بُنيت لكي يضيع فيها الناس، وهي لا تُرجع من ابتلعته، فيها الكثير من الممرات المتعرجة والمسالك التي لا منفذ لها، طرقها تضيق كعنق القِمْع وأبوابها موصدة، وفيها تعقيدات يشيب لها الولدان، وفيها الحشود التي تتدافع وتتداخل، وفي كل أرجائها، في الظل أو في وهج الحر، يسود العنف الاستوائي الذي يصيح ويرصد ويتصيد ويقرض ويقضم ويخنق ويهيج ويضل. شريفة ضاعت وأنا قطعتُ عنها سُبُل الرجعة. إنني امرأة غبية عانس شرسة بلهاء تافهة، وشريرة.

إننا نتيه في البحث. شريفة موجودة في مكان ما، في حياة أخرى، وفي تيه آخر، وليس في المكان الذي تقودني إليه قدماي مغمضة العينين. والآلام موجودة في داخلي وليس في وعورة الطريق وصعوبتها.

ربما تكون ماتت.

أو أنا التي متّ. إنني شاحبة الوجه ممتقعة، شفاهي مسودة، وعيناي غائرتان في الزرقة الداكنة، وتفوح مني راحة جرذ مجاري صرف المياه القذرة. قتلني اليأس، والقنوط كفنني ودفنني، كنت أجر قدميّ على نحو يثير إما الرثاء وإما الشفقة. فلقد كان المارة يتوقفون عند حدي يتفحصونني وعلى سيماهم الوقار المصطنع الذي يتعمدون الظهور به أمام جلال الموت إذ لو كانوا أحياء لكان فضلهم عظيماً. ونهرتُ واحداً منهم لما ظن نفسه أذكاهم واقترب مني فوق حدود المسموح به: "أتريد صورتي، أنت؟ تعال، لتأخذها!" إن إظهار الشفقة على الغير يغنيهم عن الانشغال بأنفسهم. يا لهم من أغبياء مساكين. إن الغرور داء لا دواء له!

حمحمتُ وانتفضتُ، وقفلتُ راجعة إلى البيت.

لما وصلتُ الحي، توقفتُ بعض الوقت مع النساء اللائي يقمن بدور العسس، لمجرد تبادل بعض الألم معهن. يا له من منظر كئيب، إنهن ماكثات دوماً أمام

أبوابهن، مسمرات في نعال البابوج، ينتظرن في صبر وأناة، بلا هلع ولا فزع، فقط مع بعض السرعة في وتيرة التنفس وضباب في النظر. ولا شك أنه مع ألم وخز المصران الغليظ، فلا توجد واحدة منهن لا تكابد عذابه. كلا، لا علم لي إطلاقاً بامرأة لا تشكو من وجع مصرانها. سأؤول إلى ما آلوا إليه لا محالة، وقد أقف في يوم من الأيام أمام بابي، مغروسة في خفافي وظهري مسمرة إلى المقعد، والمصران يتأكلني. ستحمل إليّ الريح أنباء العالم وسأحاول تلقف المراسيل لتروي عليَّ ما ينتظرني من مصير. لم لا، في يوم ما، سأرى شيئاً عظيماً يلوح في أقصى الجادة. أهذا هو الأمل الكاذب الذي يعطي هؤلاء النسوة هذا الصبر الذي لا يخبو ولا يخفت؟ ماذا يكون، إن لم يكن هو.

وتنقلتُ من الواحدة إلى الأخرى، اليدان مضمومتان إلى الذقن، والخطوة وئيدة. أخذتُ بعضاً من أوجاعهن، ووهبتُ لهن بعضاً مما يؤلمني. قد نتألم أقلّ لو أمكن لنا جميعاً الغرق في الأسى العارم، وسينظر ساعتها كل منا إلى مآسيه على قدرها، وسيجدها عبارة عن أرقام تأتي بعد الفواصل في مساحة المعاناة البشرية الشاسعة التي لا حدود لها.

لا، إني أرفض هذه الرطانة المبهمة والواطئة! لا أريد أن أعتم على أفكاري، ولا يمكن للإنسان أن

يكون نزيهاً وانتهازياً في آن واحد. بالأمس فقط، كنت أتكلم معهن بصراحة ولا أتواضع إلى أسفل الدرك إلا في سبيل الأخلاق، وها أنا في الوقت الحاضر أنزل إلى مستواهن من أجل المصلحة المشتركة. إن الشفقة تزعجني، لأنها ليست واضحة. ثم إن انتحال المأساة المكتنفة في كل مكان وحملها على سبيل العلاج الشافي معناه تعاطي المخدرات من خلال حمل الآخرين على تعاطيها. إني أدرك تماماً أنَّ المعاناة كالسعادة، لا يمكن اقتسامها، وخصوصاً عبر سحر الكلمات.

قفي! عليّ أن ألملم نفسي وأستعيد حياتي من حيث هجرتها لما دخلتْ عليّ شريفة غازية واحتلتني!

وظائف الزمن الموجز الثلاث

كنتُ

كائنة

أكون

قصص ثلاث للضحك والبكاء والتمخّط

كنتُ

كائنة
أكون
أوقات ثلاثة للنوم والقيام والاستحمام
كنتُ
كائنة
أكون
كلمات ثلاث للكلام والسلام والزوال
يوم
حول
قرن
مكاييل ثلاثة من أجل لا شيء وأربعة في ثلاثة: صفر.

هذا ما أفلحتُ في كتابته على مدى خمسة عشر يوماً، ولا قيمة له.

إنَّ عودة الإنسان إلى عاداته تصبح مهمة مستحيلة بعد أن يكون قد هجرها، ولا يوجد من يوفّق في القيام بذلك. فأنا أقوم بمسرحية حفظتها حفظاً صماً، ولكني كنتُ أتلعثم وأتردد، وكنت إما أفرط في المبالغة وإما أفرّط. كنت أقف في أوج الاندفاع، أكرر ما سبق أن قمت به، أفتش أمامي وخلفي، إذ من الصعب على الحيّ أن يركز على حياته وهو يحياها، لذا كنت أنتقد نفسي في كل خطوة وفي كل كلمة. كنت أراني قبيحة،

لا أحب صوتي، قيافتي المضحكة تصيبني بالذعر، ونظرة البهيمة المجروحة في محياي تقتلني. كنت أحس بالضيق والألم، كنت أتمتم وأصبحتُ أفكر برأيين في آن واحد. نعم، هذا هو الوضع بالضبط، كنت قد أصبحتُ إنساناً آلياً، روبوت، جامداً يتطلع إلى حاله في المرآة.

ولكن الواقع كان شيئاً آخر، كنت خائفة، خائفة بصورة فظيعة، وأهوي في فراغ الوحدة من على علوّ ستة وثلاثين طابقاً إلى القاع السحيق. وهذه كانت كبيرة على التحمل، والله يستر. لملمتُ نفسي في ركن منزوٍ وانكفأتُ على نفسي ثم انتفضتُ واقفة، وفتحتُ الأبواب والنوافذ مشرعة وتنفستُ الصعداء بملء رئتيّ. لن أدفن نفسي حية! كلا، وكلا، ثم كلا!

يجب أن أجد لنفسي حياة جديدة، أرتجلها، وأثب واقفة، هذا بالضبط ما يلزمني.

الهروب إلى خارج البلد كان الفكرة الأولى التي خطرتْ في رأسي واختمرتْ. لن أكون أول ولا آخر من يفعل ذلك، ولستُ الوحيدة التي فكرتْ في الموضوع بكل تأكيد. دققتُ في الفكرة وقلبتها على كل الأوجه ثم ضربتُ بها عرض الحائط. إنها فكرة معقدة للغاية، وهي عبارة عن مسلك المقاتل الوعر، تتطلب

من الأوراق والوثائق ما تعجز الذاكرة على حفظه، والتعرض إلى الإهانة عند شبابيك الإدارة، ثم جواز السفر، والتأشيرة، واقتناء ما يلزم من العملة الصعبة في السوق السوداء، ثم طلب بطاقة المهاجر أو اللاجئ السياسي، والإيواء، وتصيّد الإعانات الاجتماعية، والتسجيلات المختلفة، ويا ويلي من المؤامرات في الأروقة مع الحاذقين الشطار الذين اجتازوا الامتحان بنجاح! ثم الانتظار لأوقات تتجمد فيها عروق الرجلين، ثم المرور عبر انتقاء الغربال واستمارات الأسئلة العويصة التي لا تعد ولا تحصى، والحواسيب التي لا تذر صغيرة ولا كبيرة، وفي نهاية المطاف، ولما يتهيأ لنا أن الفرج صار قريباً؛ تنزل المقصلة، والسقوط في الهاوية، يصدر الرفض القاطع. عندها تكون النوبة القلبية، أو أقوم بقتل القيّمة على شباك الطلبات فأصبح إرهابية يحسب لها ألف حساب خوفاً من انتقام جماعتها المسلحة التي ترابط في ضواحي المدينة، ويأتيني دعم الصحافة إن عرفتُ كيف أجعلها تنتظر تطورات قضيتي بلهفة. يا إلهي، يا لها من أفكار! هنا سيرى القوم فيّ الهاجرة والمارقة، والجميلة التي ذهبت طلباً للمتعة، وهناك سيرى قومهم فيّ الدخيلة ومختلقة الروايات، وسارقة التعويضات، وما أدراني ما سيخترعون، سينظر الجميع إليّ شزراً وأنا محملة بالأثقال وهيئتي المنهارة. سيرفضون الإقرار بفكرة

اضطهادي من قبل الدولة وديانتها. والأدهى من كل ذلك أنهم سيسخرون مني في وجهي، فالمسلم لا يمكن أن ينزعج من دينه ومأموريه المستبدين، فهو جزء لا يتجزأ منهم وهم منه، فهو إما متواطئ وإما ضحية راضية بتضحيتها، لا أكثر ولا أقل، وإما معتوه تجب مراقبته. سأُجنّ قبل أن أدرك منْ أكون بالضبط في نظرهم.

يجب أن أغيّر الحارة، أو المدينة؟ أوف، إننا نأخذ دوماً آلامنا معنا في مثل هذه الرحلات!

ثم، من قال إني سأهجر داري! سأموت فيها، وبيني وبينها توجد أواصر الدم الوثقى.

وحلّ الصمت المطبق. لا فكرة ولا صوت، ولا هم يحزنون.

تزوجي وعيشي حياتك! ماذا، من قال هذا؟ زوج، يا للتعاسة، ثم ماذا! زورو في بيتنا، يا مرحبا، الزوج محمد أمامي والقبيلة ورائي والإمام الذي يراقبني من أعلى المنارة، ما هذا الحل! هل ترينني قادرة على انتظار قدومه ليذبحني بدل أن يذهب للحلاق؟ وهل ترينني مستعدة على الأخذ بيده والشروع في تعليمه كل شيء عن الحياة؟ إن الرجال في هذا البلد لا يتوقفون

عن الإصابة بالأمراض الصبيانية، أتدركين ذلك! أتساءل إن كانت قد نبتت لهم جميع أسنانهم. إني لا أفهم فيهم تلك العادة الغريبة التي تعودوها بلمس كل شيء بأيديهم قبل أن يحملوها إلى أفواههم. ولا أزيدك عزيزتي، أنه تراودني أفكار جهنمية عندما أراهم يكفهرون في وجهي، ويكحتون أنوفهم وهم يقودون سياراتهم، ويكشطون أدبارهم وهم يمشون، ويبصقون كما لو كانوا يتنفسون! وحتى المدعو مراد، ورغم علمه وفهمه فلا يصلح لأي شيء، وسيكون آخر رجل أفكر في الزواج منه. إنه لم يفلح حتى في العثور على شريفة!

إن كل ذلك يذكرني بفيلم "أبداً، إلا مع ابنتي" المؤثّر والمؤلم، الذي لم تتوقف القنوات الفضائية على عرضه مراراً. وأتساءل إن كانت الجزائر ستعرضه على الجمهور في يوم من الأيام؟ وبالتأكيد لن يكون ذلك خلال هذا القرن. يروي الفيلم قصة امرأة أمريكية متزوجة من إيراني تجد نفسها في طهران، بعدما وقعت في مصيدة نصبها لها زوجها، ووقعت ابنتها رهينة هناك، ثم تبدأ رحلة مواجهة الجمهورية الإسلامية الإيرانية، ورجالها، ونسائها، وحرس ثورتها، وقوانينها الغريبة، في سبيل استعادة حريتها. شاهدتُ هذا الفيلم

عشر مرات ولا أفهم كيف حدثتْ مثل تلك العبثية اللامعقولة لامرأة أمريكية.

نحن في البداية في أمريكا. الزوجان يتحابان في بيت أسطوري على ضفاف بحيرة ساحرة. كانت لهما بنت صغيرة جميلة تلهو وتلعب وتشع سعادة وحبوراً. يحاول الزوج إقناع زوجته الحبيبة بمرافقته في زيارة أهله لأسبوع واحد في بلده الأصلي. كان يتكلم لها عن تلك الرحلة وكأنها حج يعزز حبهما ويقويه: "سترين، إنهم آية في اللطف والدعة، سيستقبلونك على الرحب والسعة"، واسترسل في الكلام شذر مذر. رفضت الزوجة العرض رفضاً باتاً. تمادى في الإلحاح كما يفعل كل ابن بار يتحرق شوقاً إلى زيارة أهله وذويه وتعريفهم بأسرته الكريمة. ومع نهاية الفصل الأول كان الرعديد قد نجح في خطته، وها نحن في طهران، مدينة كأي مدينة في العالم الثالث، في قلب حارة ككل الحارات الشعبية، وفي منزل بئيس ككل البيوت. يا إلهي، إنه النزول إلى جحيم العذاب! ووقع حمل القهر، وبدأتْ أبواب الخدر تُغلّق باباً باباً، وتعززت الحراسة المشددة، وبدأ النهي والزجر، هذا ربّ العائلة يصوّب النظرات النارية، وهاته امرأته الشريرة توبخ وتؤنب كل من يوجد حولها، وهؤلاء الأعمام يزمجرون، وأولاد أبناء الأعمام يشوّرون

بالحركات، وفي الركن قبعت النسوة يتمتمن في وجوم وهن يرقبن بعيون الخانعات القانعات، وفي كل مكان من الطرق كان حرس الثورة يجولون ويصولون منذرين ومتوعدين. ما العمل وقد وقعتْ الآن في الفخ؟ هل تستسلم للموت كما نفعلُ؟ هل تظل تتباكي وتندب حظها التعيس؟ هل ترضى بوضعها الدونيّ؟ كلا، إنها بنت أمريكا، إذن فهي امرأة الحزم والعزم. وفي الجزء الثاني من الفيلم نشهد لعبة معقدة بشكل غريب، إذ صارت الأمريكية تلبس حجاب التشادور، خاضعة ذليلة أمام الرجال، تتكوم وتتكور مع النسوة في ركنهن المعتم، تغسل رِجل بعلها ورب الأسرة الكبيرة؛ كانت تتنفس الهواء خلسة، وتطيع أمه الشريرة طاعة عمياء، وتتبسم راضية وهي تلمح ابنتها التي بدأت نضارتها تذبل هي الأخرى (يا إلهي، كم كانت مليحة في كفنها الأسود!). وصارت تقوم بدور المسلمة السعيدة في أغلالها، وتبالغ في الوضوء، ولكنها بمجرد أن تسنح لها الفرصة تتسلل إلى الخارج، تركض، وتتطفل، وتهتف، لتصل في النهاية وبعد جهد جهيد يفوق طاقة البشر إلى شبكة تقودها إلى خارج إيران مع ابنتها. وفي منتصف يوم من أيام الحر الشديدة كان الفرار، وبعد ذلك يبدأ سباق اللحاق الذي يقودنا إلى تخوم الحدود التركية، هناك، في الشمال، عند سفح جبل أرارات حيث يتخبط الزوج وعشيرته كالعميان. آه، يا للفظاظة،

كانوا يتصايحون ويمسك كل منهم الآخر من جلابيبه، ولعابهم يرشش من الغيظ؛ كانوا يحسون بالإهانة التي لا يمكن تحملها. كنا نتصور... وفجأة فهمنا المقصود: إنهم لا يرغبون في قتلها، فهم يريدون إرجاعها حية إلى البيت فقط! لا، يا ربّ، لا تجعل هذا يحدث! وقطعنا الكيلومترات الأخيرة مع بطلتينا وقد أجهدنا اللهاث، إلى أن جاء الفرج لما لمحنا راية الولايات المتحدة ترفرف على مبنى القنصلية الأمريكية في تركيا، وبكيتُ بكاء لا يمكن أن أبكيه إلا وأنا في سعادة غامرة.

كم كان التوتر شديداً والمعاناة قاسية، وأنا أتابع على مدى ساعة كانت كألف، ولم أتوقف لحظة واحدة عن الاعتقاد بأن من الجنون أن تفكر الواحدة في الزواج من رجل مسلم في هذا الزمن، وقد يكون من الجنون الأكبر الذي ما بعده جنون أن تتبعه إلى بلده. كنتُ أؤاخذ نفسي وألومها على التفكير في مثل تلك الأشياء، إنه تفكير سخيف ومخز، ولكن أنّى لنا أن ننكر الواقع، فهو يحبس عنا الأنفاس، كيف لي أن أنسى لويزة العزيزة التي ذهبت حياتها في مهب الريح في حي منسي منذ عشرين سنة، وأولئك اللائي استيقظن ذات صباح ليجدن الشمس قد غربت على حياتهن. أمر مريع حقاً أن نعيش تحت طائلة فعل

طائش قد يحول الزوج المسلم الودود إلى زوج مهذار يدعي السلفية. اللهم، احفظ لنا أزواجنا وأبناءنا في كنف الإيمان المعتدل.

النسيان، إذن؟ نعم، ولكن قد أقول الاستغراق في النفس، لأن النسيان ليس ممكناً في جميع الأحوال، أو التيه في الغيبة، واختراع جزيرة مهجورة، قمقم على طريقة روبنسون كروزو، وبناء مملكة من هنا وهناك ومصاحبة الريح والشمس والمطر وحيوان السلطعون الوديع والنورس الصيّاح والليالي المؤثرة بالشعر والقوافي.

إن الحياة لا تتيح في الواقع إلا القليل من الاختيار، الرحيل، المكوث، النسيان، اجترار الكلام. إنه أمر لا يدعو للبهجة. نحن نرغب في التخيل، محاولة المحال، العيش في العسر والتقتير، تحقيق النجاح الباهر، تحقيق المستحيل، تأسيس عبادة جديدة، تحرير الجماهير، التحول إلى فراشة، ارتداء الألبسة المرقعة، الركض فوق سطح النجوم، وما لم يخطر على بال.

ولكن كم هي الأيام طويلة والأحلام صعبة وعصية. وكم من أشياء تضيع منا على مدى العمر. إننا نجد أنفسنا وقد أحاطت بنا الوحدة، ذاكرتنا اهترأت،

وأثوابنا ضاعت في النفتالين، وأشياء قيّمة لا تنبئ بشيء، وكلمات خرجت عن سياق الاستعمال، وتواريخ معلقة ببلاهة على مشجب الزمن، عفاريت تاهت مع الأشباح، معالم مبهمة، قصص وروايات بعيدة بعيدة. ونستبدل هذا بذاك كيفما أمكن لنا ذلك، ونحيط أنفسنا بأشياء من هنا وهناك ولكن بلا حمية ولا حماس وما بقي من الحياة يحس بعبء ذلك.

ولكن، ما هذا الهراء يا عزيزتي، أما زلت تهذين، وتتلفين أعصابك، أتريدين الموت؟ كلا، فأنا ما زلت شابة، وأنا مكافحة، أراقب الوضع، سأتدارك الأمر!

استحممتُ، تجمّلتُ وتبرّجتُ وحضرتُ لنفسي إبريقاً من الشاي.

غداً سيكون يوماً آخر، وستضحك لي الحياة.

ما الذي يتحرك بلا حراك؟
يبتعد بلا ذهاب وإياب؟
ويشوش المسالك؟
ما الذي يجري بلا جري؟
يملأ بلا إفراغ ولا ملء؟
كل الحسابات زائغة؟
ما الذي يتحسن ولا يتحسن؟
يندفع بلا مد ولا جزر؟

ما الذي يقول بلا ذكر؟
يملئ لا يكرر ولا يبتكر؟
ويأخذ الفكر؟
ما الذي يداوي ولا يبرئ؟
يقود بلا هدي ولا هجر؟
ويدمي الفؤاد؟
ما الذي يثري ولا يغني؟
ما الذي يعطي بلا زيادة ولا نقصان؟
ونفشل دونه؟

ما هذا الكلام، أهو الهذيان؟ الزمن هو الزمن، هو الشيء ونقيضه في آن، وكل هذا لديّ سواء، أريد أن أعثر على شريفة، ومتى عثرتُ عليها في أسرع وقت كان ذلك أحسن!

لا شيء يمضي كما ينبغي، أحس بالحمى، وجع في الرأس يؤلمني والمصران يزعجني. لا ألوي على شيء ولا أدري ما العمل. يكفي أن نشتاق لشخص عزيز حتى ينهار كل شيء من حولنا ويتلاشى في الظلمة. لقد سقطتُ في التيهان، وأصبحتُ أحدث الجدران وأسأل الأشياء، أجدها قبيحة المنظر وأهمّ بتحطيمها. أصبحتُ أتصرف كالكائن الآلي الذي استهلكت بطارياته، كنتُ أطبخ بأطراف الأصابع وكان

الأكل إما عجيناً أو مسحوقاً كريهاً وإما لزجاً مغبراً فظيعاً، لم أعد أميز بالضبط، أرمي كل شيء للنمل والصراصير وأجلس أرقبها وهي تسرح وتمرح وأجد في ذلك بعض الراحة. إن احتفال الزواحف في الأرض أمر عظيم. كان البيت بئيساً وقذراً وغريباً ونخراً و... يا إلهي، هل هذا معقول، النجدة، إن بيتي ينهار! أو أنا التي أنهار على الأصح، أحس بالدوار، وأتأرجح من جدار إلى آخر. أحاول التنفس فلا أستطيع، بل يصّعد من أحشائي الضيق والقلق. أمشي وأدندن لبعث الطمأنينة في نفسي. فلقد صادفتُ الأشباح تتفسح في الأروقة ولم أتعرف عليها لشدة الغبار المعتم الذي كان يكتنفها، حتى هي لم تسلم من العاصفة. هيا، لنحاول إعمال الفكر، ولندردش مع هؤلاء السادة الخارجين من جوف الماضي.

ها هو مصطفى، بالمصادفة، خارجاً من كوة في الحائط، لابساً سرواله الشرقي وواضعاً طربوشه كالمنطاد، بسحنته الميشّبة، كان يحمل مصباح علاء الدين بيد معقوفة وباليد الأخرى كان يحمل سيفاً عريضاً ومعقوفاً يصلح للإجهاز على الفيلة. رأيتُه على هذه الحال، هو من بدا لي على هذه الحال، الحالتان سواء.

"السلام عليكم، مصطفى! ما الجديد منذ فتح الجزائر على أيدي الكفار؟

- ...

- لا أسف على الزمن المبارك أيام سليمان الفاتح، ولكن يجب على الإنسان أن يكد ويجد للوصول إلى مبتغاه!

- ...

- ولكن، في الواقع كان عليك أن تعود إلى بلدك بجوار الداي. وكنت ساعتها تسكن قصراً باذخاً على ضفاف البوسفور بدل أن تبقى هنا لتشقى في منحدر فالي، إنه مكان تعيس.

- ...

- مصيبة؟ بالضبط، هي كذلك! طبعاً، كنت سأرجع إلى أهلي لو كانت بلاد القبائل حرة مستقلة وكانت لديها القنبلة النووية لتأمين الدفاع عن نفسها من الجامعة العربية.

- ...؟

- نوع من كرة المدفع تحدث حفراً بمدى شساعة البحر المتوسط.

- ... ! ...؟

- ممم... نعم، نعم أن يتوافر كل ذلك للقذف بالمنجنيق، على بعد ثلاثة آلاف ميل، ولكن ليس هذا ما ينقص بكثرة.

- ... ...؟

- لا ، يا صديقي، كل معلوماتك خطأ في خطأ. الإمبراطورية العثمانية لا هي في الجامعة ولا في الاتحاد، هي مع التيار يجرفها بين السماء والأرض، في مكان ما بين البحر المتوسط والبحر الأسود. ثم زد على ذلك، أعلمك بأنها لم يبق منها إلا بعض الفدادين على طول البوسفور، إخوتك هاجروا للعيش في بروسيا كما هاجر إخوتي للعيش في فرنسا.

- ...

- على حد قولك، إنه زمن العجائب.

- ...

- إننا نتفاهم نحن المنفيين، صحيح، ولكن لا تنس، إنك ميت، إذن أنت مرتاح البال، وأنا حية، ولا أروي لك ما أعاني من انشغال، هيا، سلام!"

إن هؤلاء الأتراك غريبو الأطوار. وهذا المصطفى يسدي إليّ النصائح، هو، هذا الشبح المحتل الخارج من القرن التاسع عشر! يقول: طالما السلطان حي يرزق فلا ينبغي للرعية أن تنشغل أو تتأخر في دفع الخراج. وفي الواقع، فهو على غرار كل مسلم محترم ومزهو بشواربه، كان لا يرى بعين الرضا فاطمة من الفاطمات تتدخل في السياسة وفي العلوم العسكرية.

ومع ذلك، ما زلنا نحتفظ بذكريات حسنة عن الأتراك. ورثنا عنهم أطباق الشوربة والضولمة والشيش كباب وراحة الحلقوم التي بفضلها نقوم بواجبات رمضان على أكمل وجه، رمضان شهر المجاعة العامة عند العامة. إننا لا نحقد عليهم لكونهم استعمرونا ونغصوا علينا عيشنا وابتزونا وأورثونا عاداتهم الهمجية: الدسائس والقرصنة وحب القضاء على الآخر قضاء مبرماً. ثم إن فكرة عفا الله عما سلف ترسخت وتجذرت لدى المسلمين، وصار المبدأ أن الإيمان يرتب دوماً ذات القناعات ونكران الذات لدى هذا وذاك. ولهذا السبب بقيت بلدانهم تقضي جل وقتها في الشرح والتوضيح. وفي الدين، لا قيمة للوقت ولا تهم إلا الحماسة.

لم يكن هذا المصطفى مفرطاً في الإيمان. لقد عثرنا على ملاحظاته وخواطره، ولا نمل أبداً من قراءتها؛ كان لا يترك شاردة ولا واردة، ذلك القرد السليط، المهم، ترك لنا هذه الدار المهيبة التي لم يكن يقضي كل وقته بها في النوم. لماذا كل هذا؟ لست أدري، لماذا أرادها بهذا التعقيد، مظلمة وكبيرة في كل شيء إلى حد المبالغة، وصغيرة جداً في تفاصيلها، وتائهة في شوارعها الصغيرة، ومحززة في ركائزها الداعمة، وتهريجية في رياشها القديمة. ومن المضحك

المبكي ألّا نقوى على فهم الخفايا التي تحرك الناس.
لقد كان مراوغاً، هذا التركي.

ومن تحصيل الحاصل أن أي أثاث عصري لم يكن يجد مكانه في هذه الدار. ومن أين لنا أن ندخله، فلم تكن الأبواب والنوافذ تسمح إلا بمرور خيط رفيع من الهواء وبصيص من النور، فقط. لقد عانينا الأمرّين في سبيل تجهيزها، وقام أبي باستعمال المسمار لتثبيت لويحات على الجدار أطلقتْ عليها أمي اسم خزانة وصوان وخوان، ورفين جداريين في غرفتي وضعتُ عليهما مكتبتي الصغيرة ومنبّهي. ومع مرور الزمن جاء دور عمو حسين ليكمل المسيرة وواصلتُ مهمة إطلاق الأسماء على المخترعات من اللويحات، فكنّا نحس بالضيق الشديد في جميع أرجاء هذه العشة.

لقد كانت هذه الدار مبعث سعادتنا ونحن صغاراً، وكذلك لعبة التخبئة ولعبة "اتحرقت" في مثل تلك الفوضى التي تمثّل سعادة لنا ما بعدها سعادة. كنا نتيه فيها ونضيع حيث لنا أنا ولويزة أحلى ذكريات العمر في متاهاتها ونخاريبها. وكل ما خبأنا فيها من أدق أسرارنا لا يزال جاثماً في زواياها، بعد أن جفت وطواها النسيان إلى الأبد. مسكينة لويزة، لم تكن فالحة في إخفاء أي شيء ولا في العثور على أي

شيء، كانت تجري في مهب تيارات الهواء لاهثة ببلادة، وتسأل نائحة: "هل أخبئ هذا هنا؟" "احمليني لأخفيه هنا ولكن أديري رأسك!" وكنا نغتنم فرصة سذاجتها. يا إلهي، كم أنا مشتاقة إلى حبة الجزر، حبيبتي! كيف استطعتُ أن أعيش بدونها؟

قضيتُ نهاري كله في التسقيفة، الڤروني كما كان يسميها أبي وهو يتكلم العربية بالفرنسية بلكنة قبائلية، وكان العكس لديه صحيحاً حيث آلت طريقته في التسمية إلى الورثة. فلقد كان قرنان من الحياة يتراكمان فيها تحت رداء سميك من الغبار الأزلي. لست أدري إن حدثت فيها حروب أم أن الأمر تفاقم بسبب الإهمال لا غير، ولكن الفئران كانت قد احتلت الميدان. وكنت أفكر دائماً في القيام بتنقية أجواء هذا البازار ولكن الوقت لم يتهيأ لي. ومع ذلك كنت آتي من حين إلى آخر أقلب بلا روية ولا قصد في حقيبة أو سلة أو سلة قصب، وأحملق في الأرجاء وأحرج الفئران وأرعب الصراصير وأقلق العناكب التي لا ترغب فيمن يعكر الجو عليها وهي تقوم بحركاتها البهلوانية. وكان كل هذا العالم الصغير اللامع والأشعر يفرنقع بسرعة ويأوي إلى مخبئه. وهنا كانت توجد قشرة من الغبار تمثل رب البيت في صورة بطوله وعرضه في بزته الرسمية؛ إنه الكولونيل لويس جوزيف دي

لابويسيار المدعو يوسف المورو، المسيحي الداخل في الإسلام. لقد كان يشع من نظرته كبرياء الحروب الإمبراطورية؛ إنه وسيم لعمري، طويل بقوام فارع، ويميل إلى الشقر، وكانت له سوالف وثيرة يبدو أنها كانت مبعث اعتزاز لديه، ويحمل منظاراً بإطار مذهب على عينه اليمنى التي صارت بفعل الزجاج تبدو أضخم، ويمتشق سيفاً مرصعاً بدقة متناهية، ويضع قبعة عليها ريش ويلبس واقية صدر مفتولة. إنَّ هيئته متكبرة، مع انعطاف في الوقفة، وقبضة على خصره والأخرى يمسك بها سيفه الدقيق من المقبض، وهو لعمري من طينة الفرسان الذين كنت أتمنى أن أركض وإياه في الغابة أو أقوم معه برحلة على سطح البحيرة على مرأى وصيفتي التي ترقبني بصرامة. كنت أتخيل شعري الأشقر يتلألأ ويطير في الريح ويسبغ على سطح البحيرة ألواناً قزحية، أما على خلفية اللوحة فكانت تبدو غابة يوحي مظهرها بالرطوبة، ثم لم ألبث أن شعرتُ بنفس الجو والسكون ورائحة العفونة والخيال والمظهر الرسمي؛ لقد تخيلتُ المكان حصناً زاخراً بأسرار الدولة، متربعاً على هضبة وادٍ يحفه الضباب في الأفق. كما كانت اللوحة توحي بالدسائس التي حيكت والمكائد التي دبرت لما كان الجند يسيرون وراء مجد البطولة، بينما الضباط بلباس الفراك وقبعة الجيبوس يسعون إلى إبرام صفقات عقارية. وسرعان ما تخيلتُ رقصة الكرمنيولة

والرغبة في استفزاز البطل. هيا بنا، إلى الساحة، أيها الفيكونت!

"قل لي، مولاي...

- ...

- أوه، إنك تدرك، بأني قلت مولاي كما لو قلت أيها السيد أو الفتى أو يا هذا!

- ...؟

- كلا، المشكلة هي إني لا أريد أن يقاطعني أحد، لا علينا. قل لي، إذن أيها الجار العزيز، هل كانت فكرة انخراطك في الجيش فكرة صائبة؟

- ...

- حقاً!

- ...

- الشيء نفسه ها هنا... إمام أو عسكري، لا شيء للآخرين.

- ...

- كنتَ الاثنين في آن واحد، أليس كذلك، كولونيل في الفيلق الثامن للخيالة وفي الكتيبة السادسة إن كانت وثائقي صحيحة، أعني الأرشيف الذي تركتَه، ثم أصبحتَ رجلاً تقياً إلى حد ما بعد التغيير الغريب لدينك؟

- ...؟

- إن كل ما لا يفسر يعتبر غريباً، هكذا أرى

الأمور. لو كنتُ مكانك لانشغلتُ بالموسيقى ففيها راحة البال، بدل الانشغال بالنبؤات والوعاظ والحروب المقدسة، ولا يكون إذاك خطر على الأطفال.

- ...

- أنا ضد الإسلام، أتظن ذلك؟ إني متعبة فقط من الحقيقة.

- ...

- أحياناً، نجد أنفسنا على الطرف الآخر...

- ...

- أنا عصبية، شريفة تركتني.

- ...

- على حد قولك، لا جديد تحت الشمس.

- ...

- ممم

- ...

- كان لديها كل شيء، إني أحبها، أنا في حاجة إليها... إني وحيدة...

- ...

- في الحقيقة؟ لماذا يريد الله بنا ذلك؟

- ... ...

- إذا لم ترعنا عينه، وأمعنّا نحن في الصبر والأناة، فإلى أي مدى تصل الأمور، قل لي! لا،

أرجو أن ترد عليّ في مرة قادمة، لا ضرورة في الاستعجال. اسمح لي بالانصراف".

لم أكن في حاجة إلى فيلسوف يؤمن بالقضاء والقدر بقدر ما كنت في حاجة إلى من يبكي معي بشجاعة. مصطفى كان له الفضل في أنه اقترح عليّ الثورة، وليس هذا ما كنت أبحث عنه، ولكن على الأقل كان يجاريني في أفكاري وليس بصحبة كاثوليكي مدجج بالنياشين، أو بروتستانتي غيّر دينه إلى عبادة الفودو التركي حيث أطلق العنان لأهوائي وشجوني. فأنا أريد حقاً أن أكون جادة ولكن ليس في الأسى.

"اللي بعده".

أما داود اليهودي السفردي فقد التقيت به بالقرب من مخبأ سري، استمع إليّ مطولاً وهو واجم من شدة الشفقة الحقيقية، ثم فاجأني بلا مقدمات، واقترح عليّ فكرة عجيبة: أبيع الدار بعشرة أضعاف ثمنها ثم اشتريها بثمن بخس في غضون أسبوع واحد. اقتنعتُ بالفكرة فوراً.

- "مهم، ولكن كيف يمكن إقناع الغبي الذي يشتريها، قل لي بسرعة، إن قليلاً من المال يرفع لي معنوياتي!

- ... ...، ... ...! ...؟

- يا خبر!
- ... ...
- من حسن إلى أحسن!
- ... ... !
- الخلاصة: أشيع خبراً مفاده أن كنز الملك سليمان مخبأ في داري. وبعد أن أبيعها تأتي أنت الشبح لتسكنها، ثم يأتي المسكين الذي اشتراها مني يتوسلني لأستعيدها منه بأي ثمن...هذه هي الفكرة؟
- ... ... !
- نعم، نعم، ذهب كثير... وألماس أيضاً، ولكن نقول بأن الكنز تركه بربروس، ابن عم مصطفى!
- ..."

وأدرك كارباتوس الذي كان يصغي للحديث غير بعيد سبب آلامه، وفهم أن أسباب غلاء العقارات لم تكن عفوية يوم نزل أول مرة بميناء الجزائر. إن الأمسية ستكون ساخنة وما علينا إلا تفاديها.

وصادفتُ في ما كانت تدعى العيادة الدكتور مونتالدو، وهو منهمك في مداواة مريض خفي. إنه دائم الكد والجد، هذا الرجل الطيب، وهو ممن يدركون بأن سر الكهنوت لا ينتهي بانتهاء الحياة. وبمجرد أن لمحني بادرني قائلاً:

"أنتِ، مريضة! ما هذه الزرقة حول عينيك!".

إنها الصيغة السحرية، فلقد شعرتُ بعدها مباشرة بأني مريضة حقاً، أعياني المرض، وانتهيتُ والسلام. ولكن حاولتُ أن أخفف المأساة.

"لا، لا بأس... معنوياتي فقط...

- ...؟

- النوم، أنام، ولكن...

- ...؟

- نعم أشعر بلساني متخشباً...

- ...؟

- تأتيني أفكار سوداوية، أشعر بالذنب... شريفة....

- ...

- تعبتُ من الشراب المنقوع.

- ...

- أين يمكن أن أجد الهواء العليل؟

- ...

- ياه... كل هذه المسافة!

- ...

- شكراً، دكتور... كم الحساب؟

- ...

- ولو، العمل عمل، حتى لو كان افتراضياً."

ماذا يمكن أن ننتظر من الأموات؟ نصائح مبهمة،

اعتبارات عفا عليها الزمن، إحياء الأحلام المحطمة، والمحاولات الفاشلة، وعمليات تطبيب تجاوزتها الأحداث. إن أرواحاً بهذه الشاكلة لا بد أن أتخلص منها.

أحب الأشباح التي آويها في بيتي، ولكن عندما تكون الأمور على ما يرام. ولكنهم في هذه اللحظة يثيرون انزعاجي. إنهم يتنفجون عليّ! فلا واحد منهم حدثني عن شريفة أو بالكاد. إنها غريبة عن الدار ولا جذور لها في جدرانها، فهم لا يحسون بوجودها، وكل هذا الكلام الفارغ، مع أنها مكثت في البيت اثنين وأربعين يوماً، وهي مدة تفوق عدة الحداد الشرعية. يا لهم من كسالى، سأطردهم، وفي يوم من الأيام أستدعي مصلحة نقل الموتى وأصرفهم عني نهائياً.

وفوق ذلك كله فهم متزمتون! أين نساؤهم، وبناتهم، وأخواتهم، وخليلاتهم، وخادماتهم؟ أليس لهن حق في الرجوع، أم ماذا؟

هرولتُ نحو أبي وأمي وياسين. انشرحتُ لهم. هل فهموني؟ لا، إنهم يلومونني على ترك سفيان يسافر والتعلق ببنت من بنات الشوارع. أبي ليس راضياً عن طريقتي في فهم أمور الدنيا، فهو قبائلي خالص وعقله بليد. أما أمي فلا تحسن إلا التنهيد، لذا يقوم أبي

بالكلام أصالة عن الاثنين. وأما ياسين فلا يكترث للموضوع إطلاقاً، ولقد كانت تلك سيرته عندما كان حياً يرزق. لقد تحدثتُ إليهم في هذا الموضوع وفي ذاك؛ أمي التي كانت تستقبل القطط التائهة ثم انتقلت إلى استقبال كل أجرب وبعدها إلى كل مريض بالسل. وأبي الذي كان يبحث عن رفاق السلاح الذين اختفوا إبان الحرب أو بعدها وعيناه دامعتان على صفحات الجريدة، وياسين الذي كان متيماً بعشق مجرد سيارة خردة... لا طائل من وراء كل ذلك، فبنت الشارع تظل بنت الشارع.

لقد أصبحتُ وحيدة، نهائياً وبشكل فظيع.

يا إلهي، ماذا يكون الزمان قد فعل بوالد شريفة؟ قد تكون الساحرة زوجته سحقته أو حولته إلى واحد من الإسلاميين ولا شك أنه لم يعد يذكرها. يا له من تعيس، من لا بنت له فلا كرامة له.

ما هي الكلمة التي قذفتُ بها في وجهها؟ سامحيني، شريفة... أحبك... أين أنتِ؟ ...

كنتُ أطرح السؤال على نفسي مستفسرة إن كانت حياتنا هي ملك لنا خالصة أم هي ملك الآخرين، أولئك الذين يمنحوننا إياها أم أولئك الذين يسلبوننا إياها. لستُ أدري بالضبط ولكن لي جواب معاكس

على ذلك: لما نكون نحن فقط أسياد حياتنا فمعنى ذلك أننا إما وحيدون، وإما ميتون.

مرت ثلاثة أشهر على هذه الحال حيث كنت أسبح في الجنون أو ما شابه. لم أر أي شيء يبشر بخير. إنني قوية رغم الداء والأعداء، كما كنت في الماضي، وحيث أنني اليوم أتحدى العالم وأستطيع الانعتاق بنفسي. ولكني وقعتُ في الهذيان بينما كنت أعتقد أني أسمو في المعاناة. هل انقلبت عليّ الوحدة والوحشة؟ قد تكون الأمور مستقرة على ما هي عليه ولا شيء يتغير ما عدا الأيام التي تمضي وأنا ماضية في الهمهمة في الفراغ.

تعتل صحتنا بسرعة مذهلة وننهار عندما يضيع منا خيط الزمان، ويصبح العيش مهمة صعبة وشاقة!

إياك أن تستسلم للأحزان.
إياك أن تنبهر بفراغ المكان.
فبالسهو دائماً
نفقد الحياة.

لقد حدث أن كتبتُ هذا الكلام.
فأنا لستُ مؤمنة ولكني أتساءل لماذا لا تنزل علينا رحمة الله.

لم يكن يوماً كسائر الأيام
أهي الأرض انشقت
أم السماء استعرت؟
صار كل ما فيها عاليها سافلها
هرولت البشريات نحو مخابئ غير محتملة
وفي إثرها الأنعام وقد سبقتها النار
وقال قائل:
"يا إلهي، ما هذا كله؟"
بعد ثلاثة ملايين سنة
مازلنا نردد ذات الصوت المكتنف بالأسرار
كلما وقعت السماء على هاماتنا
وانشقت الأرض تحت أقدامنا.
الجديد أن وجود الله بان
هو الذي استعمرنا في الأرض
وهو رب السموات والأرض
وفي كل يوم تدك بيوتنا
أو تهوي على رؤوسنا
ترضى عنا عندما نتضرع إليك
ونحن نجري إلى المخابئ.
أذن، يا إلهي، أرجوك وأتوسل إليك.

تدخلت المصادفة في اللعبة، وأخذتْ تحرك السكين في الجرح فتثير الأوجاع. وحدث ذلك عن طريق القناة التلفزيونية، "آرتي" ذات النزعة الإنسانية حسبما تدّعي. نسيتُ التلفزيون، رفيق الدرب، منذ غادرتْ شريفة الدار، التلفزيون الذي التهمه الغبار، وفي ذلك المساء عدتُ إليه بالمصادفة أيضاً، حيث مرّ مجرى هوائي بالجوار فاشتغل من تلقاء نفسه بصورة آلية، أو كما لو كان يريد التحدث إليّ. ومع الصور الأولى لاحظتُ أن الموضوع يعنينا خصوصاً، لأنَّ الحديث يتناول الناس الذين لا أرض لهم، الحراقة، والذين لا يتعبون من حرق الطريق. وانتقلت بنا قناة "آرتي" في سلسلة التحقيقات الكبرى التي أنجزتها عن مآسي العالم إلى قرية إفريقية ضائعة في التينيري، عبر السهوب المترامية الأطراف في الساحل، إلى أن وصلت إلى تامنراست حيث استراحت الكاميرا قليلاً لتصفّح وثيقة السوابق العدلية للنظام الجزائري، الذي يعتبر الحلقة القوية في شبكة التهريب المنتشرة في

إفريقيا الصحراوية وما دون الصحراوية، ثم انطلقت مرة أخرى تراوغ يميناً وشمالاً في أرض سائبة، في الجزائر والمغرب، في الليل بدل النهار وبعيداً عن الطرق السالكة والمعبدة، سائرة دوماً نحو الشمال الغربي لتصل في نهاية المطاف وقد نال منها الحر والقرف، إلى طريفة بإسبانيا وعلى مرمى حجر من جبل طارق حيث كانت الخاتمة. وهناك كنا نرى رجال الجندرمة بقبعاتهم الغريبة الشكل وهم ينتشلون الجثث الهامدة من البحر بينما وقف في أعلى جرف الشاطئ الصخري قس متعاطف مع قضية الحراقة محاطاً بمناضلات يذرفن الدموع، وهو يبتهل بكل خضوع وتضرع إلى الرب علّه يصغي إلى معاناتهم. لقد كان جو المشهد مهيباً، وذكّرني بفيلم \المهمة، الذي أخرجه رولان جوف، وقام فيه روبرت دي نيرو بدور المرتزق مندوزا الذي تحول إلى يسوعي على إثر معاناة لستُ أذكرها. وبدل أن يقوم هذا اليسوعي بعبادة الرب والتفاني في أداء واجب الطاعة للنظام الكنسي راح يتمرد على النظام ويتبنى قلباً وقالباً قضية هنود القوراني الذين كان يتهددهم خطر الاندثار والزوال بسبب رهانات غامضة وبعيدة بين الكنيسة وملكيْ التاج الإسباني والبرتغالي. وفي النهاية يموت البطل بالرصاص، ويموت هنود

الفوراني أيضاً عن بكرة أبيهم، ويستقر النظام الجديد بكل بساطة في أمريكا الجنوبية. إنَّ القصة كانت فظيعة إذ تم تصوير مشاهدها في مناطق خلابة، وتذكّرتُ إذّاك رواية اسم الوردة التي تروي لنا قصة رجال دين أشداء وجهلة يعقّدون حياتهم إلى حد الجنون لتدبير مؤامرات اغتيالات مجنونة في معبد في هيئة متاهة وثنية. ولكن، هل يُعقل أن يقتل الناس لا لسبب إلا لأنهم اكتشفوا أن الضحك ممكن؟ يا للفظاعة والفظاظة! كنا قد توقفنا في طريفة. نعم، كانت توجد من ضمن الجثث ناجية واحدة، امرأة سمراء البشرة وحامل لشهور عدة، كانت جميلة ومشرقة كالشمس، ولم تكن أكبر سناً من شريفة ولكنها كانت أطول منها بذراعين. كانت عيناها تلفان ككرة لعبة اللوطو في داخل العلبة الزجاجية. فهي لم تكن تلوي على شيء، تتساءل، تتلعثم، ترتعش، تنحني، تريد الهروب ولكن لم يكن لديها من القوة إلا للتشبث برئيس الجندرمة. إثر ذلك، تقدم مسؤول أبله على كتفيه رتب، باسم المحافظ، ليشرح أمام عدسات الكاميرا بأن الناجية سوف ترحل إلى بلدها بمجرد أن تضع حملها. يا لغباوته، ومن أين له أنْ يدري أنّ لها بلداً أصلاً!

وانتهت المأساة بالنسبة للمشاهد الكريم، يمكنه

الآن أن يطفئ الجهاز ويأوي إلى النوم، أما نحن، الناس الذين لا بلد لهم، فقد بدأ لدينا التساؤل الحقيقي.

لم يحدث أن تأثرتُ مثل هذا التأثر أمام تحقيق تلفزيوني وذلك لكوني معنية بالموضوع، ولكونه عرف كيف يبيّن بدقة الصعاب والأهوال التي يمكن أن يفرضها البؤس على كل من يجرؤ على الإفلات منه. إنَّ المأساة لن تنتهي، فعند كل منعطف طريق تأتي الضربة القاضية الكفيلة بهلاك وحش الكركدن. وهكذا يفعل البؤس فينا، في الواقع، فعل الرمال المتحركة، نغوص فيها ويمتصّنا ما في داخلها. فسواء تخبطنا أو استصرخنا طلباً للنجدة أو ربّعنا الأيدي، فالنتيجة واحدة. إنَّ الحراقة يدركون ذلك جيداً ولكنهم يدارونه عن أنفسهم وعن بعضهم بعضاً، ولكنهم ينجرفون نحوه شيئاً فشيئاً، وكلما ثقل وطء القدم أحسوا بضرورة الاقتصاد في الكلام والحركة وفي التفكير بلا شك. إنهم يسيرون كالأموات ولكنهم يحتفظون بالإيمان، إنهم يمضون إلى حيث تنتظرهم الحياة: أرض الميعاد.

يا له من حلم لذيذ، ونحن نكاد نشعر بالرغبة في اقتفاء أثرهم.

ها نحن في نقطة الانطلاق، في مكان ما بوسط

كفر صغير في التينيري. الشمس تتوسط كبد السماء، ولا تكاد تغرب أبداً في هذه الربوع الجهنمية. تدور الكاميرا بزوايا المكان وأركانه: يوجد عشرة أكواخ مغروسة في الأرض حسب تقليد أزلي، ومطمورتان للغلال تشبهان بيوت نمل مهجورة، وما يشبه الزريبة حيث ربضت هياكل عظمية لبهائم ذات قُرون لاجترار ما تكون قد علفت، وبناية مركزية بحطب مدور وتراب مدكوك لم يتبين محل استعمالها (مكان للعبادة، قاعة للحفلات، أغورا للاجتماعات، مدرسة؟). أما النسوة فكنَّ باهرات في عريهن وغير مكترثات يهرسن الذرة البيضاء، وقد تجمع الصبية حولهن وأرجلهم في الرمل يلهون واجمين بسرتهم أو يحفرون في أنوفهم الخنس التي تحولت إلى خلايا للذباب، بينما كانت الكلاب القذرة تجري في مهب الريح أو تفتش عن بقايا الأكل في الفضلات؛ وعلى طرف القرية استلقى تحت شجرة نخرة شيخان جفت فيهما نضارة العمر ينتظران الموت وهما يدردشان في ما بقي لهما من وقت. وهكذا دار حديث ذو شجون بين الكاميرا والنسوة.

- أين الرجال؟
- ذهبوا.
- إلى أين؟
- لا ندري.
- لماذا ذهبوا؟

- للبحث عن العمل.
- أين؟
- لا ندري، في إفريقيا، في أي مكان.
- لماذا القرية بعيدة عن كل شيء في الأرض؟
- لا ندري.
- أهي الذرة التي تهرسين؟
- نعم.
- صعب؟
- لا.
- أأنتنّ سعيدات؟

سكوت. الكاميرا تنتظر الجواب، ثم تركّز، في زوم أمام، على وجه المرأة التي لا يبدو عليها أي سن وتكبّره وتلح في الحصول على الجواب. ويأتي الرد أخيراً: لا ندري.

ولما شعرت الكاميرا بالإحباط، قامت بتصوير شامل للكفر، وكانت تلك حركة خبيثة لإظهار مدى امتداد نطاق الجهل الضارب أطنابه في صحراء لا يربطها أي شيء بالعالم.

ثم اقتربت الكاميرا من شابين يافعين، وهو منظر غير مألوف في قرية لها عمر الأرض، لم يكن لهما من حلية ثمينة إلا بياض أسنانهما وسروال جينز رث وحذاء

من قماش، وبعض شعرات في الذقن، مع الإشارة إلى أن الزنوج لا ينبت في ذقونهم شعر كثيف. وهكذا استدرجتهما الكاميرا إلى سقيفة مائلة ملائمة للإسرار والنجوى، أصبحا في مواجهة عين الآلة الصامتة وشعرا بأنهما غريبا الأطوار، لا حيلة لهما وعديما الجدوى. وعندما أصبحت أكثر صرامة انطلقا في الحديث مرة واحدة وفي آن واحد. لقد كانا على أتم الاستعداد للقيام بالرحلة الكبرى، وما فتئا يجمعان المال فلساً فلساً، لأن المهرّب يطلب ألف دولار عن كل رأس. وتنتفض الكاميرا وتسألهما: "ألف دولار، ومن أين أتيتما بكل هذا المبلغ؟" واعترفا لها بأنهما كانا يصطادان في حظيرة الإنجليزي المحمية وحاولا المستحيل هنا وهناك. وأضافا بكل فخر واعتزاز: "إن لنا تعويذات لا يخر منها الماء". لقد كان المهرّب ينتظرهما في برج باجي مختار، على الحدود الجزائرية، حيث ينضم إليهما العابرون السريون للحدود القادمون من بلدان أخرى، وقرى أخرى، وبؤس آخر، وبالتالي عليهم جميعاً أن يقطعوا ثلاثة آلاف كيلومتر، ألفين منها في التراب الجزائري تحت وابل رصاص مسؤولي الحكومة والجماعات الإرهابية، والألف الثالث في المغرب حيث لا تنام عين الشرطة طرفة عين. وهؤلاء يجب أن يأخذ كل منهم في الحسبان حقوق البقشيش والنخاسين، إذ إنهم ينتظرون عند نقاط

العبور التي يعرفونها كما يعرفها المهربون، ثم يأتي دور اجتياز المضيق على زوارق تم صرفها من الخدمة فاشتراها أصحابها بخمسمائة دولار للقطعة، وعليهم أن يجمعوا ثلاثين منهم لجمع المبلغ المطلوب، ثم يسلّم المهرب الجزائري العهدة إلى الوسيط المغربي الذي يقبض مقابل الإبحار ومدّ الإشارة في اتجاه القارة، ويكون المهرب الإسباني في الانتظار على الضفة الأخرى.

- لكما علم بكل هذه الأمور ومع ذلك ترحلان؟
- نعم، نريد أن نعيش (ضحك).
- هل أنتما خائفان؟
- قليلاً (ضحك).
- هل يمكن أن نتبعكما ونصور الملحمة؟
- إذا شئت (ضحك).

أعرف كل ذلك ولكن الأمر يثير فينا الصدمة، فالصورة تضفي على الكلمات بعداً آخر مفاده أنّ المجتمع الإفريقي تضعضع بصورة مهولة، والظاهر أنه كان دوماً على هذه الحال. هناك مجتمع للنساء يقوم على سجنهن في العزلة وتسليحهن بالصبر، وهناك مجتمع الرجال الساعين وراء غريزة البقاء، ومجتمع الشباب القابع على ربوة حلم الأرض الموعودة إضافة إلى مجتمع الأعيان المنغمسين في النهب والسلب. تلك

العوالم التي لا تلتقي أبداً، ولذلك يصبح الحديث عن الديمقراطية في بلداننا كالحديث عن أشياء خرافية، إذ أن كبار السحرة عندنا ليسوا مستعدين لتصور مثل هذه الآلية.

لم توفق الكاميرا في هذا الموضوع، فإفريقيا ليست موجودة ضمن مجال جاذبية الديمقراطية، هذا كل ما في المسألة، لهذا فإنها اكتفت بالتلميح فقط بأن هوة مقدارها آلاف السنين الضوئية لا يمكن القفز فوقها بمجرد خطوة في الأدغال. وقد يتصور المشاهد أن الأمور موجودة بهذا الشكل فقط لكوننا أردناها أن تكون هكذا، وبأننا نريد المجاعة والحروب، ولكن هناك النظام والدين والعادات والمناخ وهلم جرا. إن كل ذلك شديد الوطء، أما في الجزائر فظهرت الكاميرا بصورة مباشرة وتطرقت إلى الوضع القائم وذكرت بعض أسماء السادة الأكثر فظاظة وتفاهة على سطح الأرض، وأوردت اسم شخص من ضمن الكومبارس يدعى الحاج سعيد المدعو بوزهرون، أو المحظوظ بعبارة أخرى.

لقد بدأ بطلانا، اللذان يسمى أحدهما أحمدو والآخر أبو بكر، رحلتهما في اتجاه طريفة، بوابة الأرض الموعودة حيث كان الوقت فجراً وما زالت

المفازة ترتعش من هول كوابيس الليلة الليلاء عندما بدأت أشباح شاحبة اللون كالخيال تتجمع تحت السقيفة ثم دبت الوشوشة. وفجأة، أضاء مصباح كاشف ومزّق رداء الظلمات، واستغلت الكاميرا اللحظة الموعودة، إنه اليوم المشهود. إن لكل المغامرات الخارقة للعادة تلك اللحظة العادية جداً وغير المنتظرة حيث ينقلب كل شيء إلى أمر مجهول. لقد توقفت النسوة عن هرس الذرة البيضاء، وراح الصبية يهزون رؤوسهم لطرد النعاس من جفونهم، وكفت الكلاب عن العواء كالذئاب، وازدرد الشيوخ ذكرياتهم، وأخذ الجميع يسترق السمع. كانوا ينظرون إلى الأشباح وهي تنطلق لتتلاشى في الأفق في مشهد باهر ونادر؛ فلا كلمة صدرت ولا حركة بدرت ولا تنهيدة صعدت، عدا الزمجرة الاستشباحية للقارة الإفريقية القادمة من بعيد ، من بعيد جداً.

سارت الكيلومترات الأولى على قدم وساق، وظلت المفازة التي مداها الآلاف من الكيلومترات من الاتساع جامدة هامدة. وبعد مسافة من السير أدرك الفريق سيارة قديمة جداً تعود إلى عهد ما بعد الطوفان تسير الهوينى بين قطعان بقر النو والظباء، وهي ممتلئة عن آخرها ومعيبة من كل جانب.

لقد توقفت القافلة في إحدى الحانات المشبوهة الرابضة في مكان قفر في وسط اللاشيء حيث الناس يبتلعون الغبار بالسطل، وهم يتكلمون لمجرد تسريح الرقبة. وهناك أجريت عملية حسابية: مائة كيلومتر من المسافة قُطِعت، بقيت ثلاثة آلاف وتسعمائة كيلومتر في وهج الحر، إن لم يكن أكثر، لأن الرحالة لا يعرفون بالضبط كم من مرة سيتيهون ويهيمون على وجوههم. وهكذا ينفجر القوم ضاحكين لهول التحدي اللامعقول والفشل الذي لا يجوز تصوره أبداً. بعد ذلك، بصق صاحب الحانة المشبوهة في الهواء ثم انشغل بما يعنيه، وانطلقت المسيرة مرة أخرى بعزم أكبر. وأخذت الكاميرا تتفحص الأفق، وهبّ غبار العجاج من ناحية مرعى بقر الوحش، وارتفعت درجة الحرارة إلى مستوى الانصهار، وغطى كل نفر وجهه بردائه وصار الجميع يتفادى التنفس. لقد كان ذلك الاحتياط عديم الجدوى إذ أن غبار الصحراء لا يعترف بالحدود، ولا يستعمل إلا تلك الحيل التي تعوّد عليها، إذ سبق أن قرأتُ ذات مرة في مجلة العلم والطبيعة أنه يمكن أن يصل حتى إلى الأمازون. بعد ذلك كان التوقف في ظل معلم صخري صاغته يده الطبيعة على مدى آلاف السنين من الزوابع الحارقة، وقضى الفريق ليلته تلك هناك حيث عاش الجميع ليلة الكوابيس، فالأدغال كاملة مكتملة وهي عبارة عن صرخة قادمة من بعد سحيق، من

أحشاء الأرض، ترددها آلاف الحناجر العطشى للدم. وبعد أيام، ومع طلوع الفجر، لاحت قافلة في الأفق. يا له من منظر جميل! إنها تسير نحو الشمال، يقودها الغيب. لقد تم اللحاق بها، وجرت بعدها دردشة مملة مع شيخ القافلة حول إبريق من الشاي لهذا الشخص صفة كل الغلة، وهو من الأعيان الذين يعود نسبهم إلى ثورات قديمة جداً. مدّثر إلى أذنيه ولا يبدو من وجهه سوى عينين شبيهين بالزجاج يتخيلهما الناظر كأنهما مسكونتان ببرودة الصحراء.

- هل أنتم ماضون في اتجاه الشمال؟

- نعم، نحو تامنراست، سينظم فيها الأسيهار عند ظهور الهلال القادم.

- هل يمكن أن نسير معكم؟

- هذا سبيلنا لكن الصحراء لمن يعرفها.

- إذن، هل ننطلق؟

- ما دام ذلك من مشيئة الله.

- ما هو الأسيهار؟ تسأل الكاميرا.

- إنه معرض سنوي يشارك فيه كل توارق العالم من الأزجار إلى الأهقار إلى الأولميدن إلى المورينين والإمهاق، يأتون من كل زوايا الأرض السبع، من موريتانيا إلى السودان، ومن الجزائر إلا السنغال مروراً بليبيا والنيجر ومالي وساحل العاج وبوركينا فاسو، إلى غاية أقاصي إمبراطورية التيبستي.

- لا شك أنه شيء جميل!

- إنها التقاليد، نتبادل، نتحدث، نحيي أمجاد السلف. إننا قادمون من الجنوب، من تومبكتو، وأنتم؟

- من مالي.

- وأنت؟

- من باريس.

- بم تقايضين؟

- لا شيء، بعض الأمل والمحبة إن أمكن، إننا نسير نحو برج باجي مختار، لزيارة صديق عزيز.

- هل لكم كل ما يلزم حسب الأصول؟

- إيه... لم؟

- إن الجزائريين حريصون كل الحرص مع الأجانب، فهم لا يحبونهم، يقتلونهم كلما ثقفوهم أو يطلبون منهم كومة من الوثائق النادرة وفدية فوق ذلك.

- وأنتم، كيف تتصرفون؟

- الصحراء ستظل دارنا طالما امتدت تحت الشمس، ولا حاجة لنا في الوثائق، بل هم من يجب أن يقولوا لنا من هم ومن أين جاؤوا.

كانت رحلة الهجانة تسير سيراً حثيثاً، والإبل ترغي لمجرد الزعيق والإزعاج لأنَّ الصحراء لم تعد تسحرها منذ زمن بعيد. كانت القافلة تشعر برفقتهم بالأمان، فاسترجع أحمدو وأبو بكر بعض القوة، وصار لهما

أصدقاء من بين التوارق الرفيعي القامة من الذين رأوا النور من أعلى الهودج، ولا يسايرون توجهات العصر في العالم. تحدثنا إليهم عن أوروبا، وعن متعة العيش، وسعادة الحب، وعن أشياء كثيرة يتعذر على تارقي أباً عن جد منذ آلاف السنين أن يتصورها: الميترو والضمان الاجتماعي وسباق السيارات والثلج والسينما وحفلات عيد الميلاد والشرائح الإلكترونية. ولكن الحديث كان يدور لمجرد الدردشة لا غير، إذ ليس من الضرورة أن يعلم الجميع بكل شيء. وطُرح السؤال: وماذا يتبادل رؤساء القوافل هناك؟ اقتربت الكاميرا باهتمام وفضول. الجواب: هناك، لك كل شيء، ولا حاجة لك في أي شيء.

وافترق الرفاق على تخوم الحدود الجزائرية.

– ها قد وصلتم أيها الإخوة، إننا ماضون نحو تامنراست.

– ونحن إلى برج باجي مختار، أين هي، فنحن لا نراها؟

– هناك، تحت أعينكم!

– ولكن لا نرى شيئاً.

– إنها على مسافة يومين من السير في اتجاه الغرب، هذا كل ما في الأمر!

– شكراً، أيها الشيخ الفاضل.

- إذا اعترضكم الجنود، قولوا لهم إنكم ذاهبون إلى الحاج بوزهرون، سيرافقونكم بقية المشوار ويزودونكم بالماء والطعام.

برج باجي مختار، أو "ب.ب.م" كما يسميها أهل الشمال، مدينة كبيرة يبدو أنها نبتت من لا شيء وبسرعة مذهلة. إنها عبارة عن فوضى وما شابه، بيوت لم تكتمل وأخرى اهترأت، مسالك من الصفائح المتموجة الخطرة على صحة الإنسان، شاحنات صدئة متآكلة، إبل كرهت العيش، ماعز تائه، كلاب ضالة، رجال درك شرسون، والكل غطاه غبار سميك أتى من الشمال.

كان مكان اللقاء الموعود في مستودع المدعو الحاج سعيد، الشهير ببوزهرون. والذي لا يفارقه منظاره أبداً وهاتفه الخليوي من آخر طراز. وجدتُ فيه شبهاً غريباً بسيدي سعيد، المدعو سعيد الحظ، أخ رئيس الجمهورية ومستشاره، الذي هو الآخر لا تفارقه نظارات التزحلق على الثلج وهاتف الإرسال والاتصال، ولكن يخلق الله من الشبه أربعين. كذلك علمت الكاميرا التي تجولت في جميع أرجاء المدينة، بسرعة خاطفة أن أمير المال العظيم هذا كان إرهابياً أميراً للحرب في السابق وتفاوض مع القيادة العليا،

ونظراً إلى خدماته استفاد من احتكار الترابندو على مدى طول المنطقة، من برج باجي مختار مروراً بباماكو وصولاً إلى نيامي. وكان يمتلك قافلة مقدارها مائة شاحنة وميليشيا من زهاء ألف مسلح ويتمتع بسلطة تعبئة الجيش والجمارك في حالة الحرب. أما في الصفقات الكبرى فكان لا يتردد في مهاتفة العاصمة في الموضوع الفلاني أو العلاني، وصولاً إلى أرفع اسم في القائمة. ولم تتوقف الكاميرا عن البحث والتحري، وحصلت على ما تريده من شيخ كان مستلقياً تحت حائط يجري ترميمه، وهو يدغدغ آلة إمزاد، وهي عبارة عن كمان بخيط واحد مثبت على هيكل سلحفاة. فبادرته بوجه بشوش:

- هل لك علم بما يجري في البلدة؟

- اذهبوا إلى لاوني، وستعرفون الحقيقة.

- وأين تقع؟

- على مسافة ثلاثة أيام من السير.

- لاوني؟

- نعم، لاوني، منجم الذهب.

- وماذا بعد؟

- إن الذهب المستخرج من المنجم ينقل إلى مطار تمنراست ومنه يشحن إلى الجزائر.

- وأين وجه الغرابة؟

- الذهب لا يصل إلى تام (تامنراست) فسعيد

الذي تقيمون عنده يستحوذ عليه لحساب أصدقائه ذوي المراتب العليا.

- وبالعربي الفصيح؟

- هذا غيض من فيض، الجزائر تنفي وجود قاعدة عسكرية سرية في المنطقة، بينما كُلف سعيد بتموينها سراً. لذا فالدولارات تتهاطل عليه.

- ولكن، قل لي، إنك على اطلاع بأمور كثيرة، وفي باريس لا علم لهم بأي شيء!

- طبيعي، فأنا أقوم بمهمة الدليل من مرة إلى أخرى لصالح سعيد والأمريكان.

وتكاثر القوم عند سعيد يوماً بعد يوم إلى أن صاروا دزينة، وفقد أحمدو وأبو بكر مكانتهما في الشريط، وراحت الكاميرا تنقل صور القادمين الجدد، شباب مردة، صورة شاب من مالي وآخر من النيجر وثالث من غانا، وشابين من طوغو منهما البنت الحامل، وكذلك من السودان ومن ساحل العاج وآخرين من السنغال والكونغو وغينيا، وكان الثلاثة الأخيرون قد وصلوا من أحد الطرق القادم من ڤاو وهي الحاضرة الكبيرة الثانية بعد تامنراست، حيث كلهم يجْرون وراء ذات الحكاية، يبحثون عن الأرض الموعودة والمأساة، وهم لا يدركون ذلك في الوقت

الحاضر، أنهم انطلقوا من مكان بعيد جداً لمحاولة تحقيق حلمهم كله مرة واحدة في هذه الحياة.

وريثما يصل المهرّب، قام سعيد بتشغيلهم لدى مسؤول الجمارك، يرمّمون له سقف الدار مقابل القليل من الخبز وربع ليتر من الماء، ويتحدث إلى الكاميرا وهو في مظهر السامري فاعل الخير: "يجب أن يكونوا أهلاً بلقمة العيش". واغتنمت الكاميرا الفرصة لتضايقه نوعاً ما:

- كم تربحون من نقلهم إلى طريفة؟ يقال إنكم تجهدونهم إلى درجة لا تطاق وإن الكثير منهم لا يصلون أحياء.

- إنها مجرد أقاويل، إني أقوم بهذا العمل بدافع البر والإحسان. إنهم يريدون أن يتمتعوا هؤلاء الكحلان المساكين، ولذلك فأنا أساعدهم.

وهنا وصل المهرب ونزل من سيارة لاند روفر، وأرخى الكوفية التي يتلثم بها لاحتساء الشاي. يا له من قذرا لقد وصل من رحلة قادته في مهمة لا يريد الإفصاح عنها، بينما تُمْعن الكاميرا في الإلحاح؛ فيقسم: "إني كنت في نزهة استجمام لدى بعض الأصدقاء في تام"، ويرمق بنظرة جشعة زبائنه المنتظرين. وفي المخيم، دار الحديث كثيراً عن

المرتزقة الأوغنديين الذين سلّموا إلى القذافي الذي كان يتململ، ويقال إنه يريد فتح جبهة جديدة. غريب أمر الاضطراب الذي يعتمل في الصحراء!

واستيقظ الجميع في فجر اليوم التالي على وقع الأحذية المدوية، وتم شحن المهاجرين غير الشرعيين في صندوق الشاحنة ووُضع عليهم غطاء سميك وانطلقت الرحلة، في حين استأجرت الكاميرا عربة الدفع الرباعي تويوتا 4×4 المكيفة مع سائق ودليل. ولم يُذكر السكريبت أي شيء، ولكن العربة كانت هدية من سعيد، حيث كانت تسير في إثر الشاحنة تارة أو تسبقها تارة أخرى لضرورة اختيار المشاهد، بينما كانت القافلة تثير جبالاً شاهقة من الغبار. ولم يكن أحد ليكترث للأمر، فالميدان كله تحت السيطرة، وسعيد موجود في معاقله على مدى شعاع خمسمائة كيلومتر، والموكب يمر بالحواجز العسكرية بتعظيم السلام. ولما تقدم أكثر إلى الشمال، تغيرت منطقة النفوذ وانحرفت الشاحنة إلى المسالك غير المعبدة عند الاقتراب من نقاط التفتيش. أما سائقو الشاحنات المنضوون تحت لواء هذا التنظيم أو ذاك في المافيا فكانوا يتضامنون فيما بينهم في وقت الشدة، ويخبر بعضهم البعض الآخر بالمخاطر بواسطة الإشارات الضوئية المنطلقة من شاحناتهم.

فإشارة ضوئية واحدة إذا كان الخطر على بعد كيلومتر واحد وإشارتان إذا كان على اثنين وهكذا دواليك. وأحياناً كانوا يتوقفون، ويتجمعون ويخططون لمعركة المرحلة القادمة. وبعد أن تضع المعركة أوزارها يتفاوضون حول إبريق شاي. ولحسن الحظ، كانت عربة التويوتا التي قامت بافتعال عطل وهمي تراقب عن بعد حفلة جمبوري رائعة كانت تجري وقائعها حول النار تحت سفح جبل فور صغير.

كان الحراقة ينحبسون وينكمشون كلما خففت الشاحنة سرعتها أو انحرفت عن المسلك، إذ كانت الحكومة لا تتساهل مع المشردين الأجانب، وكانت توسعهم ضرباً وتهدهم بعد أن يقضوا وقتاً للعمل لمصلحة القيادة. وذلك كان من قبيل المزايا العينية الممنوحة للرتباء، فكلهم يمتلكون إما واحة نخيل وإما سقيفة في حاجة إلى ترميم.

ولمّا وصلت القافلة إلى أبواب الوادي، المدينة ذات الألف قبة، توقفت لوقت قصير عند أحد المرابطين المشهورين في منطقة السهوب كلها؛ إنه شخص غريب الأطوار، قزم عجوز عبارة عن سقاطة صغيرة، شديد التطاول والتكبر، يدعى سيدي عبد العزيز المكنى بالمهدي. فذلك الحيوان كان يشخّ

بعيداً، وصيته ذائع في الآفاق، وترهاته تنتقل من دوار
إلى دوار ويستهلكها الناس كاستهلاكهم الحليب الرائب.
كذلك تعدت شهرته الحدود ووصلت حتى مدينة
نيويورك حيث كان يتساءل الناس هناك إن كان ما
يسمع يباع أو يشترى. إنه بالنسبة للبعض عبقري زمانه،
ومجرد نصّاب بالنسبة للبعض الآخر. وقلتُ في نفسي
وأنا أشاهده يتهزز حول قبته مردداً الأقوال السرية لأهل
الزوايا الطرقية: "إنه يبدو مجنوناً، ولا شك في ذلك".
وبعد مدة قصيرة من المؤامرات على انفراد بين المهرب
وسيد المقام تصافح الاثنان بحرارة، ثم بإشارة سريعة
من إصبع المهدي أطل من بئر مخبأة وراء شجر الصبار
اثنا عشر رجلاً نحيلاً، كانوا يشخون ماء كالإسفنج
ومذعورين ولا يكادون يبصرون. إنهم شباب من منطقة
الحقول الغنية بالبترول، ثائرون ضد البؤس ومطلوبون
من الشرطة ومن الأمريكيين؟ كانوا يطالبون بالعمل وهم
يرفعون لافتات على مدخل قاعدة حاسي مسعود وعانوا
الأمرّين للوصول إلى مكان اللقاء، ولم يكن لهم من
عفش إلا الثياب التي يلبسونها. إثر ذلك قرر المهرب
قائلاً: "سنواصل السير مشياً على الأقدام وخارج
المسالك المعبدة". فالشمال كالشبكة الرفيعة، فيها
الكثير من حواجز التفتيش والكثير من الجواسيس
والبارونات والأمراء والمجموعات المسلحة والموظفين
الذين لا شغل لهم، والمجندين الملحاحين. يا إلهي،

يا لها من مغامرة خطيرة وكم من حالات استنفار تفتت القلب.

مرت خمسة عشر يوماً على هذه الحال، كانت مقابل قرن ونصف قرن في بلد عادي، وهم يسيرون مسيرة الأموات عند كل إنذار وإنذار وسهرة وسهرة. فلقد صار الفريق غير الفريق وساءت أوضاعه إلى حالة يرثى لها إذ كنتُ أشعر باليأس والقنوط وأنا أشاهدهم يذبلون تحت سمعي وبصري دون أن أتمكن أن أقدم لهم أي شيء.

وأخيراً لاحت الحدود، وراء الأفق مباشرة. على الجهة الأخرى يوجد المغرب، المملكة العلوية كما تسمى لدى السلطات العليا في الجزائر للدلالة على شيء الله وحده أعلم به. إن الأرض هي الأرض، والشمس هي الشمس، والبشر هم نفس البشر يدينون بدين واحد ويطبخون نفس الأكل، ولكن الهواء مختلف، فهناك يسهل استنشاقه، فيشعر المرء بالراحة، يحس وكأنه ولج إلى داخل بطاقة بريدية، من تلك الصورة العتيقة الرديئة اللون الخلابة التي توقظ في السائح الرغبة المفاجئة في الاستلقاء للقيلولة تحت ظل النخيل أو ركوب أول حمار يقع تحت اليد. وعلى طول ذلك الخط غير المحدد بدقة بموجب المعاهدات

لا يوجد إلا التهريب وما شابه، البترول مقابل الكيف، على مرأى العين الساهرة لكلا الجيشين، اللذين يتجسّسان على بعضهما بعضاً بكل ودّ واستئناس، فالوضع هو حالة الحرب بلا حرب، وليغتنم كلّ فرصته، ولتمتلئ الجيوب، ولا ضير ولا ضرار.

كان الحراقة يتقدمون بخطى حثيثة حيث أصبحنا كما أصبحوا هم، متلهفين لبلوغ الغاية، إذ لم يبق إلا منعرج واحد أو منعرجان ونكون قد بلغنا غابة الصنوبر المخربة على مشارف سبتة، المقاطعة الإسبانية، التي كانت تدعى أبيلا في الزمن الغابر.كان يوجد حوالي مائة شاب من الحراقة، بعضهم يمكث في ذلك المعسكر منذ سنين، كذلك بدا عليهم أنهم تجذروا في ذات المكان، وبنوا فيه أكواخاً ونصبوا خياماً ووضعوا سقيفات بسرعة وبلا إتقان، وعلقوا أوانيهم على الأغصان بحيث كانت تطنطن تحت حفيف أشجار الصنوبر. لقد قامت الكاميرا بتصوير ثنايا المكان، وأجرت حديثاً مع هذا ودردشة مع ذاك. وكان كل شيء يدور حول روايات عن الحراقة لا نهاية لها، إذ كانت تجمعهم مزايا مشتركة هي لون البشرة والجنسية والديانة واللهجة المحلية والقبيلة. إنها العنصرية على الطريقة القديمة، يتعايش الناس دون أن يلحظ أحدهم الآخر. لقد فتّحتُ عينيّ جهد استطاعتي عندما راحت الكاميرا

تتفحص الجناح المخصص للجزائريين إذ كانوا كلهم يشبهون سفيان، ذات السن، وذات الهيئة البلهاء والطلة المتباهية، ولكن لا أثر لسفيان. لقد خاب رجائي ولكني تنفستُ الصعداء. لقد كان لكل فريق إقليمه الخاص وإستراتيجيته في البقاء على قيد الحياة ومشروعه في الانعتاق كان البعض لا يتطلعون إلا إلى سبتة، أما الآخرون فكانوا عابري سبيل لا غير، فهم يرومون طنجة، بوابة الدخول مباشرة إلى طريفة. تلك كانت فكرة أحمدو وأبو بكر. لقد جاؤوا من أقاصي الأرض لكي ينصبوا خيمتهم في غابة الصنوبر إلى أبد الآبدين بحيث كانت خاتمة الشريط خاتمتهم. فلقد ماتوا أثناء عبور البحر لما انقلب الزورق بعد تحطمه على حافة الشعب المرجانية. فهم نجحوا في البقاء على قيد الحياة بعدما قاوموا الزوابع الرملية وعبروا الصحراء الشاسعة ولكنهم قضوا نحبهم على مدى ذراع من الماء، على بعد سباحة واحدة من الشاطئ، ولم تتمكن من بلوغ الهدف إلا الشابة الطوغولية، الجميلة مثل الشمس المشرقة في رابعة النهار التي أفلحت في أن تطأ قدماها تراب الأرض الموعودة. ولا شك أن الموت رأى أن أخذ روحين بئيستين بثمن روح واحدة كان إجحافاً كبيراً في حقها.

أتوا جميعاً من بعيد

يحاولون المستحيل
البطن فارغة، والجسم إلى الحق مشدود
وهم يتقدمون
كان الزمن أمامهم قد فات
ووراءهم تراكمت الرفات.

في السماء الشمس تحوم
لا نفسٌ منهم ناجيةٌ اليوم
يجب أن تتوارى جميعها قبل حلول الليل.

إذن صاروا يموتون في خيالهم
والريح جمع عظامهم
والرحى مع الأرض تدور.

وينتهي الفيلم بتسليط زوم وراء على التينيري بينما كانت تنطلق أنشودة تئن بالعذاب نحو سماء لونها أمغر وثقيلة وأزلية، هي أنشودة نواح على الأموات. لقد أغمضت العيون ونحن نستمع إلى إقامة آخر صلاة فتأتي صفحة الإشهار لتزيد رصيداً إلى رصيد الرأسمال الأكبر، ولقد ذكرني كل ذلك بفيلم جان يان "الكل جميل، الكل طيب"، الأنبياء يمرون والإشهار باقٍ.

كنت منهكة متعبة، أشعر بنفسي مقززة، ومحطمة

وضائعة بين التفكير في سفيان وأحمدو و أبوبكر وفي الفتاة الطوغولية المليحة، وفي كل أولئك الذين كانوا يصارعون في الصفوف الخلفية. أما في رأسي فكانت تعشش البلبلة والفوضى، ووميض وبرق، وأمواج رملية بعلوّ جبال الهملايا، ورائحة التغوّط والعرق، ولطخات إشهارية متنافرة الصوت والصورة وصياح مجانين عته. شيء فظيع ما يفعله الصوت في عالم من السكوت غير محبوك. هل لا بد من حب الدنيا كل هذا الحب لتجرّع كل هذه المعاناة. وهل لا بد من حب الموت كل هذا الحب للسعي إلى بلوغها. من أين يأتي الشر؟ ماذا يدور في رؤوسنا؟

وسهرتُ طول الليل مستغرقة في التفكير.

كان لسفيان كل شيء، كان له بيت، وعطفي وحبي، وأصدقاء، وعادات. ولكن مع ذلك، هل يعيش المرء بالحب وبالماء العذب بين أربعة جدران؟ لا أرى ذلك، ولكن أسأل فقط على سبيل العلم بالشيء، وما يقتل حقاً لا ندري كيف نسميه .أهو فقر الأيام؟ أهي الحماقة المكتنفة كل شيء؟ أجل، إنها هي، ولكن يوجد ما هو أكبر من ذلك وأمرّ؛ الاتجار في اللامشروع، الديانة، البيروقراطية، ثقافة الجريمة، الطغيان، العصبة، مدح الموت، تمجيد الطاغية، عشق

البهرج البرّاق، الانبهار بالخطاب الناري. هل هذا كل ما في الأمر؟ بل يوجد المثل السيئ. إنه يأتي من فوق؛ من الحكومة التي تحسب جهلها قطعة ألماس خرافية، وهمجيتها تهذيباً، وعمليات ترقيعها إستراتيجية دولة رائعة، واختلاساتها مرتبات مشروعة. ياه، يا للأنذال، يا للقذارة! والنخبة، الإنتجلتسيا ما رأيها، فأبطالها لم يموتوا كلهم؟ ماذا تظنهم يقولون في السجون، إنهم يطلبون الخبز وغطاء مثل الآخرين! والأبطال، الشداد الغلاظ الذين أبلوا البلاء الحسن أيام الثورة؟ آه، يا عزيزتي، إنهم صاروا أحفوريات ومستحجرات، وذكرياتهم صارت ملكاً لغيرهم أثْرَوْا بها ثراء فاحشاً! هل هذا كل ما في الأمر؟ كلا، توجد الحيطان المتداعية على شفا الانهيار، والكوارث التي عوّدنا عليها الحكم، وكل الكُرب، الكُرب الفظيعة، في حياة معطلة. ما العمل إذن ما دامت كل السبل مقطوعة؟

الموت ليس صفقة
ما دام العيش ممكناً.
مكان هناك يضاهي ألفاً هُنا.
ما دام الأمر فقراً مقابل فقر
وعناء السفر
والأسى والضجر

والخوف من التيه أثناء السفر
وسعادة الإيمان بغد في جوف القدر.
كما الطير
كما الرسل
لنفرد الجناح ولننفض عنا الصندل
ولنمشِ في وجه الريح
ولنحرق الطريق الصحيح
إن أرض الميعاد في الدنيا على مرمى حجر.

وفجأة شعرتُ بأني أصبحتُ واحدة من الحراقة.

لم يسمع على بابي طرق عنيف مثل بوم بوم، ولكنه خفيف مثل طق طق. مثل تلك الدقات التي نسيتها أبوابنا، وأحسستُ بالبادرة وكأنها نفخ رباني. لم يعد يزورني أحد ، ما عدا الأشخاص المزعجين في الحي والغولة وموسى المجنون. إني أستمع إليهم كلهم بانتباه شديد ومجاملة ولكنهم لا يفقهون شيئاً، ويستمرون في اللغط. كما كانت تأتيني في الوقت الموعود ومن خلف رؤوسهم الفكرة المباغتة من أعوان الغاز والماء والكهرباء والذين لا يعدّون في عداد الزيارات، فهم يأتون لمجرد نقل ما وصل إليه العدّاد في سكوت ويعطوننا الانطباع بأننا مجانين. ومن جهتي لم أكن أجرؤ لأسألهم إن كانوا يدركون فعلاً معنى

الفواتير التي تُدفع مقابل خدمات لم تقدم. وكان يأتيني أحياناً الولد المريش وهو يتهادى بطريقة تثير الرثاء ليرى إن كانت حبيبته قد عادت إلى البيت. إنه لا يقول أي شيء، يكتفي فقط بالتنهد بينما تقوم عينه اليتيمة بالبحث عن رجله العزباء، لذلك كان من المؤثر جداً أن أراه يتلوى ليتمكن من حك أذنه المبتورة بواسطة جدعة اليد التي لم يبق منها إلا الكتف، وهو يحاول الحفاظ على توازنه وكأنه فوق حبل. إني أخاف عليه، وأقول لو صادف أن فاجأته عطسة لكان فيها أجله لا محالة. لقد فسّرتُ له أن لا فائدة تُرجى، وأن كل المسألة لا تعدو أن تكون مسألة افتراضية؛ فهكذا هي ذاكرة الجسد، فبعدما يبتر العضو يستمر الإحساس لبعض الوقت، وهو ما يسمى الوضام الحواسي، وهي ظاهرة معروفة وليست وليدة الوقت الحاضر، وفي النهاية، يمكنه أن يعبر عن خجله مني بطريقة أخرى غير محاولة حك شحمة أذنه أو طرف أنفه. إنني كنت أفهمه، إذ ليس من السهولة بمكان على أي كان أن يغير عاداته بين عشية وضحاها. فكرتُ في أن آخذه معي إلى المستشفى وأجهّزه بطقم ولكني عدلتُ عن الفكرة، لأنه في حاجة إلى إعادة ترميم كامل وبذلك لن يكون في مقدوره التعرف على جسمه. فلو جُهّز بكُلاب في طرف جدعة يده فإن الوظام الحواسي سيقتله لا محالة. وذكرني ذلك بالنكتة التافهة: "يا

حضرة! أراهنك بمائة ورقة على أن أبوس عيني اليمنى". ويرد عليه السائح: "ماشي"، ويقف بالمرصاد مزهواً. فيقوم المتسول بنزع عينه الزجاجية ويحملها إلى شفتيه. "والآن، أراهنك على مائة ورقة بتقبيل عيني اليسرى. - مستحيل!" يرد عليه السائح وهو يضع ورقة نقدية من القطع الكبير ويقترب أكثر. وهنا ينتزع المتسول الأعجوبة طقم أسنانه ويضعه على عينه اليسرى. الآن يمكن أن يكسب القط التعيس الحظ عيشه من الرهان ما دامت مهنة العتال ممنوعة عليه. وما عدا هؤلاء، يوجد 235 الذي يحل مرة في الأسبوع وهو ينفخ في بوق الحافلة. لقد كان يأتي للسؤال واستقاء الأخبار وحافلته ملآى بالركاب الذين حاد بهم عن السكة فوجدوا أنفسهم في حارة أخرى. هذا إنسان طيب لطيف ولكنه كان ينسى نفسه، إذ بينما يكون الركاب يكتوون في حر الشمس يجلس هو يرتشف الشراب على راحته، ويحدثني بالتفصيل الممل عن أمه الطيبة. يا له من رجل شهم. كذلك تكلمني صديقاتي أيضاً في الهاتف مرة في السنة للاستفسار بالكلام الجارح الدائم: "وماذا بعد، كيفك؟ - وأنتِ كيفك؟" أرد عليهن هكذا من باب مبدأ "كلما قلّ الكلام كلما سمعنا كذباً أقل". ومن تأتي منهن لتسأل هي آخر من يهمها الأمر. السلام، لا بأس، وها هنّ قد انطلقن في الغيبة والنميمة على نصف سكان البلد.

إن لنسائنا لساناً طويلاً سليطاً، يا إلهي، أسأل إلامَ يعود السبب! وحتى لو قطعت رقبتهن لظل اللسان فيهن مسلولاً.

طق طق! طق طق!

وتصاعدت دقات القلب في صدري. فتحتُ الباب بحركة كادت تنخلع فيها يدي من معصمي. لم تكن شريفة.

كانت فتاة. في الثانية والعشرين... الثالثة والعشرين. سمراء... هيئة معقولة... همم! كان سروال الجينز لائقاً عليها كالقفاز في اليد... وكان صدرها متهالكاً نوعاً ما، وأما رافعة النهدين فيجب أن يعاد فيها النظر. عيناها سوداوان، مكحلتان حسب الأصول، والرمش في شكل معقوف. إن هذه البنت قلقة، تتساءل حتى قبل أن تتكلم. ممفف! ممفف! إنها تفوح عطراً. إنها مثلي تأتي بعطرها من باريس عن طريق الحقيبة الدبلوماسية المهربة.

"إذا كنتِ تبحثين عن لامية، فأنا هي. وأنتِ، من أنتِ؟

- إيه... شهرزاد.

- إياكِ أن تقولي إنك قادمة من وهران أو من طنجة بناء على توصية من الأخ الأحمق سفيان لأني في هذه الحالة سأنتحر!

- إيه... لا. أنا من الجزائر العاصمة.

كان صوتها جميلاً، دافئاً، ولكن فيه بحة قليلة. كان الاسم لائقاً بها تماماً. إنه سحر الشرق كله بالصورة التي لم يستطع أي أحد أن يرويها بها.

- وماذا بعد؟
- إيه... أبحث عن شريفة...
- نعم؟! شريفة؟... شريفتي!!!
- إيه... نعم.
- ادخلي فوراً! اشرحي.'

كان مقدراً ومكتوباً عليّ أن أتعرف على خلق الله مع الهاربة القادمة من وهران. كان 235 والولد المنحوس هما من فتح القائمة، وبسببها فقد شهريار سحره العظيم وصار مجرد جار يجب الاحتراس منه في الوقت الحاضر. وها هي شهرزاد تهل عليّ لتروي أشياء لا يكاد يصدقها العقل؛ وأصبحتُ أسبح في الفولكلور. كانت بالضبط شبه زميلة في المهنة، فهي طالبة في السنة الرابعة في فرع البيولوجيا، وهي تنحدر من منطقة قسنطينة، المدينة التي انتهت يوم هجرها اليهود في عام 62، وبقيت فيها الحجارة والشيوخ المتكئون إلى الجدران التي تتظاهر بالحلم بجمال العصر الوسيط وبالعلم بكل السحر الموجود في أندلس الأجداد. إن زلزالاً بقوة 9 درجات لم يكن ليفعل كل ذلك الدمار. لقد أخبرتني أن مَنْ بقي من النسوة فيها كنّ يتلفعن بريش أسود، وكان الناس يطلقون عليهن اسم الغراب،

ربما للدلالة على أجسادهن المقدودة. وبينما كانت الجميلة شهرزاد تقص عليّ غرائب مدينتها كنت أنا سارحة في رواية سنونوات كابول لمؤلفها ياسمينة خضراء. علمت أنّ جدّها كان يشتغل في تجارة النسيج الإسلامي الذي يستورده من حي "لي سانتييه" في باريس. "هكذا مرة واحدة، من لي سانتييه، ولم لا من المدينة أو من إسلام آباد، فهم إخوتنا قبل كل شيء؟ ـ إنهم أصدقاء الطفولة ـ. أفهم." إن شخصاً فطناً لا يلدغ من جحر مرتين، هذا فصل الخطاب. كانت تسكن الحي الجامعي بابن عكنون، في غرفة صغيرة في الطابق الأخير من القفص ب في العمارة 12 واستطاعت مع مرور الوقت أن تحولها إلى غرفة مريحة جداً، وهو ما يعد خرقاً للنظام إلا أن الحارس العجوز لا علم له بهذا النظام أو يكون قد نسيه. وكانت تطبخ فيها وتسمع الموسيقى العصرية وتستقبل فيها صديقاتها اللائي فيهن من لا يتحرجن من التدخين.

"أعرف هذا، يا حبيبتي، الحراس، كم أوقعتُ منهم في أحابيلي. أمّا حراس مستشفى بارني فهم كلاب حقاً ولكنهم لم يفلحوا في الإمساك بي. أصل إلى العمل في الميعاد وأغادر في الميعاد، ومئزري دائماً نظيف، وفوق كل هذا ألقي عليهم السلام عليكم.

- ولكني أنا أدفع لهم البقشيش، إنهم يطالبون به عند حلول الأجل مع نهاية كل شهر...

- عادة جديدة. في أيامنا، كانوا يشتغلون بالإثارة. كانوا يتوسلون لنا أن نريهم ملابسنا الداخلية. ولو بلغوا نصف الفخذ لكانوا لعقوا لك اليد وكان يمكنك أن ترسليهم لتأدية الخدمات بدلاً منك ويكذبون بدلاً منك، ويحلفون عند الحاجة. أرى أنهم تقدموا كثيراً في السن. المهم، أين شريفة؟

- بالضبط، جئت أبحث عنها.

- ماذا؟ لقد هربتْ مرة أخرى؟

- لو كان غير هذا لهانتْ...

- عليكِ أن تروي كل شيء.

- ...

وتحدثنا كثيراً، لساعات طوال، وما كنتُ أخشاه حصل فعلاً وأكثر. ورحت ألوم نفسي على كوني بالغتُ في الموضوع وتصورتُ حدوث ما لا تحمد عقباه إلى أن صار الشيء ممكناً. لم يكن مخطئاً ذلك المدعو مراد لما كان يزايد على مخاوفي ويقلقني في كل مرة: "إنكن جميعاً سواء" كلما شعرتُ بالإحباط أمام الخوف. إن المرأة ستجد في هذا البلد البراق دوماً من الرجال من يكسر شوكتها.

عندما غادرتني شريفة في ذلك اليوم المشهود

توجهتْ مباشرة إلى وسط المدينة. إنه المكان الذي يتوافد عليه الضالون والممنوعون من الإقامة والعاطلون عن العمل والمتسكعون والطغمة الصغيرة التي أفرزتها الإصلاحات الاقتصادية فأصبحتْ تشتغل في الرتق والترقيع بسرعة ثلاثمائة كيلو في الساعة على هامش الطريق المستقيم. فلقد التقى البؤس الأكثر شدة والترف الأكثر عنفاً في قلب المدينة، أمام الله وخلفائه في الأرض. هذا هو الواقع، وليس في الإمكان أبدع مما كان، فهرقل الجبار بجلال قدره سيهدر فيها صحته حتى قبل أن يفهم تضاريس الخريطة. كما أنَّ المكان يذكرني بالضرورة برواية رشيد بوجدرة «طبوغرافيا مثالية لاعتداء مميز» التي تروي قصة رجل من بلاد القبائل، نزل بباريس للمرة الأولى قادماً إليها من رأس جبله الصخري بأعالي جرجرة، وراح يدور ويدور ويدور في الميترو، مذهولاً لهول ما رأى في مصران من الأنفاق لا نهاية له، ليلقى في النهاية مصرعه مغتالاً. ولم ير المسكين لا شمس باريس ولا تذوق طعم الأمان في شوارعها. كما ذكرني هذا الكتاب بكتاب آخر، «الغريب» للكاتب ألبير كامو، الذي يصور لنا مارسو بطل القصة وهو يلف ويلف ويلف في غياهب مدينة الجزائر المضيئة إلى أن يصادف عربياً في منعرج أحد الكثبان

فلا يفهم منه أي شيء فيرديه قتيلاً. نفس الدراما، ونفس الإنسانية غير المفهومة.

على بعد مائة متر إلى الأعلى يوجد مقر الحكومة، ولكن ليس ذلك ما كان يستهويهم في المقام الأول. فعلى بعد مائة متر إلى أسفل يقع الميناء ببواخره الممتلئة وعملاء الترانزيت الذين تلحقهم عاداتهم المضحكة. وعلى بعد مائة متر أخرى إلى اليسار توجد المحافظة المركزية للشرطة بجيش عملائها في لباسهم الرث، وعلى مسافة مائة متر إلى اليمين تربض القصبة بألغازها وأسرارها التي لم تجد من يفسرها. وتحت أقدام البريد المركزي، في وسط الساحة، يوجد المدخل الوحيد الأوحد لمترو الأنفاق الذي صنع سعادة وكوابيس خمسة رؤساء، وعشرين حكومة، وألفي نائب لا محل لهم من الإعراب. وهكذا دُشن هذا المعلم عشر مرات، ولمرات عشر كنا نعتقد أن هذه المرة هي الأخيرة. ولقد زين المدخل بالرخام الوردي وبالبرونز المصقول من الطراز الرفيع، إذ تراودنا الرغبة في الدخول ولكن النفق لا يفضي إلى أي جهة، فهو يضيع في الأعماق الموحلة للماغما التي تعود إلى عصور ما قبل التاريخ. ويبدو أن هناك من يسمع في أقصى فتحة بئر التهوية من يتكلم بالصينية، وريثما يحين أوان القطار ووصول المسافرين السعداء

على متنه، التي يقسم بأغلظ الأيمان أنها ستكون بعد ستة أشهر، صار المصران يستعمل كرواق تجاري للطغمة الصغيرة. لكن ما يضيع من هذا يستفيد منه ذاك، إذ هناك يتم الاتجار في اللوازم الفاخرة والكيف والأسلحة والأوراق المزيفة والعملة المزورة التي تأتي عبر الميناء ومحافظة الشرطة وملحقة قصر الحكومة والقصبة والبريد المركزي.

لا جدوى من البحث، كل شيء في متناول اليد. فالساحة تعج بالحركة، ويأتي الناس البسطاء إليها لاقتناء مشترياتهم بعيداً عن أعين القانون والإزعاج. وعندما يرى الرائي المنظر من فوق يتخيل أن الإلكترونات حرة طليقة ولكن العكس هو الصحيح؛ فكلهم يخضعون لقانون الجاذبية، إذ ينجذب الشباب إلى هذا المكان كما ينجذب النحل للرحيق. ولقد قيل لهم إنه مكان الانطلاق نحو حياة جديدة وإن خطوط الرحلات كثيرة لا تعد ولا تحصى كما في جميع وكالات السفر الجديرة بالاحترام. أما على بعد مائتي متر إلى الأسفل، فتمتد محطتا الحافلات والقطارات في تشابك رهيب، وهما تتكئان إلى الميناء، وبينهما، وعلى مساحة خالية عاثت فيه الفوضى، ضربت سيارات التاكسي السرية خيامها، وتزاحمت سيارات الخردة وكلها في حالة جيدة للاستعمال. "من المنتج إلى

المستهلك" ذلك كان شعار العهد الاشتراكي والآن استرجعته السوق السوداء ووظفته بفعالية.

أما نساء العاصمة الجميلات فكنّ يرتدن المكان أيضاً، لأنه المكان الوحيد الذي يمكن أن يُعثر فيه على العطر الباريسي المستورد من تايوان عبر دبي؛ ويحكى أن كلاب الجمارك دُرّبت على أساس ألّا تشتم أي شيء، ولكن تلك نكتة من النكات الصبيانية، فالجمارك ليس لها كلاب ولو كانت لها لعلمنا بها في وقتها. فالنساء الأنيقات كنّ يأتين متنكرات في أسمال بالية لكي لا يكشف ثراؤهن ولكن تفضحهنّ سحنتهن النظرة وزأزأتهن المجلوبة من "بلاد برة"، وبذلك ترتفع الأسعار.

اقتربتْ مني وخاطبتني وأنا في ساحة البريد. كنتُ... أشتري من هناك جواربي والعطر المستورد... فلا شيء في المحلات.

أما أنا فأجد ضالتي وسعادتي لدى طاطا زاهية، العضو القديم في الاتحاد والتي فتحت بوتيك في بيتها إذ لا يوجد فيه إلا الشيء الرفيع، الآتي مباشرة من باريس، من فضلك! إنها مهربة حقيقية، أمينة ولطيفة، نتناول عندها الشاي، وندردش. وأحياناً يصل عددنا في بيتها خمسين، فنرتجل حفلاً حينئذ. إن لها ابن عم في

الوزارة، وهو الذي يموّنها في الكتمان. سأستوصيكِ لديها. ثم ماذا، قولي.

- أخذتُها معي إلى غرفتي بالحي ... لقد تأثرتُ لحالها...

- هل كانت معها زوادتها؟

- ماذا؟

- أثوابها، لوازمها!

- إيه... بلى.

- هل هي بخير؟... وحملها... هل كانت تأكل؟

- إيه... بلى. لم أكن قادرة على إيوائها لدي، فالغرفة ضيقة جداً... وأنا في حاجة إلى الهدوء لمراجعة الدروس... ثم الأمر ممنوع...

- أين كانت تنام؟

- عندي، عند هذه، عند تلك... نظمنا أحوالنا، كنا نشغل الحارس لنمرق بها. وفي النهار كانت تتفسح في المدينة... و...

- و؟

- ...»

إن شريفة هذه عبارة عن سمك الأنقليس، لا يمكن مسكها أبداً. بعد أسبوع من البطالة ولا شغل ولا مشغلة والتسكع تحت الشمس بدأت في مخالطة أحد

المستأصلين الذي كانت رائحة التبن الندي تنبعث من ثيابه، ثم شرطي بلا قيمة، ومرة أحد الصحفيين من النوع الرديء، وفي هذه المرة طارت مع أحد الطيارين الذي لا نعرف عنه أي شيء ما عدا عشقه للأناقة والشياكة إلى الحد الذي يثير الشبهة في أمانته.

"بدأ يساورنا القلق، لقد مر أسبوع منذ غادرث. لقد تعلقت بها البنات وأحببنها، وهي لا تكترث لأي أمر، وسوف... تضع مولودها عما قريب، ولا ينبغي لها..."

هكذا، حتى هنّ افتتنّ بسحر الفاتنة.

"أعلم، أعلم.

- ما العمل؟

- يجب العثور على الطيار، وهذه ليست مهمة مستعصية، فلا توجد إلا شركة طيران واحدة حسبما أعلم. واسمها الخطوط الجوية الجزائرية، أليس كذلك؟ سننتظره عند نزوله من الطائرة، هذا كل ما في المسألة.

- إيه... لا أحب المشاكل... أنا...

- سأجعل منها قضيتي. سأذهب إليه كما أتيتِ أنتِ إلي، بسيطة. هل أعطتكِ عنواني؟

- ليس بالضبط... أنا التي بحثتُ. كانت تتكلم طول الوقت عنكِ، منحدر فالي، قصر التركي، قلعة

الفرنسي، ڤوربي اليهودي، مغارة القبائلي... إيه... لم أفهم لماذا كل هذه الأسماء عن هذه الدار.

- إنه التاريخ، والموضوع معقد. ثم ماذا؟

- كانت تتحدث عن بارني، الأصدقاء، مراد، سفيان، 236.

- 235! أنا لا أعرف كل سائقي شركة راتوغا للنقل الحضري!

- عفواً، 235... المريش، شهريار، غولة شارع مارينغو... و... اعذريني، أشباحكِ، المهم، أصحاب الدار.

- يا سلام، بيت الوحوش، أليس كذلك!

- كانت تحبكِ حباً كبيراً، وهي آسفة. في يوم من الأيام أتت إلى زيارتك في مستشفى بارني، ورجعتْ مذعورة، حيث وجدتكِ في إحدى نوبات الغضب التي تنتابكِ فلم تجرؤ على مخاطبتكِ.

- دعكِ من الحساسيات الزائدة، الوقائع قبل كل شيء! ثم ماذا؟

- ...

كنتُ أتمالك دموعي، وكان عليّ قراءة السيناريو إلى النهاية لكي أفهم جيداً.

إذن، تعرّفت على فلاح في الغابة المهجورة المحاذية للحي الجامعي حيث كان العشاق يفرون إليها

هرباً من زحمة الشارع وسياط الوعاظ. وهناك يلتقي كائنان من الريف فيتعارفان فيها وها هما يبحران في الحديث عن عالم النبات. لقد كانا يتخيلان نفسيهما في مشرك، واستعرضا كل ما جال بخاطرهما، ولم يكن حديثهما إلا عن السعادة. وهكذا دامت العشرة أسبوعاً ثم ساءت الأمور. قالت عنه: " إنه خنثى كالعظاية". إنها هي كما أعرفها، عندما يتسرب إليها الشعور بالملل تأخذ أغراضها وتختفي.

في اليوم الموالي رافقتها ظاهرة جديدة إلى الحي الجامعي، ولم تكن البنات في حاجة إلى منظار مكبر لرؤيته والتكهن بالمكان الذي خرج منه ذلك المهرج. إن من يلبس نظارات التزحلق على الثلج، ويضع جهاز الإرسال والاستقبال "تولكي ـ والكي" على أذنه، ومشيته تشبه زورق الإنقاذ الذي غمرته المياه من كل جانب، ويظهر بمظهر من يراقب العالم بنظرة واحدة ويتأرجح المسدس من يده ينتمي إلى مؤسسة واحدة في البلد، واحدة فقط، وأهمها على الإطلاق: الشرطة.

ولما صارت تؤمّن لشريفة هذه الصحبة المراقبة بدأتْ ترتاد أجواء البؤساء في مدينة الجزائر التي يقول عنها المدعو مراد بأنها تضم أقذر الأنواع الموجودة في المجموعة الشمسية. فانجرفت وراء وتيرة جهنمية؛

تعلمتْ الشرب والتدخين والشجار والتكلف، وغيرتْ مفرداتها. أما بنات الحي الجامعي فكنّ ينصتن إليها وهن يسددن آذانهن عندما كانت المخبولة تطلق وابلاً من الكلام كالقنابل. وصارت تخرج في ساعات مستحيلة وتعود في ساعات غير معقولة ولا تعبأ بالإخطار. ولم يعد الحي يطيق تصرفاتها وبدأت الأبواب توصد في وجهها باباً بعد الآخر لأنَّ البنات كنَّ يرتعبن من الفضيحة أكثر من رعب الإرهاب. أمّا الحراس فكانوا يتذمرون جهاراً نهاراً، وراجت الإشاعة، وأصبحت السيارات المشبوهة التي جذبتها رائحة الإشاعة تتزايد في أرجاء الحي، ولم يتأخر أهل النهي والزجر في الظهور، وكان يقال إن القتلة يحومون في الجوار.

أفترض أن الأمر يتعلق بالوعاظ وبالمدافعين عن الحقيقة، ولكن أعتقد أن الوقت كان قد حان منذ مدة لتوحيد المفردات لأنه لا ينبغي لنا أن نستمر في قول ذات الكلام بكلمات مختلفة. ولكن الحقيقة هي أننا نبدأ في التلعثم والنظر بنظرة الطمع واستعمال لغة الخشب كلما تعلق الأمر بالإسلام. كذلك صارت القضية وكأننا في برج بابل، يقال الزاجر، والخانق، والذابح، والإسلاموي، والمجنون، وصاحب اللحية، والمتطرف، والإرهابي، والكاميكاز، والقنبلة الحية،

والأصولي، والجهادي، والوهابي، والسلفي، ومن أهل الجزأرة، والطالبان، والطانغو، والزرقاوي، والأفغاني، والمنتمي إلى الضواحي، ومن أفراد القاعدة، وما لم يصل إلى مسامعي، وكأن هؤلاء الناس لا شأن لهم بالإسلام. لماذا، إنه هو الشخص نفسه، يقوم بتغيير لباسه وحزبه أو جماعته، هذه هي الحكاية وما فيها! يجب على أهل الخبرة أن يتفقوا على الأقل على المفردة! ويمكننا أن نتكلم حينئذ بصراحة ونبوح بما يساورنا من قلق، ولكن علينا أن نكون منصفين، فإذا كان الإسلام مسؤولاً عن شيء ما فهو الدين الذي جاء منه المسلمون، وليس لنا علم بما سينقلبون إليه، لا سيما وأن خدمة ما بعد البيع غير مضمونة. ومن ينجب أولاداً فعليه أن يسهر على رعايتهم، والسلام!

لقد فرضت شريفة وجودها على شهرزاد، لأنَّ كرة منفوخة في الشهر السابع تثير الاحترام، وهي لم تهدأ وتستقر. وبعد أيام صاحبتْ صحفياً من النوع الرديء، كان يضع قلمه الرخيص على أذنه ويتأبط جريدته. وشهرزاد التي كانت مفرداتها التي أتت بها من المنطقة غنية فوق اللزوم رأت فيه الشخص الذي لا يليق بها، وقالت: "إن شخصاً هزيلاً إلى هذا الحد لا ينبغي له أن ينحر كبشاً من أجل لعبة الكعاب بالعظام". غير أنّ الانتقال من الصحفي إلى الشرطي لم يكن على ما

يرام، فحدث خطأ من الشرطي ووجد الصحفي المخربش نفسه في المستشفى، مخيطاً من رأسه إلى قدميه. وفي صبيحة اليوم الموالي، عنونتْ جريدته في صفحتها الأولى:

إن المحقق الكبير ك. م. تعرض إلى تعذيب شنيع على يد الشرطة بسبب قيامه بتحقيق حول تصرفات المفتش ح. ب. المتورط في عملية تهريب واسعة للأسلحة الموجهة إلى المعاقل الإسلاموية. وكانت شهرزاد تحتفظ بملف صحفي كامل ومحين. يا لها من حكاية!

وجاء رد المنظمة في اليوم الموالي، وسلك طريق الجريدة الحكومية، مقاتل الجهاد، الذي تنهمر الحقيقة من خلاله على البلاد. تحت عنوان «توجد صحافة وصحافة»، حيث يقرأ القارئ: اتضح أن المدعو ك.م. عار يوصم مهنةً بذلت الكثير من أجل الديمقراطية، متورط في عملية واسعة في الاتجار بالمخدرات على علاقة ببلد شقيق يكنّ لوطننا حقداً لا تضاهيه إلا الوحشية التي يسلطها على الشعب الصحراوي البطل الذي يخوض كفاحه المشروع من أجل استقلاله، مدعوماً في ذلك بالمجموعة الدولية بأسرها، ومن جهة أخرى توجد بعض الأوساط في الجزائر العاصمة، المعروفة لدى مواطنينا بحبها المرضي للمال الحرام

وأعماها رفضها للسياسة التي تتقدم بشكل خارق للعادة والتي بادر بها رئيس الجمهورية. وحاول هذا الشخص لما فضحه الضابط الباسل ح. ب. بإرشائه عن طريق الزج به بين أحضان مومس مقيدة في سجلات المشتبه فيهم لدى مصالح الشرطة، تدعى ش. د. وهو ما رفضه الضابط المقدام المتشبع بالصفات الخلقية العالية رفضاً قاطعاً. وأصدر وكيل الجمهورية المتأثر بخطورة الأفعال والساهر قبل كل شيء على النظام العام فوراً مذكرة إيداع ضد المدعو ك .م. وأمر بتفتيش مقرات الجريدة. قضية للمتابعة.

ما دخل المغرب في كل هذا؟ وكيف يمكن أن تقدم سياسة الرئيس أو تؤخر في الأمر؟ إنهم لعمري يبحثون عن التعقيد!

وشهدت المدينة مواجهة حامية لا رحمة فيها بين الصحافة والشرطة، ثم استتب النظام، الصحفي اختفى ولا من يدري كيف، بينما أقفلت جريدته وبيعت مقراتها في المزاد وحكم على مديرها بالحبس سنتين. وفي غمرة الاعتقالات، تعرض صحفيون آخرون إلى الاعتقال والتعذيب على سبيل الاحتياط. ولم يُنْس المفتش: لقد تلقى ترقية.

أما شريفة التي أثارت ريح الشين والشنار على

الحي الجامعي فصدر في حقها إنذار بمغادرة المكان. كذلك البنات فلم يعدن قادرات على تحمل المزيد، فلقد كانت الامتحانات على الأبواب وصار الأولياء يظهرون علامات الذعر والفزع وكانوا يترددون من حين إلى آخر على الحي، ولم يكن الوقتُ وقتَ ضحك أو استهتار.

وتاهت شريفة بعض الوقت في المدينة قبل أن يطير بها أحد الطيارين من مقهى متاخم لمكاتب شركة الخطوط الجوية الجزائرية. وشاهدته شهرزاد في سيارة رائعة عندما مرتْ الهاربة بالحي لأخذ زوادتها. هو رجل في الأربعين، له كرش ويبدو أن له باعاً طويلاً في الميدان. واعتقدت شهرزاد أنها سمعتْ المستهترة اللعينة تناديه باسم "رشيد".

كان الوداع بسيطاً ومختصراً، فالبنت لا تعرف لا أهلاً ولا إلى اللقاء.

ومنذ ذلك التاريخ، لا حس ولا خبر. هل استقلتْ القطار؟ هل عادت إلى وهران؟ هل هي في مكان ما؟ أين؟

نهاية السيناريو. الآن يمكنني الاستسلام للدموع.

من كان يصدق هذا، أنا لامية، الدكتورة في طب

الأطفال والمرأة المكابرة، البعيدة كل البعد عن الطوارئ والعوارض، والمحصنة من كل لطف متكلف، أجد نفسي أنبش في حياة مبتذلة لفلاحة صغيرة قدمت من الريف لتتحول إلى بنت من بنات الشارع! كنت أشعر بشعور غريب. أهو الشعور بالذنب؟ يوجد منه بعض الشيء، فلقد ضممتها إلى صدري، وأسرّتْ إليّ بكل شيء. ولكن محاولة فرض التعليم عليها بالإكراه كان غلطة أخرى، كانت ترى نفسها عرضة للسخرية، ومقطوعة عن العالم. الغضب، ومعه الغيظ اللذان يأتيان من الإخفاق، من...؟ ليس فقط، الحنق الشديد والرغبة في. . . والغيرة، نعم، غيرة الأمومة! هذه هي المسألة. إن شريفة تسلم نفسها إلى أول طارق، أما أنا التي أحبها، ومنحتُها حياتي وفتحتُ لها بيتي فترفض حتى مجرد الحضور. إنها لم تقم بأي زيارة، ولم تجر أي مكالمة بالهاتف ولم تبد حركة أو تحرك ساكناً. ومن الحماقة والعته أن أدع نفسي تسقط في علاقات تافهة بهذا المستوى.

ما هي الكلمة التي قذفتها بها في وجهها، بينما كانت تنتظر ابتسامة أو نظرة لتترك نفسها تتكوم بين ذراعيّ؟

ثم، تباً، لقد منحتُها كل شيء!

لويزة وسفيان تركا في نفسي جراحاً غائرة، أما شريفة فاقتلعتْ مني الفؤاد. إن هذا لا يطاق، حرام. سوف أنهي الموضوع، هنا، في هذه اللحظة بالضبط، وأنظر في موضوع آخر، لن أترك حالتي يسكنها اليأس إلى آخر أيام العمر.

"اقصصي عليّ، يا شهرزاد اللطيفة، هل أنتِ مشتاقة إليها إلى هذا الحد، هذه المجنونة، وجئتِ تبحثين عنها حتى هنا في منحدر فالي؟ أليس كل ذلك رواية من روايات ألف ليلة وليلة؟

- إننا نحبها... نحن.. إيه

- نعم، قولي.

- إيه، يعني...

- طيب."

كنا كلنا في الهم سواء، فهن مثلي يملأن الفراغ الموجود في حياتهن. فما عدا الدفاتر والكتب، فليس لهن ما يتيح الإحساس بإنسانيتهن. إنهن يقضين أوقاتاً فارغة رتيبة في الحي الجامعي، وبلا شكل، إيذاناً بما ستكون عليه حياتهن كنساء، أخيلة ظل صينية، أخيلة بكل بساطة، عاملات، موضبات كما ينبغي، مؤطرات، خاضعات لقانون الأسرة، حريصات على البرنامج والعادات، وشريفة الساذجة البريئة، المتهاونة وغير المكترثة فوق الحدود، جاءت تثير فيهن تساؤلاً لا قبل

لهن به. إننا لا يمكن أن نكشف أحلامنا الحميمة بلا عاقبة سيئة، ونحن النساء لنا الكثير من الأحلام.

انتفضتْ شهرزاد واقفة فجأة، إن الحارس الليلي سيستلم نوبته في الحراسة ويلاحظ غيابها عند المناداة. وبعد السادسة مساء سيكون ثمن سكوته باهظاً جداً.

ووعدتني بالزيارة مرة أخرى.

مطار هواري بومدين ليس له نظير، فيه يوجد كل ما تراكم لدى الطيران المدني من ترقيع على اليابسة منذ عهد الأسطورة إيكار الذي حاول الطيران. ولست أدري كيف ما زال يشتغل بكل سقط المتاع هذا والثغرات المفتوحة عن آخرها؛ وفيه كل شيء مجبّر ومربوط كيفما شاءت الحيلة، إلى درجة لا يدعو الوضع فيه إلى الاطمئنان. ولكن من حسن الحظ أن الطائرات ما زالت تعرف الطيران. ولجتُ والخوف يتملكني إلى هذا العالم المرعوب حيث يتسابق فيه بشر لا يحصى عددهم ويصيحون ويبكون ويشوّرون بأيديهم ويدفع هذا ذاك في جو كارثة وطنية. وبعد مصادمات لا أول لها ولا آخر وبعدما سال مني كل العرق وجدتُ نفسي أمام حظيرة مبنية بحجر الربط الإسمنتي بجوار مراحيض عمومية؛ إنه ركن مركون تفوح منه رائحة القيح وتسود فيه حرارة مقدارها مئات الدرجات. وفوق جدار منخفض تدلت قطعة كرتون مربوطة بخيط معلق في السقف كتبت عليها بلون أحمر قان تحية الاستقبال

استعلامات، بأكثر من عشر لغات أو هي لغة واحدة تكررت عدة مرات. كنت أتقدم في الميدان بخطى العملاق، وكان وراء المبسط جيش من ثقيلي الدم البلداء يلهون في لعبة تشبه المعركة البحرية حيث الهدف فيها ينحصر في تحطيم أكبر عدد ممكن من الطائرات بأقل عدد ممكن من القنابل وفي أقصر وقت ممكن. وتقدمتُ منهم مخاطبة إياهم بجسارة ولكني وجدتهم يتكلمون كلاماً لم أستطع أن أحدده. لقد كان صوتهم أجش، خشناً ومتنافراً يتطاير من خلاله رشاش لونه أسود، وفوق ذلك تصاحبه حركات تهديد ووعيد. وهناك أيضاً بنات جالسات على مقاعد خشب مدور وهن يلبسن تنانير وسترات ويضعن فوق رؤوسهن طاقيات، وكنّ يفصّصن اللوبيا أو يدوّرن الطاحونة أو يغزلن قفازات من الصوف. ولم يكن يظهر على ملامحهن أي ملمح للسعادة، إذ لا شك أن همّاً ما يضايقهن أو قد يكون الأمر مجرد حرد سببه الغرام. من جهتي أحاول أن أنظر إلى الناس أو الأشياء من وراء منظار مشوه لما يظهر في الحقيقة لأستطيع أن أفهمهم أكثر، وهم أنفسهم يظهرون بخلاف الصورة التي يريدون إظهارها. وهكذا جاء زعيم القبيلة المعروف بالطاقية التي يضعها على رأسه وبالصولجان والأقراط

المتدلية من عنقه وأذنيه وسرّته، وقصفني بنظرة رهيبة ثم ابتسم في وجهي بطريقة شهوانية خالصة لما تمكّنتُ من أن أشـرح لـه أنـي لـسـت قـادمـة لـكـي أفـسـد جـو الاحتفالات الرائع بل لمقابلة ابن عمي رشيد الطيار لضرورة عائلية في غاية الأهمية. وهنا انهال عليَّ وابل من نظرات الاستهزاء الخليعة وصُوّب إليّ قصف متواتر من اقتراحات المراودة. إن رشيد هذا كان زير نساء من الطراز الأول وله سمعته في وسط الشلة التي يحسد عليها، والكل صار يريد نصيبه من بنات العمومة. أغمضتُ عينيّ بكل ما أوتيتُ من قوة وأنا أتمنى لهم الموت خنقاً بين أحضان القرد العملاق كينغ كونغ، ولما أفقتُ من طريقتي هذه في العلاج كان يقف أمامي رجل في لباس الكهنوت يشبه قساً من القساوسة المبشرين وله صوت فيه نعومة وصرامة، كان قد خرج لتوّه من كوخ وراء الحظيرة، فشعرتُ أمام نظرته الواثقة بصبيانيتي وسذاجتي:

"ماذا تريدين، يا امرأة؟"

انتهت المسألة بخير والحمد لله فالرجل يتكلم اللاتينية. ورحت أشرح له مرة أخرى بلغة عربية مكسورة من أجل الإطراء على فصاحته والحصول منه على معلومات بأقل كلفة. وتفحصني الراهب مدة طويلة

من بياض عيني إلى غاية آخر قطعة من ملابسي الداخلية، ثم حرك رأسه وهزّ كتفيه، وانشغل بالكتابة ثم دوّن كلمتين أو ثلاث كلمات بلغة اندثرت منذ زمن بعيد بواسطة صوان ذهبي وأحدث ضجيجاً مبهماً ثم تلا عبارات في بوق صوتي، وبعدها بوقت طويل وممل ظهر فارس الأوبريت بكل زينته وبهرجه الذي يُعرف من بين ألوف: فهو صاحب الأربعين بكرش، وله هيئة الخالي من الهموم المرح والمسمى برشيد. لما رآني، كاملة مكتملة في هندامي النظيف بلا كمّين أطلق عليّ ابتسامة لا يجود بها إلا على نساء الطبقة الراقية، وكان في بسمته شيء من الهزء المتحفظ والمعتدل والضجر من خلال ما أوحت به زاويتا انفراج فمه. إنَّ شهرزاد كانت على حق لما قالت بأن هذا المجامل شخص قميء فعلاً.

كان لا بد لي أن أجعل منه صديقاً للوصول إلى مبتغاي: العثور على شريفة.

وسرعان ما شرع في مراودتي، مدفوعاً بنازع طبيعته الدنيئة. أما طبيعتي فكانت أن لا رحمة ولا شفقة مع كل رعديد يحاول أن يدوس لي على طرف، ولكن كان لا بد أن أجاريه إلى حين.

قلتُ له: "إني مرتبطة مع شخص يشبه شهريار يخطط لقتلي ولكن لو رجعتَ إلى الكرّ بعد عشرين سنة أو ثلاثين فستجدني من المنتظرات، عندها أكون موافقة، فأنا لك على طول وبالمجان."

قال لي: "ماشي"، إنه مقامر عنيد.

وسلكنا سلّماً معدنياً متهالكاً من الاهتزاز لنصعد إلى مشرب واقع بالشرفة وكأننا مسافران لكل منهما مخطط سفر خاص به. وترامت أمامنا في منظر بانورامي شامل المناطق الداخلية من البلدة، والضواحي المحتضرة للمدينة وعلى هاماتها الهوائيات المقعرة من آخر ما وصلت إليه التكنولوجيا، والورشات المهملة، والخردة المهجورة في العراء، والرافعات التي يتآكلها الصدأ وهي قائمة، والطرق السيارة التي تتنقل فيها السيارات الخردة المبرقشة باندفاع وتهور، وعلى مسافة بعيدة كانت النيران تلتهم الغابات في الجبل. إنه عالم الديناصورات الممزق شر تمزيق والمعرّض لكل الرياح وفيه من الزواحف ومن الطيور اللافظات النار ما لا عين رأت ولا أذن سمعت. أكيد، لقد مرّ صندوق النقد الدولي بهذه الديار، وها نحن نعود إلى زمن القرون الوسطى العامرة بعفاريت الجن الأزرق والشحاذين الذي لا يمكن وصفه. وفي الأسفل كانت تربض

القاعدة والمعسكرات والطائرات القديمة الطراز المصطفة كيفما شاء هبوب الريح، وكان مدرج الإقلاع والنزول يعج بالبرك والحفر والأخاديد، وفيه سلالم الصعود إلى الطائرات ودوارات الهواء، وحركة الذهاب والإياب من السلع وعمال الأنبار. في البدء لم أستطع أن أتبين الأمر، ولكن هناك أشياء غريبة تدبر على الأرض، والكل يطير على باب الله. آه طبعاً، كانت الشرطة تعد بالعشرات.

قلتُ له قبل أن ينسى نفسه: "كلي آذان صاغية".

كنت أعرف الموضوع ولكنه كان كلما استرسل في رواية مآثر فحولته كنت أزداد قناعة بأن الغباوة لا حدود لها وداء لا دواء له. ولم يسبق أن شاهدتُ من هذه الأشكال أبداً. يقول إنه قابل شريفة في مطعم الأكلات الخفيفة التابع للخطوط الجوية الجزائرية في وسط المدينة، ولم يكد الدم يدور في عروقه أكثر من دورة حتى اهتزت مشاعره لنوع البنت الهيفاء التي كانت كالسفينة الجانحة، يا له من رعديد. ورقّ لحالها واحتار في الأمر ولكنه تصرف التصرف الذي اعتقد أنه هو الواجب أن يقوم به. إنه من أولئك الذين لهم استعداد على تجربة كل شيء، وهو يحب أن يباهي الخلق بغنائم الصيد التي يجمعها. فشعر بنشوة الفخر التي ما

بعدها نشوة: قطة صغيرة حبلى ومهملة على قارعة الطريق، أي حظ هذا! يا الله، لقد طاف بها بطائرته القديمة كل أجواء الجنوب الكبير، تامنراست وجانت وتيميمون وإيليزي، تلك المقاصد التي يعشقها السياح النازلون من شمال الكرة الأرضية الكبير، رمال فوقها رمال بملايارات الأطنان، وحرارة تذوب لشدتها الحجارة الصماء، وبقع صغيرة من الواحات المتناثرة هنا وهناك تذكر بوجود مستوطنات بشرية تحيط بها الأرجاء الفسيحة، والمخادعون بعربات تويوتا وعلى رؤوسهم مظلات الصمبريرة الذين يتظاهرون بأن لهم برنامج زيارات مسطراً يحترمونه بحذافيره. لقد نجحت اللعينة في تسخير حافلات الباص والطائرات وربان الطائرات بيد أنني أعاني الأمرين في الحصول بمشقة على ما يكفيني. كانت تطير من الفرح، تضحك لكل شيء، وتنبهر من كل شيء، وتنبسط لرؤية السماء سابحة فوق بساط متوهج إلى ما لا نهاية وكان بينهما يتيه بشر من الرجال الزرق الذين لا يستقرون على بقعة وهم يستحثون جمالهم الوديعة الصابرة في ثنايا الكثبان. يا إلهي، إني أتخيلها ولا أكاد أصدق، إنها قد ظنت أن الحياة في الصحراء عبارة عن حفل بهيج، ثم بدأت تشعر بآلام، ورغبة في التقيؤ، وصارت تتخبط.

"أحزر الباقي! لقد رميتَ بها من علٍ وتركتها في

مكان ما بهذا البلد الفسيح الذي يضيع فيه الإنسان وهو في عقر داره.

- لا أسمح لك بهذا! لقد غادرتْ من تلقاء نفسها... أنا...

- إنها لم تتجاوز السابعة عشرة، وهي لا تعرف شيئاً، إنها تؤمن بعالم الأساطير والخرافات، وهي تتغذى بالكلام الفارغ، ولكنها أدركتْ فعلاً أنك أحط مخلوق عرفته البرية عبر كل العصور. ولكن كيف ظلت كل هذا الوقت لتقول لك ذلك، إني مذهولة!

- أنا... أ...

- اذهب إلى الجحيم!

لم تساورني فكرة رفع دعوى قضائية ضده، فالبنت المسكينة مسجلة على أنها مومس تمارس الدعارة ولا شك أنه قيّد عليها الثأر الذي حدث بسبب المشاكل التي حدثت في الجامعة. وهي كامرأة ليس لها أي حق، أما وهي مومس فإن عليها أن تُحاسب، وأما وهي أمّ ولدتْ سفاحاً فجزاؤها الموت. يا له من بلد! ثم من هو القاضي الذي سيسمعني، فأنا امرأة، عازبة، مهذارة، لا ألبس الحجاب، لا أضع البرقع، أمشي ورأسي في السماء، وأردّ الصاع صاعين، وشريفة فوق كل ذلك لا تربطني بها صلة في نظر قوانينهم الشيطانية! وليس لي أي شخص ليمضي أصالة عني!

رجعتُ إلى البيت أحبو على ركبتيّ. وانفجر الفراغ في رأسي مع أنه كان عالمي الذي أعيش فيه؛ أصبحتُ لا أرى ولا أسمع ولا أتنفس، وتوقفتُ عن الوجود. وكان كل ما أحببتُ وكل ما حلمتُ بكل قواي أن يتحقق، وكل ما كان ينقصني إلى الحد الذي أصبحتُ فيه عبارة عن راهبة تسير كالآلة قد تجسد، كما لو حدثتْ المعجزة، في هذه البنية الصغيرة التي لا ترسو على بر، حَرِدة مستاءة وجاهلة. وبفضلها دخلتْ الحياة في أحشائي كما تدخل العاصفة في جوف المغارة. لقد منحتُها كل شيء ورفضتْ مني كل شيء. إن نفخ الحياة الذي نفخه وجودها في روحي تلاشى مني وذهب هباء منثوراً. فأنا ألوم نفسي وألومها، ولكني مع ذلك كنت أرى نوعاً من الإنجاز قد تحقق في هذا الاختلال الجوهري، إذ أحسستُ بذاتي تكبر ثم أصير لا شيء في آن واحد؛ لقد كان كل شيء عبارة عن تواطؤ بين السعادة التي تكشفت بشائرها أخيراً والتعاسة اللامتناهية والأبدية في حياتنا.

أين أنتِ يا شريفة؟ إلى أي مدى يمكن أن تصل إليه حياتكِ إن لم يحل دونه أي شيء؟ فلتعلمي أنّى كنتِ، لو كنتِ تستشعرين أفكاري، أن منحدر فالي ودار الأرواح وقلب لامية مفتوحة أمامكِ إلى الأبد.

والآن، آن أوان الدخول والاستعداد للانتظار، فالخلود أمده طويل طويل.

ما أجمل العصافير
ولكن واحسرتاه! للعصافير أجنحة
فكما تساعدها على أن تحط وتستقر
تساعدها كي تطير وتطير.
وتلك مأساة العصافير.

كنتُ ملهمة في الماضي وأنا أكتب مثل هذه الكلمات.

المشهد الثالث

الحياة أو الهلاك

لا بد لكل بداية نهاية
ندرك هذا منذ الأزل.
في الكلام سكوت
وفي الولادة موت.
ما ضرّنا أن مولانا قدّر وفعل
والشيطان وسوس وأضل.
غايتنا من الوجود
والجنون الذي فينا
هو التصديق فوق الحدود
بالمستحيل.
إن ما انتهى
لا بد أن يبدأ من أول

وهكذا
تصير الحياة ممكنة.

عندما أكون في حالة الخمول والانكفاء أرى كل شيء بلون رمادي مشوب وباهت، ويكون العالم بالنسبة إليّ على مسافات سرمدية أو أنه قريب مني قاب قوسين أو أدنى؛ إنني لا أدري، فأنا أمرّ بالأيام دون أن أراها. أذكر أن أمراً كان موجوداً ولكنه أمر ما، قد يكون حادثاً أو سحراً أو مساراً انحلالياً، أقصاني منه وألغاني، فأبدأ في إهمال نفسي حيث لا همّ للمرء في عالم يتفتت ويتبدد. ثم أثب منتصبة بين سقوط وسقوط، وأهذي بين ضيق وضيق، وأتدارك نفسي ولكن لا تطول عليّ الحالة في هذا الوضع وبعدها يكون الوجع أشد بعد هدوء العاصفة. إنني أشاهد التلفزيون كمن يتصفح كتاباً في جنح الظلام، وأستمع إلى الراديو ولكنه لا يحدث إلا الطنين في أذنيّ ولما أستكين إلى السكون أسمع جلجلة مهولة في رأسي، وتضغط اضطرابات مرعبة على قلبي بشدة. لقد صرت في مستشفى بارني أعامل الأطفال بقسوة كما لو كانوا من رحمي، وهكذا صارت أمهاتهم لا تستأمنني عليهم. وصرن يتوجسن مني خيفة، وأخذ كلام كثير ينتشر عن سرقة الأطفال الذين يتم حبسهم أو بيعهم في المزاد، أو إيجارهم لمحترفي التسول، أو توريدهم نحو جبهات

القتال. ويقال إنَّ فيهم من يعثر عليه حياً، والبعض الآخر ميتاً، ولكن أغلبهم لا يعثر له على أثر. وفجأة تسيطر عليَّ رؤيا مرعبة كما في روايات دانتي، فأرى سماء بلا نجوم، وكوكباً بلا أطفال وأرى على صعيدي الشخصي وفي قلب منحدر فالي داراً بدون فاتنتي شريفة.

كيف استطعتُ أن أعيش بلا لويزة، أختي من الرضاعة بيد أن غياب شريفة يقتلني؟ إن الأسباب نفسها لا ترتب بالضرورة ذات الآثار عندي، وفي كل مرة أجد الأمور تسوء من سيء إلى أسوأ. فإما إني بدأت أهرم أكثر مما ينبغي وإما أكون مللتُ من رؤية حياتي تستنفد من حولي كالسيل المنهمر، أبي فأمي فياسين فسفيان ثم شريفة، وكل ما بقي ذهب مع الريح، الناس والمتع الصغيرة، والأحلام في ضوء القمر، والقطط الصغيرة التي كانت تهرّ وهي تصوفر على الديوان صارت قططاً ضخمة من قطط المزاريب تمنع عنا حلاوة النوم. يا إلهي، ما ألعن الألم الذي تسببه لنا الحياة!

بدأتُ ألوم نفسي، واكتشفُ أني عاطفية ومفرطة في الصور التي أتصورها، ومستعدة على الخلط بين الأضداد، فأصابني داء الجنون الدوري الذي صار

يمنعني من الحفاظ على توازني، واستسلمتُ للإغماء التخشيبي. أحياناً أحدثُ نفسي فأقول لها إن العقل هو العلاج الشافي لنوبات الغضب العارم وسرعان ما يتبادر إلى ذهني أن الشفاء معناه تمهيد الأرضية لأشكال أخرى من الأمراض. هل أكون لا قدر الله بلغتُ السن الذي تصبح فيه اللذة في الألم، والحرية في الضيق، والوضوح في الفوضى، والراحة في العذاب.

واستأنفتُ الأبحاث مرة أخرى، فأنا من النوع الذي لا يطيق البقاء مدة طويلة دون حركة. ولما رأيتُ أن شهرزاد غابتْ عني قليلاً ذهبتُ إليها لأفاجئها في عقر غرفتها في ابن عكنون، لعلها تكون قد وصلت إليها بعض الأخبار. ورافقني 235 على الفور دون تلكؤ، أعني حملني في حافلته وهي تنفث النار كالدخان. وفكّرتُ أنه قد يستفيد بعض الشيء من زيارة الإقامة الجامعية، وستكون أمامه وهو هناك فرصة في التعرف على من يحملها إلى أمه وصيفة من الوصيفات، وليس من المستبعد أن يجد في كل هذا الكمّ امرأة أو امرأتين أو ثلاثاً يوافقنه، فهو مسلم، ودينه يرغّب في الكثرة والوفرة ولكن في الاتجاه الواحد. كان الجحر الذي تقيم فيه شهرزاد ضيقاً جداً ولكنه طريف للغاية وهو يصلح كخزانة حائطية في تخشيبتي الكبيرة. كانت تلبس الشبشب وتضع طاقية على رأسها بينما عيناها

محمرتان وجفونها قد التهمتهما شقيقة الوجه. فأنا أخشى أن أكون قد ضايقتها بأسئلتي، ولكنها لم تشعر بذلك إطلاقاً، فهي تدرس فعلاً بنشاط وهمة وجدية، وتسهر الليالي إذ صارت الامتحانات على الأبواب وكانت الإشاعات عن حصص النجاح المدبرة والمرتبة سلفاً في الدوائر العليا تلف أرجاء المدينة في هرج ومرج جهنميين. أما وقع كل ذلك فكان صعباً على أعصابها، وطمأنتُها قائلة بأن كل شيء صار يروج في البلد منذ إصلاح الزوايا الذي حمل القماءة والتطرف الأسود وابنة عمّهما العنصرية المتشعبة إلى أعلى عليين. لقد مررتُ بهذا من قبل وكنت لا أنام لهولها وأحس بالإحباط لأنَّ الوزارة كانت لا ترغب في الأطباء ولا في الممرضات، ولا في العاملات بالمخبر خصوصاً، والأدهى من ذلك والأمر... ماذا نسيتُ... آه كانت لا ترغب فيمن يحسن القراءة، هكذا! والسبب هو أن هؤلاء سيكثرون على البلد ولن يوجد لهم المحل الذي يسعهم، وأخيراً يُكتشف أن هؤلاء انقرضوا نهائياً فتُشغّل آلة الإنتاج من جديد. وينطلق العمل بأقصى سرعة، وتستقطع الأموال من أرصدة البرامج المسطرة، ويُغَضّ الطرف عن الحسابات الصغيرة، وتُفتح المستشفيات حتى في البقعة التي توجد بها أربعة حيطان جاهزة، انطلاقاً من المبدأ القاضي بأن توظيف الزائد عن العدد من العاطلين عن العمل علاج ناجع

في القضاء على البطالة المستديمة. ولقد سمعتُ في أحد الأحاديث المتلفزة المملة إلى حد الموت إن التطور كالمسير، هو بمثابة تتابع متسق من الاختلالات. وهكذا يصبح معقولاً تماماً ما دامت هناك القدرة على السير وإلا فالأولى أن يظل المرء جالساً، وهذا ما يفلح فيه المتشدقون بالأحاديث بامتياز، ولكن المشكلة الحقيقية تكمن في كون قاعدة العدد المحدود أُعدتْ على أساس حجم السكان وليس، كما ينبغي أن يكون الحال، على أساس حجم المرضى، فهذا يضمحل بصورة خطيرة والآخر يتزايد على أساس قاعدة الدالة الأسية. وبهذه الكيفية ينبغي أن يجري الحساب بصورة مخالفة تماماً لطريقة جمع الأصفار، تلك هي القاعدة الصحيحة، ولكن الوزارة لا تريد الاعتراف بالأمر الواقع، فهي متشبثة دوماً بخطبها القديمة التي ترجع إلى العهد الذي كان الأموات لا يتكلمون فيه.

ومن أجل الترويح عن نفسي وتحرير شهرزاد من التهيب الذي كانت فيه تناولنا الشاي معاً ونحن نغني أغاني نشاز فيها من الأسى البالغ الذي أثر فينا نظراً لحالتنا. وسرعان ما هرعت البنات اللائي كنّ مسترخيات يستذكرن خيباتهن أو كنّ يذاكرن دروسهن وهن حالمات، وتحولت الجلسة إلى عرس، وعمّ الرقص أرجاء الرواق من أقصاه إلى أقصاه ولم تعد

البنات يخفين أي شيء مما يغوي الشيطان اللعين. فكلما تجمعت البنات زمراً تحول الوضع بسرعة إلى شبق وشهوانية، فأُحضرتْ المناديل والأوشحة وأخرجتْ الطبلة وانطلقت الموسيقى وهاجت الفرقة وماجت وتناجت العيون بالغمز وبدأت الخصور بالرقص على واحدة ونص. وكم يكون الجو مرحاً عندما تستعيد الحياة الوحشية نوازعها الطبيعية خاصة أننا لم نسمع أن الله هدد العصاة بالوعيد. وبالمناسبة استطاع 235 أن يعدد خصال أمه العزيزة ويباهي بها بالمزاد. فكان مبتهجاً كل الابتهاج ولم يكن يبدو له أي شيء مستحيلاً، ووعدته البنات كلهن بالمجيء لمؤانسته وأمه بمجرد الانتهاء من الامتحانات. وكلما كانت البنت مناسبة للأم فهي لابنها أنسب. وهكذا لم يصبح في وسع 235 إلا أن يفوض أمره إلى خفة البنات ورشاقتهن لإلقاء القبض عليه حياً أم ميتاً. ولما استعرت نيران العشق آن الأوان لكي أنصرف وأستعيد سعيي الكئيب. لكن أحياناً يكون البكاء ضرورياً للامتناع عن البكاء ولكن في الغالب لا شيء يضاهي نوبة دموع حرى. وساعتها، كنت أمر بهذه الحالة المتأرجحة بين بين.

ورُحتُ أطوف بعيادات الولادة، وقارب العددُ العشرينَ أو زاد في وسط الجزائر وفي ضواحيها،

ونشرتُ الخبر على الملأ، أعني قمت بتجنيد زملاء المهنة، والذين ما زالوا يذكرون يمين الطبيب، وزملائي أيام الجامعة، وزملاء الزملاء وأصدقاء هؤلاء.

قلت لجميع المجندين والمجندات: "ستتعرفون عليها من ضمن ألف، فالأنظار تتجه إليها بمجرد أن يلوح خيالها في أي مكان، فهيفاء مثلها بِكُرَةٍ في الشهر الثامن وأيام منظر ظاهر للعيان إلا على من أبى النظر"، وألححتُ على ضرورة أن يقوم كل منهم بعمله على الوجه الأكمل خصوصاً لمن وُفق في الحصول على عمل.

وما دامت الدنيا تسري بقاعدة هذه بتلك، أو أعْطِ تُعْطَ، وعدْتُ كل واحد وكل واحدة بشيء ما، فالمساكين ليس لهم إلا الأظافر للعمل والعيون للبكاء. وأعدّوا لي قائمة بالمطالب كفيلة بإسالة لُعاب بائع خردوات لحاله إذ يوجد بينهم حتى من طلب مولداً كهربائياً. وكان لنا في مستشفى بارني، حظ نحسد عليه في التجهيز، فالمسؤول له باع وذراع، فهو ابن عم الوزير وابن أخ الباشا الكبير، ولكن مع ذلك هناك مبالغة في هذا الطلب! كيف السبيل إلى إخراج كل هذه المقتنيات دون أن يلقى عليّ القبض؟ هذا هو السؤال،

فحراسنا يغطون في النوم طوال النهار ومع ذلك فإن من يتوكل قد يؤكل من حيث لا يحتسب.

وعُدتُ مرة أخرى إلى الانتظار. كانت أعصابي ككُبة الصوف، أقلّب الأمور على كل وجه، أفسر وأؤول وأقدر وأضرب أخماساً في أسداس، وألفّ وأدور غير بعيد عن الهاتف. فكّرتُ في شراء هاتف محمول ولكن ثمنه المرتفع كان سيكلفني ما معي وما ليس معي، ثم إني معدمة ولا أرغب في الجري من محل إلى محل لأسمع كلام التجار المغري. كنت أثق في منظومتي الطبيعية للإنذار، وأعرف أن شريفة ليست من النوع الذي يلد في الطريق، فهي ستتقدم إلى مؤسسة ما وتطالب بسرير وغطاء وأواني الأكل، وهو ما لن يتيسر لجلالة ملك إسبانيا لو راودته الفكرة العبقرية في العلاج بمستشفياتنا. لقد ظلمتها الحياة ولكنها استطاعت أن تقد لنفسها طبع البنت المدللة التي لا تطاق، فهي قادرة على كسر شوكة أعتى حراس المستشفيات.

ورحتُ أعد الأسابيع القليلة التي بقيت قبل وضعها مولودها دقيقة دقيقة، ثم رحتُ أعدّ الأيام الأخيرة، وأخيراً ما بقي من الساعات الأخيرة. وإذا ما كانت حساباتي دقيقة، فإن في هذا اليوم 22 مايو، مواليد

برج العقرب، تكون الأشهر التسعة للحمل قد اكتملت، وتكون شريفة قد تخلصتْ. هيه... ماذا... أعيدي عليّ، يا حبيبتي! تخـ. تخلصتْ! ماذا... يا إلهي، أبهذه السرعة! أين... منْ...كيف... بنت...ولد...؟ إنها... إنها أم... أنا هيه... صرْتُ أغمغم في الكلام. إنها المفاجأة والفرحة والحزن والقلق والغضب واليأس، كنت أشعر بكل هذه الأحاسيس في آن واحد، كنت أغلي وأفور.

الولادة، أعرفها حق المعرفة. ولقد ولى الزمن الذي كانت فيه عيادة الولادة في بارني تمارس عليّ سحراً لا يقاوم. كانت لي آنذاك مشاكلي الخاصة، فكنت أذهب وأغادر وأنا أتظاهر بالرغبة في العمل على غرار الجميع. وفي الحقيقة لم أكن متحمسة إطلاقاً للابتهاج لمنظر العفاريت الصغار البرمائية وهم يتخلصون من أمهاتهم كالشياطين الصغار محمرّين من الغيظ كي ينقضّوا بنهم على أثدائهن. إنهم يشعرون بالجوع بمجرد خروجهم إلى الدنيا. لقد كنت أقف مذهولة أمام المنظر الجميل الموجود في ذلك القبح المجعد والمخضب بالدم، والمستهلّ بالصراخ، والضرير الذي صارت تفوح منه رائحة الحليب الحامض والإسهال الأصفر. كما كنت ألاحظ بأسى وحزن عميقين الكثير من الملائكة الذين يخرجون إلى النور أمواتاً، أطرافهم طرية وأجسامهم بها زرقة

الموت، فلا تجد الأمهات الثكالى إلا النظرة المداعبة لأرواحهم وهن راضيات بأن الله هو من أعطى وأخذ. أما أنا فكنت أسمي ذلك جريمة ولكن أموات المستشفيات لم يكونوا في عداد الضحايا ومن الله تعلمنا أن نرضى بالقسمة والنصيب. رأيتُ بأم عيني القابلات وهن يعملن مبتهجات يهمهمن بالرضا ورأيتُ الساحرات السامات وهن يتصرفن كما لو كن مفوضات من الأغنياء أصحاب الأملاك الراغبين في كسب الصحة والشباب والمراتب الرفيعة، ورأيتُ أطباء كلهم طيبة وإنسانية ورأيتُ آخرين في منتهى الخسة والدناءة. ورأيتُ فوق كل ذلك مشاكل التخلف والحماقة المرتكبة باسم الدين والدسائس الخفية للبطانة التي تتواطأ من أجل التقنين للتهاون ومضاعفته إلى ما لا نهاية.

وفي يوم من الأيام طفح بي الكيل، ولا أذكر بالضبط إن كنت قد طُردتُ من عيادة الولادة أم أنا التي تعبتُ من توبيخ الصم المغرورين.

شريفة الآن في خضم هذا الضياع، ومجرد التفكير في الأمر يتعبني.

وتكلمتُ في الهاتف مرة ومرتين وثلاث مرات وإلى ما لانهاية. كنت أشعر بالغضب الشديد يعتصر فؤادي... وبالكثير من الأمل أيضاً.

"آسفة، إنها ليست عندنا."

"لا شيء يُذكر."

"هل أنتِ متأكدة من شهورك التسعة؟"

"اطلبي مستشفى بني مسوس، إنه المصنع، ستكون هناك بالتأكيد."

"ليست عندنا، أتمنى ألا تكون في مستشفى بلفور، تذكري ما حدث منذ ستة أشهر."

"لقد رأيتُ هيفاء تمرّ أمامنا ولكنها كانت مجنونة فهي في سن جدة زوجي الطاعن في السن..."

"اطلبي الشرطة، فقد تأتي للتحقيق عندنا."

"حاولي الاتصال بجمعية الرّضع المفقودين، فأنتِ على علم بما يُروى..."

"عذراً، نسيت ما كنتِ تحدثيني بشأنه، فأنا لي بعض المشاكل، زوجي تـ...آووو، آووو!" هذه أقفلتُ الخط في وجهها، لست مستعدة للاستمتاع بالمشاكل العائلية، فلي ما يكفيني!

"ربما تكون قد وضعتْ حملها في تاكسي... فزحمة المرور هي أكبر عيادة ولادة في هذا البلد."

"انشري إعلانا في الجريدة!"

"كنتُ غائبة في تلك الأيام، اتصلي بي غداً."

...

سمعتُ من الجميع الغث والسمين. كلهم من

الصنف الذي ينام طول النهار ويهرب من العمل في أول فرصة. سأقتل واحداً منهم لو سنحت الفرصة، ولكن سأذهب الآن وأفتش بنفسي. أين أجد مراد ذلك الأبله، إني لا أعثر له على أثر كلما كنت في حاجة إليه! يمكن أن يفيق ككل سكران من سكره ويأتي إلى العمل ككل الناس، فلا تعارض ولا تنافٍ في ذلك، تباً له! وناديتُ 235 فجاء مسرعاً في دبابته. سيُطرد هذا الشخص من عمله في يوم من الأيام إذا ما داوم على مرافقتي. وكانت الجولة طويلة وشاقة ومخيبة لكل الآمال.

إن الوقائع هي الوقائع، لا يمكن أن نرفضها أو نتمرغ في التراب: شريفة غابت نهائياً وإلى الأبد.

نعم يمكن أن أقول الأشياء بهذه الصورة: انتهى كل شيء. وهنا بالذات يئستُ من المسألة واستسلمتُ نهائياً.

ثم صارت الأيام تتوالى مستترة وتمر في تكتم. كنت لا أشعر بقدوم يوم الاثنين حتى يكون الجمعة قد ولى وفات في العار والتقزز. وكانت ضوضاء المدينة تصلني وكأنها آتية من كوكب آخر، ولم أكن أدرك إن كنت أسمعها حقاً أم أن الريح هبت على الطريق. كنت شاردة في عالم آخر، وموصولة بتذبذب الزمن غير

القابل للوصف، وبحركة تلك القطرة التي تلي القطرة القادمة من أقاصي أرجاء الكون الفسيح إلى غاية أعماق أفكارنا. إن شيئاً ما تم بعيداً عني دون أن يكون لي فيه دخل، خارج إرادتي وفوق وسائلي المتاحة. وكان القدر ـ ولا شأن لي به ولكنه هو الذي قدّر ـ أكبر من حبي وأكثر دهاء وأكثر فظاظة، وكان أسرع. كنت ساذجة إلى أقصى الحدود وظننتُ أن الحب يكفي لذاته، وأنه يكفي أن يفتح الإنسان قلبه وذراعيه وبيته لتنعقد الصفقة. بذلتُ كل الجهود، والله على ذلك شهيد، ولكني لم أبذل جهداً واحداً وهو الأهم، وهو جهد العمل بالمجان، ألّا أطلب شيئاً في مقابل الحياة. والآن فات الأوان، ولا فائدة في أن أكرر ذلك على نفسي، فتوقفتُ عن البكاء، ولم أعد أتوّه، ولا أفقه أمراً، بل أصبحتُ عديمة الإحساس بالألم.

إن الأيام تفقد كل ما لها من رهبة لما نتوقفُ عن عدها يوماً بعد يوم.

ماذا يسعني أن أقول؟ لا شيء. فلا شيء يطرأ في منحدر فالي. وفي الجزائر العاصمة لا شيء يحدث أيضاً. وحتى في الجزائر بأسرها لا شيء يحدث. صار الأمر كما في مقبرة، في يوم من أيام الخريف في سنة ميتة في قرية مهجورة ببلد ضائع في عالم قبيح. وفكرتُ

ملياً ثم وجدتُ أن الأمر لا شأن لي به تغير أم لم يتغير. ففي الصحراء، يكون الأمر هو هو، ولا شك أن لا طائل من الفعل، فالأولى ألا نفعل شيئاً. وكم هي الحياة مسيخة عديمة الطعم، وحتى الوجع بل وحتى الموت، عندما يغيب الإحساس. أقول بأن الحياة مضيعة للوقت بلا حب ولا معاناة لوعته الرهيبة. ولا ريب أن كل فرد يسعى إلى الوصول إلى مبتغاه، ولذلك نراه يضيع في الأحلام ويمكن أن يبتهج لها، أما أنا فانقطعتُ عن الإيمان بها ولا أفهم كيف يمكن أن أستمر في العيش فمن حين إلى آخر وبين تنظيف شامل للبيت وآخر، وبعد حمحمة وانتفاضة كنت أسترخي تماماً وأطلق العنان لنفسي ولكن أبقيها تحت المراقبة، فأنا صرت أجنح إلى الجنون. فكما كنت أراني راضية عن كل شيء يمكن أن أجود به من الحب والحقيقة كنت أتخيل نفسي في عالم أفضل، ليس لكي أهنأ بالعيش الرغيد ولكن فقط من أجل أن أزعزع الأمر الواقع وأطيح بالبذرة الفاسدة. كنت سأقوم وقتئذ بآلاف الأشياء لأنها كانت ستكون ممكنة ولأني كنت سأشعر بالقدرة على القيام بها. فلو فعلتُ ذلك لكنت قدّمتُ شكوى في الوزير المقيت الذي ارتكب جرائم فظيعة؛ منها اغتصاب قاصر وإهمال رضيع وخيانة الأمانة، واختلاس الأموال العمومية وإن كانت هذه من تحصيل الحاصل. وكنت رفعتُ دعوى أمام القضاء ضد نسوة

الجمعية الخيرية، وضد مستشفى بارني والباشا المدير، وضد الدولة وأئمتها، والشرطة وقضاتها، والجيش ورئيسه، والمقاتل المجاهد وأتباعه، وضد كل سعيد، من الشمال كان أم من الجنوب، حاجاً كان أم سيداً. وكنت قلبتُ الأمور رأساً على عقب لكي يكون هذا العالم أسعد وأسعد. ولم أكن أطلب في مقابل ذلك لا جزاء ولا شكوراً، إذ يكفيني الابتهاج لرؤية الناس تغدو وتعود في سلام وأمن. وكنت اغتنمت الفرصة حقاً للتردد على المطاعم، والحفلات الراقصة، وقاعات السينما وكنت وقعتُ في الغرام المتيم خمسين مرة في اليوم الواحد! ولكن، هنا في بلد لا يحدث فيه أي شيء إلا الرمل الذي يتسرب تحت أقدامنا والريح التي تصفر فوق رؤوسنا، ماذا عساني فاعلة؟

ما دام كل فرد ميسراً لما خلق له قررتُ أن أغير كل شيء في بيتي. ولقد قلت بأني لست من الصنف الذي يبقى مكتوف اليدين، وأمقتُ كل من يشفق على حاله وهو حي يرزق. وهكذا شرعتُ في العمل بهمة ونشاط حتى أن عفاريت البيت اندهشت للأمر! واستولتْ عليّ حالة من الجنون، وازددتُ إصراراً وعزيمة فرُحْتُ أستخرج كل مدّخراتي وأفتش عن كل ما بقي من مال ونزلتُ إلى المدينة لأشتري كل ما في الدكاكين التي كانت بائسة كالعادة وخارجة على القانون

فوق اللزوم، ولكن ما في اليد حيلة، دفعتُ بالدراهم التي تُدفعُ إليّ، وهكذا شعرت إلى حد ما بأني سُرقتُ ولكن على الباغي تدور الدوائر. وجلبتُ من العمال بعض الحرفيين الذي يدّعون بأن لهم من المهارة ما للأولين والآخرين وبأنَّ قناعتهم كنز لا يفنى، من نوع عمو حسين واستنجدتُ بالسائق القرصان 235 ثم عندما فرغتُ من التشطيب استرحتُ وشرعتُ في الغزل والطرز وكي الملابس، وتكرار الأعمال نفسها مرات ومرات، وكنت أبقى متأهبة للحرب حتى الهزيع الأخير من الليل. فأصبحتُ مثل فانتين، في البؤساء لفيكتور هيغو، المستعدة لكي تسلم الروح بعدما أعياها الأسى وأوهن جسمها مرضُ السل. وفكرتُ بعطف في الأمهات اللائي يكنّ في وضع لا يخطر على بال بشر وهنّ على استعداد للموت من أجل فلذات أكبادهن. هل سيكون لشريفة الحظ نفسه الذي حظيت به كوزيت؟

وفي أحد الأيام، وعندما شعرتُ أن المهمة انتهت توقفتُ، ورأيتُ أن الوقت قد حان لكي أرى نتيجة العمل الباهر الذي قمت به. همم... رائع... رائع للغاية! واكتشفتُ أني أنجزتُ أروع روضة أطفال ساحرة في العالم، ولو علمتْ شريفة ورضيعها اللطيف بالموضوع لعادا يسابقان الريح إلى البيت.

لا عقل
ولا أخلاق.
لا فرح
ولا إشراق.
لا حقيقة
ولا وضوح.
لا سمن على السيخ
لا يوجد أي شيء
إلا ما وقر في الرأس
جلطة من الجنون.
من ها هنا يجب الانطلاق
والطريق شاق.
يا ليل يا عين!
يا عيني يا ليلي!

المشهد الرابع

الحياة حكاية خارقة
من شدة الآه، ننسى
ولا يكبر الإنسان إلا في الأسى
هكذا البهجة سماد أخصبُ
يكفي أن يشاء الربُّ
حتى يكون الربيع قد أمسى.

وهكذا قدر الله، وما شاء فعل.

وعاد الربيع قبل أوان حلوله.

ولكن كان عليّ أن أتجرع الكأس المرّة إلى آخر قطرة.

في اليوم السابع بعد تاريخ الولادة حسب التقويم الذي وضعتُه بنفسي وصلني خطاب عن طريق الهاتف. كنا يوم 29 مايو، في بداية الصبيحة، وأنا أتهيأ للتوجه إلى المستشفى. كنت ما زلت أتردد عليه كطبيبة ولكن أكثر فأكثر كمن يتآكله داء دفين. ولما سمعتُ الرنين وقد أكون تلقيتُ هاجساً، عن طريق الرؤيا أو بوسيلة أخرى، أدركتُ أن خاتمة محنتي الشديدة معلقة بطرف خط المكالمة. وفي خضم فوضى الانفعال، لم أكن أتحكم آنئذ في حركاتي، سرّحتُ شعري ببلاهة، ومسّحت بيديّ على فخذيّ، وببلاهة أكبر نظرتُ حواليّ وكأني أبحث عن عون أو عذر، ثم رفعتُ السماعة بحركة فيها نرفزة كما لو كنت ألوم نفسي على تلكؤها في هذه الطقوس كالبهيمة الطريدة.

سأظل أذكر ما حييتُ تلك المكالمة، كل كلمة فيها، ورنة الصوت، وما بقي لذلك من امتداد في رأسي وفي جسدي، وفي أحشائي. هي كلمات متقطعة ومألوفة، كلمات متنافرة ومتضايقة لكي تعبّر عن أشياء خارقة للعادة. ومما لا شك فيه أن حدة الأشهر الأخيرة قد شحذتْ أحاسيسي إلى الحد الذي جعلني أرى المأساة في كل مكان، والتهريج والجنون على أهبة الانفجار.

"آلو!

- الآنسة لامية؟

- هيه... ربما... نعم.

- نهارك سعيد، اسمي آن...

- ماذا... منْ... هناء؟

- كلا، آن، ولكن هما ذات الشيء. اتصلتُ بك بشأن... "

لا! لا، يا إلهي، إلا هذا!... أحزر... ستخبرني... بأني... بأني سأموت... سأصرخ من هنا إلى آخر يوم في حياتي.

"الرأفة، سيدتي، إلا هذا... ارحميني، أرجوك.

- أنا آسفة... حقا آسفة. يجب أن نتقابل.

- لماذا؟... لا فائدة.

- تلك كانت إرادة شريفة...

- ماذا؟... يا إلهي!

- لا أستطيع أن أقول أي شيء في الهاتف. تعالي، أرجوك.

- أين؟

- إلى البليدة، في دير أخوات سيدة الفقراء. ستجدينها عند الخروج من المدينة على طريق الشريعة. اسألي، الناس هنا يعرفونها. أنا في انتظارك.»

كنت قد تصورت كل شيء، المستحيل واللامعقول، ما هو جارٍ في بلد يخوض حرباً ضد ذاته، القدر على ناصية الطريق، وكل ما لا يحدث إلا مرة في ألف سنة، مرة واحدة، معجزة على كل حال، ولكن لم أتصور تدخل الكنيسة. كنت أظن أن هذا البلد كان تحت سلطة المسجد دون سواه.

قفزتُ في أول تاكسي، طنجرة قديمة صفراء لونها، كسيارات الأجرة في نيويورك، يقودها شيخ سمين وأشعث كفيل البحر التائه في الجوار بلا سبب. الناس في المكان الذي أقطن فيه في منحدر فالي لا يتحركون إلا إذا نزلتْ أرجلهم لتستقل الحافلات مع التضرع للمولى أن تكون مؤسسة راتوغا في يوم مواتٍ. هل هو المكتوب الذي أرسل إلي هذا التاكسي؟ أرفض الإقرار بذلك. ولحسن حظي كان كلاهما شيخاً ومستهلكاً،

السائق وسيارته، ولا شك أنهما يعرفان أدق التفاصيل عن الطرق والمسالك على مدى شعاع ألف كيلومتر. والبليدة لا تقع إلا على بعد خمسين كيلومتراً، ويمكنهما أن يقطعا المسافة وأعينهما مغمضتان وبأقصر طريق مختصر. وكنت أنوح في منديلي، وأبرم أصابعي، وفرائصي ترتعد، فأبدى سائق التاكسي تعاطفه معي وراح يكلم نفسه، إذ كان عبارة عن طاحونة كلام تحدث جعجعة في مهب الريح. وكنت بدوري أزود طاحونته بالماء عندما أرد عليه بأجوبة مقتضبة إذ وجدتُ في ذلك بعض التسلية، فلم أكن أطيق قطع كل تلك الكيلومترات المزدحمة بالسيارات المجنونة والعربات السكرانة، فلقد كان رأسي يعج بالقلق وقلبي ينبض بأقصى سرعة.

"زوجك ضربك؟

- مفف... مفف... نعم.

- وإلى أين أنتِ ذاهبة الآن... عند أهلك؟

- مفف... مفف... نعم.

- هل عصيتِ أمره؟

- مفف... مفف... أعتقد ذلك.

- ولكن تبدين عاقلة. إنه الشيطان الذي أعمى بصيرتك، أليس كذلك؟

- مفف... مفف... نعم.

- وهـذا الـزوج الـذي يـدعـي الإسـلام، يـتـركـك تسافرين وحدك، وبلا حجاب؟
- مفف... مفف... نعم.
- في زمانا كان هذا الأمر عيباً!
- مفف... مفف... نعم.
- ...

راودتني الفكرة في أن أوسعه توبيخاً، زمانه؟ زمانه ورثنا منه بمئات الأضعاف المضاعفة، ولكن رأفة بسنه وحالة الخردة التي كان يقودها، كنت خائفة من ألّا يتحمل قلبه وتتعطل طاحونته عن الطحن نهائياً. وسأكون وقتئذ جنيتُ على نفس فيسجّل عليّ استشهاد مسلم بكامله وهو في أرذل العمر ظل يطهره ما بقي له بالحج وبدعاء الإمام. وقبل كل شيء فأنا لم أكن أصغي إليه، كنت أرفض ذلك، ولا يمكن أن أزيد على ما أنا فيه من أحزانٍ هذيانَ قرد عجوز حول لماذا وكيف تهوى المرأة معاشرة إبليس.

وفي الشطر الثاني من الرحلة راح يخوض في مسألة العقاب الواجب تطبيقه على المرأة في ضوء ما اقترفتْ من ذنوب، عليهن وعلى أخواتهن وبناتهن أو صاحباتهن؛ وذلك عبارة عن تدرج في العقاب على الفرد والجماعة مقدماً في قالب بلاغة استبدادية. وسواء

كنّ، أي النساء، مذنبات أم بريئات، فهن أهل للصلب، هذه خلاصة كل الكلام. وتكلم عن الطلاق ولكن على سبيل الحل الأعرج والواهي، والمقبول ولكن فقط في حالة عدم وجود حل آخر. ماذا! هل هذا ما سمعتُ؟ كنتُ سأسأله عن التوضيح بدل التلميح، عن الصعوبات التي تمنع الرجل من أن يرمي بنا في الشارع أو يدق عنقنا، وما هي المعوقات التي منعت هذه المسوغات ومنذ متى طرأتْ، لكنه لم يمهلني بل استطرد في الخوض في موضوع الجلد والرجم ليصل في نهاية المطاف إلى ما يراه طريقته المفضلة في الطلاق: تُربط المرأة بالأغلال في قاع بئر مدة سبعة أيام وسبع ليال، وبعدها تملأ البئر في جو مهيب مفعم بالورع. وتراه هنا، قد أطنب في هذا الشق من الشعيرة العقابية الحقة في نظره، والتي أهملتْ في زماننا هذا لا شك بسبب نضوب الآبار وجفافها. وبعدها تابع حديثه عن التحريق والذبح والتعذيب بالفسخ والإيغار في الماء الساخن لكامل الجسم أو لجزء منه، وصبّ الرصاص في الأذنين وفي مناخير الأنف، وأشياء لم أفقه منها شيئاً، وصال وجال في أرجاء العالم الإسلامي الفسيح والغني في هذه الأطباق الرئيسية. إنها عادات أكل الدهر عليها وشرب ولا صلة لها بالواقع، يا إلهي! أيستطيع أن يجمعهن كلهن في مصانع ويقتلهن بالغازات أو بالصعق الكهربائي بعشرات الآلاف،

ويحللهن في الأحماض، ثم ماذا بعد؟ يصنع منهن شموعاً، وملمّعاً للأحذية والجزم. كذلك يوجد حل أحسن من هذا، إذ يذيبهن ليستخرج منهن مزيجاً ثورياً، فيستعملهن سماداً في الزراعة، أو في أحسن الأحوال ركاماً لتبليط الطرق، لتكون المسافة أطول بالتمطيط. في الواقع، لم أكن أصغي إليه، ولم أكن أرى شيئاً، بل كنا بصدد الوصول وكان قلبي ينبض نبضاً شديداً. صرفتُه مع رجاء العودة بعد ساعة، وقدمتُ له ورقة نقدية واقترحتُ عليه الذهاب كي ينفض عنه إرهاقه في مقهى عربية، ذلك المكان العجيب الذي لا يذكر إطلاقاً أن قدم امرأة وطئته. وحملق بعينيه حيرة، لأنه لم يفهم ما الذي أتى بامرأة خرقت شريعة القرآن إلى دير مسيحي.

دير سيدة الفقراء بناية صلبة مكسوة بكروم من العنب البري، مزروعة في منأى عن العالم، في منتصف الطريق بين البليدة والشريعة، على شفا درب يعطر أجواء حوض المتوسط بأريجه الفواح. فكل شيء يبدو ضاحكاً في ذلك المقام، ولكن الوثوق بالمظاهر ليس كالعلم بالبواطن، حيث الجو المخيم على المكان كان جواً بسيطاً في تلك المرتفعات المفتوحة على الأرجاء الفسيحة، وكل شيء أيضاً خاضع للنزوات، أما العشب اليابس فإنه يصفرّ حتى قبل أن يخضرّ وزرقة

السماء تتقلب من اللون الأبيض إلى الأحمر دون مقدمات. كذلك يوجد بارومتر ذو بأس يمكن أن يدرك ذلك العُصاب النفسي ولا يغير أحواله وأحوال الطقس مرات في اليوم كما يغير المعطف بالقميص. وأما الزوابع فلا يعدو أن تمر مرور الكرام غير عابئة بتضرّع صفائح الماء المنتظرة التي تتخاصم قليلاً فوق رؤوس العطشى ثم تولي قبلتها نحو البحر لتقوم بدورة الماء الحرة مرات ومرات؛ فكم هي بعيدة طرق الجزائر الدنيئة الآن وكم هي غريبة هذه السماء! واستأنفت سيارة التاكسي سرعتها الأولى من جديد وهي تسير ببطء في الطريق الوعر بين صفين من شجر العليق الذي كان يسمع حفيفه كأنه اصطكاك أسنان. وهكذا كانت السيارة تهتز من الإجهاد صابرة على العناء، وفي كل منعرج من تلك المنعرجات يسقط منها إما برغي وإما ضرس من شبيكة المقود. ومن جهتي كنت أتضرّع وأشجع تلك السيارة المسكينة على الصعود حيث كانت الصراصير هي سيدة المكان، فلا يسمع إلا صوتها. وفي بضع دقائق في هذا الحمّام كان يتهيأ لنا أن لا شيء موجوداً سواها على الأرض والله في السماوات. أما الشمس الملتهبة فكانت مضمونة في ذلك المكان طوال السنة، باستثناء أسبوع حقيقي من الثلج في مرحلة ما من الفصل، حيث كان هواة التزحلق، في الماضي، قبل الزلزال، يتكلمون عنه كما لو أنه دام

اثني عشر شهراً. ومن جديد فكرتُ في ألبير كامو، كواحد من أبناء البلد، الذين ترددوا على المكان من خلال أشجار الزيتون وصرار الليل قبل أن يرحل إلى المنفى في القطب الشمالي، هناك في أعلى الكرة الأرضية، كما فكرتُ في العبث الذي يلاحقنا من المهد إلى اللحد. كذلك خطر في بالي رشيد ميموني، وهو ابن آخر من أبناء هذا البلد، الذي يقال إنه هام في ربوع هذه المنطقة قبل أن يحرق الطريق ويرحل ليموت هناك في طنجة البهيجة، مدينة ملتقى كل الاتجاهات. إن هذا الإفقار يدمي القلب، لأننا ننتظر من الأرض التي هي مسقط رأسنا الوفرة والبهجة لا المنفى والموت. لكن هناك مثلاً يقول إن من يسقط في الظلمة يسقط في الظلم، ويعبّر حقاً عن الانحدار إلى هاوية الجحيم، ولكن في هذه الأمكنة، وفي هذا الضياء والتناغم العاشق بين حشرات النصفيات، كيف يمكن أن يكون الإنسان شريراً أو محزوناً ولا يشعر بالعار؟ ومرة أخرى نسقط في العبث وفي الجنون.

كانت البوابة الخارجية متينة ومصنوعة من الخشب الخالص المصفح بزخارف حديدية قديمة جداً. أما خلفها فكان الصمت المطبق والأمان. فنحن كلنا نتخيّل الأسرار العنيدة، وكم من حياة تقف ضحية الكثير من الحيرة والكثير الكثير من الأسئلة العويصة التي يتآكلها

الشك أو يهيجها، ولكنها كانت محرومة دون أدنى شك من السعادة؛ فأكسير الحياة هذا الذي نجتهد نحن المخلوقات الضعيفة المتذللة في سرقة قبس منه من هنا وآخر من هناك لكي نفلت من التلاشي، أو على العكس لكي ننجو من هذا البؤس اللئيم الذي يجعلنا نتشبث بالحياة كطوق نجاة، رغم الداء والأعداء. لست أدري ما الذي يمكن أن يفكر فيه الإنسان، فأنا نفسي أعيش الوحدة إلى أقصى حدودها في قلعة صغيرة متهالكة يلفها سجن واسع يتداعى ويتساقط حطاماً ويجرنا في انحطاطه.

على جبهية المدخل يظهر عنوان الدار محفوراً في نقش دائري ناتئ فوق ساكف البوابة على حجر وردي اللون من قطعة واحدة: دير أخوات سيدة الفقراء. فلقد كان المكان الموحي بالإهمال يجعل من يراه يعتقد أن عدد منْ في الدير يحتسب على أصابع نصف اليد الواحدة. فأين المتسولون، يا أرحم الراحمين؟ والأخوات؟ ووكلاء إدارة أملاك الكنائس وأهل البر الذين يهبون من أموالهم ويفرحون لإنفاقه في الوجهة الصحيحة التي رصدت لها؟ وأين التطواف بالأشياء المقدسة وأعياد القديسين، ورائحة الخبز الطازج الذي يقسم في أخوّة، أين هي؟ فكل شيء تهاوى وانهار،

أشياؤنا وأشياء أحبابنا، والتهاني التي يقدمها كل منا للآخر ضاعت هي الأخرى.

كان الباب لا يصدر أي صوت ولم يكن معي سوى قبضتَي يديّ لأسمع مَنْ في الداخل. فما العمل؟

وعلى ربوة المنحدر كانت تجلس امرأة طاعنة في السن، وقد وضعت قفة تحت قدميها وحزمة عيدان من الحطب فوق رأسها تحاول بكل صعوبة استرجاع أنفاسها لمواصلة المسير نحو المجهول، فانتعشت غضون تجاعيدها المتشققة فجأة، ونظرتْ إليّ كما لو كنت ظاهرة طبيعية زائغة وقالت لي: "من أين خرجتِ أنتِ؟ البوابة مخصصة للديانة وللعلاج، حاولي من الجهة الأخرى، ستجدين باباً أبيض عليه صليب أخضر!"

قالت ذلك وكأنها تعلن حقيقة بديهية، علاج الجسد ليس كعلاج الروح. هل كانت على حق، هل كانت على ضلال؟ شكرتُها بغمزة لم أكن قادرة على أحسن منها، إذ كانت هناك عقدة تشد حلقي، بينما باقي جسمي لا يطيع حركاتي لأنه لم يبق لي سوى أن أستمع إلى الأخت آن حتى تقول كلمتها الأخيرة لكي أسكت إلى الأبد. كنت أعرف، وكنت أحس أني عندما أخرج بعد قليل من هذا الدير ستكون حياتي قد انتهت.

مر كل شيء بسرعة شديدة بينما كانت أعصابي تنقبض بفعل تأثير الترقب في بطء لا يطاق. بعدها قادتني امرأة في سن معين، وهي فلاحة من البلد احترفت مهنة الطب. لقد كان مئزرها مئزراً حقاً غير أنها كانت تلبسه وكأنه قناع تنكُّر في عيد القرية. وهكذا تذكرتُ مئزري الأول الذي كنت فخورة به أشد الفخر حيث كنت ألبسه كما يلبس فستان العروس، وكانت الشمس تنعكس على لمعانه والنسيم ينساب بعذوبة على استداراته؛ وبعد ذلك بوقت طويل قمت بتمزيقه خرقاً واستعملته في الأشغال المنزلية. لقد كانت حركاتها الدقيقة للغاية تنم على أنها مبتدئة في المهنة، إذ من المؤكد أنها تقضي ساعتين بوخز إبرة واحدة، لكن مما لا شك فيه أن ذلك يعتبر موتاً بطيئاً للمريضات، ولكن مع مرور الوقت ستتعلم فن التغنج والتقطيع بالسيوف لو شاءت بسرعة لا يلحقها فيها حتى ظلها. إنها تتكلم بالطريقة نفسها التي تمشي بها، تفتش عن كلماتها وتدقق طويلاً في مدى متانتها حيث تلفظها بأسف وحسرة، لهذا شبهتها بالسلحفاة التي تخشى الوقوع في الفراغ. ومما لا شك فيه أنها تعتقد أن العالم الحديث كله حذر ودقة، ولكن الواقع هو عكس ذلك تماماً،

فالكل يرتجل بسرعة ولا يعبأ بالاعتبارات القديمة. من الواضح أنها تعلمُ منْ أكون، فلقد قالوا لها بأني طبيبة؛ لهذا ضحكتْ معي باحترام وحيّتني بالسلام. أما أن يجد الإنسان من ينتظره، وماذا يمكن أن يطلب منه، فهذا أمر رائع. ففي مستشفى بارني، لا أهلاً ولا سهلاً للزوار، فالحراس يصدونهم بشكل يثير الشفقة عليهم. بعد ذلك قامت بمسح يديها، ثم راحت تجر قبقابها، أعني خفها بنعل من خشب، لتوصلني إلى رئيسة الدير التي كانت تدعوها لالة، أي سيدتي، عبر متاهة تحت جسر من قباب لم تكد تنتهي طولاً وانعطافاً. لقد بدا لي الأمر مقبولاً، فبلوغ القديس في حرم المعبد لا بد أن يكون عبر الجهد الجهيد. لكن بالرغم من ذلك كنت أفكر في مثل هذه الأشياء العديمة الفائدة للانشغال بفكري مع أنني كنت أخشى ما أنا مقبلة عليه. وفتح باب أمامنا، نعم... لا شك إذن، إنها هي، الأخت آن. ها قد وصلنا، وكان قلبي يختلج. لقد كانت في انتظاري. إنها رفيعة القامة ولم تكن أطول من قبعة الراهبات، لقد كانت تشع ضياء، بينما لباسها كان خشناً وبلون بني. لم يكن لها سن محدد وكذلك الأمر بالنسبة لجميع الراهبات، ولكنها قد جاوزت الأربعين. ابتسمتْ لي بحنان واحتضنتني بقوة في اندفاع عفوي

وقبلتني. كان الموقف رائعاً، وكانت تفوح منها الخزامى وعطر صابون مارسيليا والبخور ورائحة التراب النديّ في مبقلة الخضر والفواكه.

"تعالي يا بنيتي، ادخلي... هكذا تخيلتُكِ كما أنتِ. تقدمي، لامية، اجلسي... هاكِ كوباً من الماء البارد... اشربي."

كانت تتكلم كما في الكتاب المقدس، كُلي، هذا لحمي، اشربي هذا دمي.

وكان يشع منها انطباع غير عادي فيه القوة والنعومة، وهذا ما هدّأ من روعي من الوهلة الأولى لأنَّ ذلك يشكل المثل الأعلى الذي أسعى إلى بلوغه في علاقاتي بالناس، ولكن أدرك أنه يبدو عليّ أني امرأة مترجلة تحاول مواجهة شدة إخوتها في الدين أكثر من قديسة تفرض هيبتها على الأسود بمجرد نظرة. ولكن قوة الأشياء اتجهت في منحى القلة بالنسبة إلي، وأصابتني العدوى فأصبحتُ ساخطة وغير متسامحة وشريرة ومحبة للخصام وغير موافقة لزماني وما إلى ذلك. فأنا كارهة نفسي. ولكن نجوتُ من الطاعون ومن الكوليرا، لحسن حظي، ولكن إلى متى؟ لكن رغم كل هذه الصفات والعِلاّت فأنا رومانسية، أكتب الشعر، وأؤمن بالأشياء البسيطة، وفوق كل ذلك أحب أن

تسبق الحقيقة العواطف دائماً. لقد كنت تحت تأثير الافتتان بهذه السيدة ومستعدة على تقبل أي شيء منها، لطفاً كان أم ضربة قاضية. واستأنفتْ كلامها بصوت آت من بعيد بحيث لا يكاد يُسمع.

"قدمتْ إلينا شريفة منذ ثلاثة أسابيع في حالة يرثى لها. كانت تهيم آنذاك في شوارع الجزائر عندما شاهدها شخص قريب منا نظر إليها بعين الرحمة، واقتادها إلى هنا معتقداً أن ذلك هو أحسن شيء يمكن أن يقوم به. كان ذلك بدافع الضمير، إذ أن قوانيننا الأساسية ووسائلنا لا تسمح لنا بتلبية مثل هذه الطلبات. إن هناك تساهلاً معنا، ليس أكثر، كما تعلمين. ونحن نقوم بتقديم بعض الخدمات البسيطة للفقراء الذين لا يجرؤون على الانتقال إلى غاية المدينة. ترددتُ كثيراً، إذ كانت المسؤولية جسيمة، ولكن نظراً للظروف التي كانت تمر بها تحملتُ مسؤوليتي في الاحتفاظ بها. لا أعلم إن كانوا سيقبلون بها في المستشفى، فهي... هي قاصر، عزباء وحامل و... وتلبس قناعاً غريباً، قه، قه، قه! والبليدة مدينة محافظة جداً، والإسلاميون يمسكون بزمام الأمور فيها. كنت خائفة عليها، إنهم... إنهم...

- لو كانوا أشراراً وحاقدين وشيطانيين وقذرين لهانتْ، ولكنهم أشد صلابة من الصخر، لخّصتُ لها الكلام بهذه الصورة.

- لا يجوز أن تتكلمي بهذه الطريقة، إنهم خطرون جداً. لو سمعوكِ...

- لا خوف عليكِ، فهم صمّ كذلك أمام الإنسانية جمعاء.

- استنجدتُ بدكتور من الأصدقاء، الدكتور سالم، فهو لا يمارس الطب منذ مدة طويلة ولكنه ما زال نشيطاً. فاعتنى بها، وسرعان ما تحسنتْ حالتها، حتى أنا ساهمتُ ببعض الوصفات الجيدة. وساعدنا كل ذلك على تصور إجراء عملية الولادة هنا في الدير... لقد كانت لطيفة جداً بسرّتها التي كانت تصل إلى غاية ذقنها وبطبعها العنيد!

- هل كانت زوادتها معها؟

- ماذا؟

- لباسها، عفشها، وجهاز الصبيّ.

- حقيبتها؟ نعم، كانت تجرّها من سيورها، كانت تبدو ككلب كبير يأبى السير. قه، قه... قه، قه، قه!"

كان أي شيء يثير قهقهة سيدة الدير. ولكنها سرعان ما تسترجع هيئتها الوقورة وتهيم في أفكارها. وظلتْ على تلك الحال، صامتة وشاردة، تنظر هنا وهناك، إلى السقف، إلى يديها البيضاوين المنصوبتين على ركبتيها المضمومتين إلى الصليب المعلق بالجدار أو إلى كتاب بعينه في المكتبة. إن الدين ينبغي أن يكون على

هذا الشكل فقط: التأمل في الدنيا في سكون والترصد لاختلاجات النفس ونجواها. فلا حاجة إلى الجند والمدافع إذ تكفي الكلمات والآهات والنظرات. كانت عيناها تنضحان بنوع من القلق الذاهل الذي يتأتى لها بلا شك من طول الصلوات، ومن سر التوبة أيضاً، لذلك أتصور أن هؤلاء الأخوات يجدن كل صباح شيئاً يكفّرن عنه حتى وهن يعشن بعيداً عن الرجال وقريباً من الرب. لهذا أعجبُ أن يكون لها خبرة في الرؤيا الذهولية. فهناك من الأماكن، مثل هذا الدير، البسيطة واللطيفة ما يصبح الحلم والواقع فيها جزءاً واحداً لا يتجزأ بعد الصلاة. وهكذا هي التخشيبة التي أعيش فيها، ولا ينقصها لا فلكلور ولا أسرار، ولا أصداء الأدعية الذاهبة أدراج الرياح، ولا أدرك أيهما يؤثر فيّ في البداية، الصورة أم الخيال، ولماذا أقضي كل وقتي في التحدث إلى الأموات، أعني مع أرواحهم. وهكذا وجدتني أفكر في أمي التي كانت لها ذات الطريقة في البحث حواليها عندما تشرع في رواية قصة من القصص العائلية القديمة بينما يتهيأ لنا أنها تبحث عنها في ماضٍ مزدحم ثم تعثر عليها بمحض المصادفة. نعم، في لحظة من تلك اللحظات الشعائرية كانت عيناها تشعان فجأة، وهو ما كان يحيرها بعض الشيء. وهنا، تتضح لها الرؤية، وها هي بداية القصة، في ذلك الركام من الصور المختلفة، إذ يمكنها الآن أن تستخرجها

وتكشف لنا خيط حبكتها ونهايتها العجيبة. وبكلمات مثل: "إيه!... نعم، هذه هي... أذكر... انتظروا حتى أتذكر التاريخ"، كانت تطبطب عليها، وتنفض عنها نسيج العنكبوت، ثم تعكف على تجميعها بلطف ولين كأنها تخشى عليها من الكسر إن هي أخرجتها بسرعة من ذاكرتها أو أن أسرار العائلة تتفتت حطاماً إن هي أخرجتْ فجأة إلى الاحتكاك بهواء زماننا الملوث حتى قبل أن نعلم بها. كنا نظل واجمات نترقب، ومستعدات على الاقتراب أكثر لاغتنام فرصة ظهورها. إنَّ وقع كلماتها ما زال في أذني إلى الآن، أسمعها كلمة كلمة، أداعبها وأرتبها في ركن ركين من ذاكرتي، لكي نطمئنها أكثر من الاستماع إليها في الحقيقة. فلقد روت لنا الكثير من تلك القصص الجميلة وكررتها مرات ومرات، لكننا لم نعد نذكرها. ولكن قصة خالة حورية كانت تسلب مني العقل، فهي مذهلة ورهيبة. فهي من بنات العمومة مع أمي، وكنت أتساءل غالباً عن قصتها وعن حصة الحب فيها وحصة الجنون الخالص في رحلة مغامرتها. فأنْ يقوم الإنسان بما قامت به في ذلك العهد، لا بد أن يكون له شيء عجيب في مخه وكذلك ولم يكن هناك أي شيء في الدوار، في تلك الأزمنة المبهمة التي لا مخرج لها، يؤهل أياً كان على تجاوز الحدود المرسومة حيث كان الناس يعيشون ويموتون على سنّة سيدنا آدم. في البداية، رفضتْ خالة حورية

الحداد على زوجها وتزويجها مرة أخرى، ثم ماتت خارج الدوار، وهو ما لم تفعله أي امرأة قبلها، وبعيداً جداً إلى درجة أن لا أحد يعرف أين بالضبط، في الهند أو غواتيمالا أو أمريكا أو بولونيا، أو في أي بلد آخر. لم تحفظ والدتي اسم البلد، وكانت المسكينة لا تفقه أي مفهوم في علم الجغرافيا؛ كانت لا تعرف إلا الدوار الذي أتت منه ومنحدر فالي، لا أكثر ولا أقل. وكذلك تعرف الشيء القليل عن القصبة حيث كانت تزور مرة كل شهر صديقتها زينب حيث كانتا تجلسان لاحتساء الشاي واستعراض مآسي العالم منذ آدم وحواء، وكانتا تتكلمان قليلاً عن السحر لتكونا في وضع جيد ثم تسرعان مذعورتين إلى زيارة المرابطين والأولياء الصالحين. وفيما وراء تلك الحدود كان يوجد بحر الظلمات. لقد بدأت قصة خالة حورية مع بداية الحرب العالمية الثانية وآلتْ إلى النسيان والفولكلور بعد ثلاثين عاماً. فبعد زواجها بمدة قصيرة إذ بزوجها يتلقى أمر التجنيد ويشحن إلى جبهة القتال. وهكذا انتظرتْ رجوعه كما تعرف كل النساء الانتظار بالدعاء والبكاء في السر. ثم نزل الخبر الباهر وغير المنتظر، وكانت الاحتفالات جارية بانتهاء الحرب، من أقصى الكرة الأرضية إلى أدناها. ورجع الناجون من الحرب واحداً واحداً، شاحبي الوجه، زائغة وجوههم وفيهم المعطوب، ولكن لم يكن هناك أثر لزوجها. وهكذا

جاء في وثيقة الإدارة التي قرأها الدوار كله محلقاً حول المعلم: "مفقود، ويقيد ميتاً". وأجمع سائر القوم على "الانتظار إلى حين"، وعاد كل إلى مشاغله ومشاكله، فلقد كانت الحرب قد خلفت المزيد من الفقر والبؤس وأججت المزيد من الغضب العارم. وانتظرتْ المسكينة عودة بعلها في كوخها ومعها رتابة الأيام، ثم قدمتْ إلى مدينة الجزائر وانتظرته بضع سنين وبعد ذلك سافرتْ إلى فرنسا حيث انتظرت سنين أخرى في مدينة وفي أخرى. ولما لم يصلها أي خبر ذهبت إلى ألمانيا، فإذا كان يوجد مكان في الأرض كان فَقْد البشر فيه عادياً ومألوفاً أيام حرب القيامة فلا يمكن أن تكون إلا ألمانيا. وهكذا، كانت تحل تارة ببلدة وترحل أحياناً إلى بلدة أخرى، وانتظرت أيضاً لسنوات ومعها أناس آخرون جاؤوا من كل مكان، ثم اتسعت دائرة البحث، ورويداً ورويداً انتظرتْ في جميع أرجاء المعمورة. وفي يوم من الأيام وردتْ إلى الدوار رسالة حمقاء تعلمنا بنبأ وفاتها. في البداية لم يتمكن المعلم وهو شاب خريج جديد من خريجي المدرسة العصرية من قراءة الرسالة، واستنجد يميناً ويساراً فلم يجد مخرجاً، وفي يوم من الأيام جاء مهرولاً ورافعاً يديه إلى وسط ساحة الدوار الصغيرة ويعلن على الملأ نتيجة أبحاثه: لقد كانت الرسالة مكتوبة بلغة فرنسية تقريبية في أقصى الأرض ومؤرخة يوم 22 يونيو 1966 وموقّعة

فقط باسم روزيتا. كانت تقول تلك المرأة الطيبة القلب إنها هي من أغمض عيني حورية، بعد أن كانت قد آوتها وداوتها لمّا وجدتها على قارعة الطريق تنتظر ساعة خروج الروح. ولكن الدوار لم يعد كما كان، فلقد غادره الصغار إلى غير رجعة ولم تعد ذاكرة الكبار تحتفظ بأي شيء. لقد كانت تلك القصة قد ضاعت إلا بالنسبة إلى أمي التي كانت تقصّها علينا كلما نزل المطر أو كلما أحست بالكآبة. يا لروعة حورية المسكينة، فقد ماتت دون أن تفقد الأمل أبداً في اللقاء بحب شبابها. والآن، أصبحتُ مثل أمي، أريد أن أعتقد أن زوجها كان في انتظارها في العالم الآخر بذات الحب الذي كان يكنّه لها منذ أن غادر الطريق والحياة. أجل، إن هذه القصة قد استبدت بفكري حقاً.

تحدثت إلي سيدة الدير طويلاً، بطريقتها، بالقليل من الكلمات والكثير من السكوت. كانت شريفة قد استقر بها المقام في الدير كما فعلتْ ذلك معي بالضبط ومع بنات الحي الجامعي. أقول دخلتْ غازية ثم شرعتْ في عملية هدم منهجي للمعالم التي سخّر لها الساكن من الجهد والوقت الكثير. وكان ضغطها الشرياني قد نزل إلى ثمانية، وهي في شهرها التاسع، بينما جلدها يكسو عظمها، لكنها استطاعت في أيام معدودة تحويل رواق دير محتضر إلى ما يشبه قاعة

مركزية لمحطة قطار في ساعة أوج الحركة. كذلك صارت ثيابها تتطاير في الهواء في أعلى كوة المرمى على أسوار الدير وقضى عطرها الإشعاعي على روائح البخور والسناخ التي كان يُعتقد أنها لا تزول أبداً في بعض الأماكن. أما الراهبات فلم يكنّ قادرات على الإمساك بها، ولم يكن لهن معها حول ولا قوة لأنهن طاعنات في السن ولا موهبة لهن في المنافسة. وتوقفتْ وحدها، في أثناء الركض، وقد أصابتها أزمة غير مفهومة ولم تُفهم إلى الآن. ثم جاءها المخاض، وارتفعت درجة حمى شديدة في بدنها وصارت نظارتها تبهت على مرأى العين. لقد حدث كل شيء بسرعة مذهلة، التشنجات وعيناها اللتان لمعتا ببريق أخير، وشفتاها اللتان حاولتا النطق بكلمة أخيرة. "لقد وقعنا في بلبلة من أمرنا، فنحن لا نملك أي شيء، ودعونا لها دعاء لم ندع به من قبل فارتاحت قليلاً من الآلام وخف عليها الإحساس بالاختناق أو هي الذي كانت تتحمله. "كان صوتها مفعماً بالندم والحسرة. أما أنا فكنتُ أعرف هذا الوضع، ففي مستشفى بارني، نتشاجر أمام حالات الاستعجال وقلة الوسائل، ونرتبك بسرعة وندعو الله ونقول أي كلام يأتي على اللسان، وفجأة يخيم الصمت والبرد ويبتعد كل منا لينزوي في ركن ويظل شاحب الوجه، مترنحاً، يائساً، يشعر بالذنب مرة أخرى.

قالت موشوشة برفق: "لقد ماتت في سكينة... كانت متبسمة، فاغرة فاها،

- نعم، إنها تنام بتلك الطريقة، فمها مفتوح، عيناها مغمضتان إلى النصف، مربعة الذراعين... والرجلين أيضاً.

- أجل، تلك هي بالضبط طريقتها!

- كان لها أسلوبها الخاص في كل شيء. اختارت أن تموت في دير، يوم وضعها حملها. أتتصورين؟

- من الخطأ التفكير بهذه الصورة.

- معذرة... حتى أنا لي أساليبي في أن أكون حمقاء وشريرة.

- كانت تتكلم عنك باستمرار، لامية، لامية، لامية، كانت تلك لازمتها. وتمتمتْ قبل أن تسلم الروح: أين أمي لامية؟ قولي لها أن تأتي، أرجوك!

- ما... ماما؟"

توجد كلمات من هذا النوع، تعبر عن كل السعادة الموجودة في العالم. ولكم افتقدتُ سماع هذا النداء. كنت أنصهر من الداخل بيد أن تياراً كهربائياً كان يسري تحت جلدي من قمة رأسي إلى أخمص قدمي. لم أقو على كبت دموعي ولا الأخت آن استطاعت هي أخرى.

"نعم، ماما.

- كنت فعلاً أمها ولم أكن أدرك ذلك ولعلها هي نفسها لم تكن تدركه آنذاك. لقد تاهت الواحدة منا عن الأخرى في مكان ما...

- هكذا قدّر الله الأمر، يا بنيتي.

- هل كان قدره فعلاً؟

- أعتقد.

- أتمنى أن تأتي الأشياء منا، وندرك حينذاك على الأقل لماذا نسعى إلى الشقاء. وفي النهاية، فإذا كنت هنا فلأن الله أراد ذلك.

- لا شك، لا شك."

وخيم الصمت كما لو كان جواباً شافياً لتلك الأسئلة المحرجة. لم أكن في وضع نفسي يتيح لي الفصل. ولاحظت الأخت آن ذلك مني فاستأنفت الحديث بنبرة فيها مزاح.

"كانت تتحدث عنك باستمرار وهي تقلّدك: هاه، هكذا إذن! سنرى! وكانت تبالغ... إنها ماكرة مزاحة.

- نعم، وخصوصاً لا تطاق.

- وهي أمام الله ستعقل، تأكدي.

- ممم... أكيد... ممكن.

- استفاقت بعد أن وضعت حملها الوقت الكافي لترى مولودها، وتتبسم في وجهه الطفولي، وتشرح له

المشاريع الأكثر استعجالاً التي كانت تخططها له. كان الأمر طريفاً! كانت...

هنا، صراحة، سمعتُ أمراً، خبراً هائلاً لا يصدق. وبدأتُ أتلعثم.

- ما... ماذا... هاه... كرري عليَّ هذا!

- كان يبدو أنها سلمت من الخطر ولكن بعد يومين...

- كلا، أعيدي ما قلتِ من قبل!

- ولكن، ماذا دهاكِ؟

- الصبي... أهو حيّ؟

- نعم، بالتأكيد...

- لماذا لم تقولي هذا من البداية!

- أنا... معذرة... كنت أريد.. إن وضعي حرج، ولا يمكن أن نسلِّم طفلاً دون التأكد من بعض الضمانات... لعلك تتفهمين وساوسي، يا عزيزتي لامية؟

- يا إلهي... يا إلهي... !

- كانت تقول: "إن ابني سيجننها!"... والآن أفهم القصد.

- يا إلهي... يا إلهي، ابننا حيّ... ابني حيّ!

- لا داع إلى السؤال إن كنتِ ترغبين فيه.

- يا إلهي... يا إلهي... !

- إنها صبية فاتنة، صورة صادقة من أمها. ولقد أسمتها لويزة...

- بنت؟... لويزة؟ يا إلهي... يا إلهي!

- لقد تعلقنا بها، ولا أرى كيف نعيش وهي بعيدة عنا.

- شكراً... شكراً من صميم القلب.

- الله يسامحني، لم أستطع أن أتخيلها في ملجأ الأيتام، فالدولة تفتقر إلى الوسائل، ولها الكثير من المتاعب، والبلد المسكين ما فتئ يغرق في... في...

- لو كان البؤس والفساد والعنف لهان الأمر، ولكن القماءة في السلطة، قولي لي من يستطيع أن يتكفل بذلك؟

- ستكون سعيدة بين أحضانك، أنا متأكدة. وأرجو أن تأتي بها إلينا من مرة لأخرى، سيسعدنا ذلك جداً.

- أنا مدينة لكنّ بالحياة... لن أنسى.

- أرجوكِ أن تنتبهي وأنتِ تتكلمين. أسلوبك مباشر جداً، وفيه خطر عليكِ.

- أعرف كيف أكون منافقة مع الحمقى، اطمئني!

- أترك لك أمر التصرف فيما يخص أولياء شريفة. فالواجب يحتم عليك إعلامهم وتسليمهم الصبي. شريفة

لم تكن راغبة في ذلك، وكانت تتوسل إلينا: لا تفعلوا هذا، أرجوكنّ، إن ابني في نظرهم لقيط وسيخنقونه ويرمون به في المزبلة!

- إنهم أناس فيهم فظاظة، والتقاليد وضغط المحيط يجعلهم ينفذون ذلك وهم مرتاحو البال.

- لا ندري...لا ينبغي الحكم."

لا ، أبداً، إلا هذا! كل شيء إلا هذا! حاولتُ أن أرد عليها بأننا بالضبط عندما رفضنا إطلاق الأحكام لم يكن الوقت مناسباً مثل الحال التي نحن عليها الآن. فنحن صدّقنا كل ما قيل لنا من أكاذيب مفتراة ووعود باطلة، وتوقفنا في بحثنا عن طريقنا لأنَّ الإسلام أخذ ينحدر نحو الفاشية والنظام نحو الرعب وامتنعنا أيضاً عن إطلاق الأحكام. كنت أتمنى أن أقول لها بأن الناظر إلى النار من خلال مدخنة المدفأة ليس كمن يجد نفسه مكبل اليدين والرجلين في أتونها. كذلك كنت أتمنى أن أقول لها بأننا لا نحكم مثلما يحكم القضاة أو البوليس بل مثل البشر الذين لا يفهمون ولكنهم يرون موطن الداء، ما يقتل وما يذل. إن الحكم كالتنفس، فلا ينبغي أن نتوقف عن هذه الملكة، إنها هبة الله، ففيها إنسانيتنا كلها، ويجب ألا نقاول بها من الباطن أو نمنحها أي ريح لا ندري كيف هبّت ولا من أين جاءت. ألا سحقاً للتسامح لما يكون مرادفاً للجبن!

وأجبتها بصيغة جامعة مانعة صالحة لكل مقام ولكل مقال، لست أدري إن كنت قلت: "معك حق" أو "ممكن نعم، ممكن لا"، أو كلاماً آخر أحس به أكثر وهو من طبعي: "من حيث المعرفة، نحن عارفون، سيرمون به في الزبالة لأن الأمور تجري بهذه الطريقة. وفي بعض الأوقات يتحول مكبّ نفايات الجزائر العاصمة إلى دار حضانة يعج بالصبية الذين صاروا الآن يرمى بهم أحياء ولم يعد الفاعلون يتكبدون عناء الخنق. قد يقول قائل إنها تقاليد، جريمة، جنون، حكم، فالأمر سواء." ولكن بعد التفكير، أعتقد أني سكتُّ، ولم أزد على التنهد، فلقد كنا على طرفي نقيض؛ هي تستند إلى قاعدة السموّ الجوهرية وأنا كنت محصورة في فوضى الأيام أعزو كل أمر إلى حماقة الإنسان البائسة.

النهاية

أحياناً يكون الله يصغي إلينا
وأحياناً تضحك لنا الدنيا
وأحياناً يشع النور حوالينا
أخيراً.
ففي قعر الهاوية تترتب الأشياء
وهناك نكون
قريباً من السعادة والهنا
أو أدنى.

بعد الكلام يجب السكوت والدعاء بالقلب، وعندما يعود الهدوء يجب أن نستأنف المسير إذ لا شيء ينتهي أبداً.

شريفة مثواها اليوم مقبرة قديمة محاذية للدير. ويبدو أن المكان في طريقه إلى التحول إلى معلم من المعالم الأثرية لمن يخلفنا من الأجيال، وسيروي لهم نهاية دولة دالت بلا أمجاد. لم يعد الناس يدفنون فيها موتاهم، فالمنطقة أفرغتْ من أهلها، الإسلاميون لغموا معاقلهم في الأحراش والعسكر دمروا لهم بيوتهم، ولما أصبحت حياتهم لا تطاق هاجروا إلى الموت في مكان آخر، بالقرب من المدن، هذا فوق ذاك، في بؤس وشقاء. سيرجعون يوماً ما، أو سيرجع أحفادهم، كما ترجع الطيور المهاجرة لا محالة، ولكنهم سيكونون غرباء في ديارهم، فالحياة لا تنتظر أحداً والأرض حقود كنود.

فوق القبر شاهد من الرخام يحمل اسمها والتاريخين اللذين كانا معلماً لزمن مرورها على هذه الأرض.

شريفة

2002- 1986

لقد تم التصريح في شباك البلدية بأن المتوفاة بلا أهل، ولا محل إقامة وبأنها لم تكن تحمل أي وثيقة. وأضيف بأن البنت التائهة قدمت إلى الدير طلباً للمأوى لأيام قليلة، وهو ما قُبِل منها. ولكن للسماء حكمة فوق حكمة البشر وسبل لا يعلمها البشر إذ إنها ماتت في نومها. وأغفلتْ الأخت آن ذكر حالة الحمل والباقي. وفي بعض الظروف لا يكون البهتان خيانة إذا كان لصون الحياة. ولن يخرج السر من الدير أبداً.

لا شيء يؤثر في البيروقراطيين عندنا. إنهم يقتلون من أجل ثلاث قطع من ضلع خروف هزيل يتقاسمونها. وما داموا عديمي القيمة وأجرهم من العمل زهيداً فإنهم يذهبون إلى الإجرام كما يذهب ماء الغسيل إلى المجاري. إن المأمور الذي استقبل الأخت آن كان عنيداً، لم يكن يسمعها إطلاقاً، وكان يلوك تبغ الشمة وهو ينقّب في منخريه وعيناه مغمضتان. قالت الأخت آن مبتسمة: "كنت كمن يكلم جداراً لا حاجة له في السمع طوال النهار". ثم إن بنتاً مفقودة يعني بنتاً

مفقودة، فمنهن الآلاف، وفي كل يوم يفقد منهن الكثير، وتسجل الحالة في مسودة الحالة المدنية ويحفظ الختم. وإثباتاً لذلك، سلمت رخصة بالدفن ورد فيها أن المذكورة أعلاه مجهولة، ماتت ميتة طبيعية في دير أخوات سيدة الفقراء، الكائن ببلدية الشريعة. وبقي منها للذكرى ورقة قيد الانتظار في مكتب ما آيل هو نفسه للزوال في يوم ما. وستطوف مذكرة استبيان على جميع محافظات الشرطة في البلاد، وفي يوم من الأيام تذروها الرياح.

وحظيت المقبرة بعيداً عن المدن وبعيداً عن التهديدات بنوع من المناخ الهادئ كانت فيه في منأى داخل دائرة الصخر الرضراض إذ بمجرد أن تدخل إليها حتى تصبح لا تشعر بمرور الوقت. فالأشجار الراسية بصلابة في الأرض الحجرية كانت تقوم بحراستها برصانة المتعبد البوذي. وهكذا كان كل ذلك يدعو إلى الطمأنينة في الصيف، وأكثر من ذلك في الخريف، ثم أكثر فأكثر في الربيع حيث تأتي العصافير تنشر ضوضاءها في ثنايا الأغصان، ولكن المنظر الذي تصنعه الحياة، وهي تحرك الريح في بلبلة وكذلك في جو من البهجة هو منظر جميل فعلاً. وهكذا كان شأني لما كانت الأيام تبدو لي عبارة عن مسلك من المتاعب والتيه في الصحراء عندما حط عصفور على كتفي،

وزقزق "كوي ـ كوي، كوي ـ كوي" في أذني وهو يثب مُظهراً خفته. لم أكن أفهم، فحياتي لم تكن إلا سكوتاً في سكوت، وطقوساً مثبطة، وهراء واهياً لا قيمة له. وتعلمتُ منذ ذلك الوقت لغة العصافير، آهٍ، كم هي جميلة لغة العصافير. وكذلك قطط الخلاء فإنها ستأتي تحك جلدها بالأشجار وتموء في ضوء القمر، وتتظاهر بأنها في قيلولة على السور الحجري هي التي هجرت البيوت الدافئة ونسيتْ أصحابها إلى الأبد. من جهتها ستتذوق أغصان الأشجار الواطية طعم الدم وفي الذروة تتعالى زقزقة مهتاجة تفزع لهولها فزاعة الحقول، وذلك في يوم يكون الأمان قد استتب في الربوع. وهكذا هي القطط، ولا نلومها على طباعها، هي بالمرصاد بالسليقة. كذلك سيكون لشريفة فصل الشتاء كله لتنام كالملاك، في تلك البقاع من حوض البحر المتوسط البهيج حيث لا تمطر السماء إلا لتبلل العشب، ولا تهب الريح إلا لنفض ريش البومة. أما السماء ففيها من العمق السحيق إلى درجة أن كل شيء يضيع في الطريق، حيث الليالي قصيرة جداً إلى الحد الذي لا تمهل الحالمين بالتفكير في الأسوأ. في حين أنَّ البرد قارس ولكن ليس كالقطب الشمالي، فهو لا يقتل حتى متسكعاً شارداً. وبالنسبة للأموات الذين تنعموا بمباهج الدنيا أحياء فإن الجو لحن عاشق يُعزف أمام مدفأة نار. وفي الأخير، هناك في النوم ما يكفي

طوال أشهر ثلاثة متتابعة عندما تكون نفس هذا النائم متقلبة وله الخلود كله لينام.

ومن جهتي، فقد أضفتُ بقلم اللبد العريض على شاهد القبر سطراً ستمحوه الشمس قبل أن تغرب:

أمها التي تحبها

واسترجعتْ ذاكرتي الكلمة التي كنتُ قد قذفتُ بها في وجهها: حراقة. "أنتِ حراقة، هذه أنتِ وستنتهين هكذا!"

يا إلهي، كم أنا شريرة عندما لا أسمع صوتي عالياً بالصراخ.

سامحيني، يا عزيزتي. قلت هذا وصرختُ حتى طار رشاش لعابي، ليس لأنك لم تكوني تسمعين بل لأني لم أكن أدري: كنتِ تبحثين عن الحياة وعندنا لا نحسن الحديث إلا عن الموت.

وتلقّتْ الأخت آن أفكاري. واستدرتُ بحركة واحدة حيث كانت نظراتنا تتناجيان من وراء ستار الدمع. ولمحتُ قوة في وجهها البسيط الذي يتآكله الأسى، أما وجهي فكان يدل على الضياع وعلى العجز والأسف

الذي يأبى الراحة. لقد رفت عيناها في رقة لا حدود لها، ومن خلال شفتيها المنقبضتين لمحتُ نداء يقول لي: "تضرعي إلى الله بالدعاء فليس لنا إلا هو للتغلب على الخوف والعثور على الجادة القويمة.

أين السبيل؟
مَنْ مِنَ المجهول
يصوغ من بلد الأصل
عشقي ومحياي
ومماتي؟

ورأيتُ أني كنت ميلودرامية فعلاً، وحمقاء قليلاً، لما كنت في قاع الهاوية أكتب مثل هذا الكلام، وها هي الحقيقة تظهر أكثر إيلاماً إلى أبعد الحدود. وشعرتُ بالشهقة.

وجثيتُ على ركبتي وقبّلتُ الشاهد ودعوتُ الله.

يا إلهي يا رب السماوات، انتقلتْ إليك شريفة ابنتي. هي في السادسة عشرة، لا شيء يكسو عظامها، والحياة لم ترحمها. لم أعرف كيف أحميها، ولم تُتح لي إلا بضعة شهور قليلة لأعثر عليها في هذه الدار غير المرتبة وأكتشف أنها كانت ابنتي. خذ بيدها يا رب،

ارعها بحبك كما أحببتها أنا في الأرض، ولكن احرص على ألا تغادر حتى جنتك وتعيث فيها الفوضى العارمة. إن فاتنة مثلها في وسط جميع الأرواح البهية في فساتين الحرير الأبيض أمر لا يوحي بالجد، ولكن أمهلها بعض الوقت يا رب، فإنك سترضى عنها في شذوذها عن القاعدة. أُشفّعك يا إلهي على أن تقول لها بأني لم أكن أقصد إيذاءها لما قلتُ لها إنها حراقة. إن هذا البلد يحكمه أناس لا ضمير لهم، صيّرونا قوماً على صورتهم، صغاراً وأشراراً وجشعين أو ثائرين منكمشين على أنفسنا في العار والشنار. إن أطفالنا يرزحون تحت المعاناة، إنهم يحلمون بالخير وبالحب وباللهو واللعب وهم يجرّوهم إلى الشر والبغضاء والفراغ. ولم تبق أمامهم إلا هذه الوسيلة للعيش، وسيلة الحراقة، سلوك الطريق بلا أمتعة وبلا وثائق سفر، كما كنا في الماضي نحرق سفننا لنقطع عن نفوسنا خط الرجعة. أخي الأخرق، سفيان، هو أيضاً يعاني الحياة القاسية، أعنه يا رب وأوجد له مخرجاً. وانظر بعين الرحمة إلى لويزة العزيزة، حبة الجزر اللطيفة، إنها تعاني الأمرين في جحيم الأرض، إن هذا ليس عدلك. أشكرك على أنك مننتَ عليّ ببنت وحفيدة عندما لم أكن أرجو شيئاً من الحياة. ولتصدقني يا رب بأني لن أكون لك من العصاة. ولتنقل عني سلامي إلى والديّ وإلى شقيقي ياسين، واحفظنا جميعاً. آمين.

واستنشقتُ بملء رئتيّ، ودبت طاقة الحياة وانفجرت في ذاتي. كنت كالسفينة التي تنجو من الجنوح وتستأنف الإبحار. كنت أحس بقدرتي على فعل أي شيء. أجل، إني حقاً لست من الصنف الذي يستسلم بسهولة أو يتوقف في منتصف الطريق، وطمعتُ في أن أطلب هذا من الله أيضاً:

أتوسل إليك يا رب أن تلحق بك الأشباح المقيمة عندي في الدار، مصطفى ورفاقه. إنهم أهل للراحة، خانتهم الحياة وأهملهم الموت، وأعتقد أنهم سئموا من التيه طول هذه المدة. إنهم رفاقي، آزروني لما كنت أنا نفسي خيالاً في ثنايا الجدران، ولكن الآن صار لي صبية يجب أن أربيها وأرعاها، وأنا في حاجة إلى نضارة وضياء.

كنت أتساءل إن كانت حياتنا ملكاً لنا خالصة وكنت عاجزة على أن أجد معنى لها مع أن كل شيء يأتي في أوانه. هل كنت غبية عندما كنت أطرح مثل تلك الأسئلة، لم أكن أدرك شيئاً، آنذاك كنت ميتة فتحت عينيها في التو على الحياة.

قبّلتُ آن، وضممتُ لويزة ابنتي إلى صدري واستقللت التاكسي، وقبل أن ينعطف في أول منعرج

استدرتُ إلى ذلك المكان، ذلك الدير، حيث ولدت مرة أخرى. كانت الأخوات يلوحن بأيديهن بفرحة وحبور ولكني كنت أعرف وكنت أحس أنهن كن يبكين في أعماقهن بحرقة.

وأما شهريار الذي كان مبتهجاً وراء نافذته وهو يتطاير فرحاً كالأحدب فقلتُ له: أي نعم، يا شهريار، لقد رأت الأخت آن رأياً صائباً، لقد عادت إلينا شريفة! كنت ملهمة، الأخت آن موجودة فعلاً! إن هذا الناسك المتوحد العجوز أهل لأن أحمل إليه لويزة الصغيرة ليراها وأقول له إنها شريفة بعدما هزلت من جراء هروبها وشرودها. وفي السن الذي هو عليها وقصر البصر الذي هو فيه لن يلحظ شيئاً وتنطلي عليه الحيلة، ثم عندما تبتسم له يقع مغشياً عليه.

وفي طريق العودة لم ينبس السائق الخدوم والخطير بكلمة، بل إنه ظل يتمتم في سره، أما أنا، فلم أكن أسمع شيئاً، حتى الخردة التي كانت تقلنا وهي تنزف زيتها وتختنق، إذ إن الخطب التي يهوى روايتها صباح مساء هو وأمثاله لن تستطيع أن تنالني لأنني أصبحتُ أحلم بعالم جديد.

لويزة يا بنيتي
لما الشمس تشرقْ

على أول بسمة فيك
نستقل الطريق
نكون أصبحنا حرافة.

لويزة يا عشقي
سننفض الأحزان عنا
سنغسل الأدران منا
في أول جدول
هكذا يفعل الحرافة.

لويزة يا قرة عيني
سنسلك سبلاً جديدة
نفتش أين تنبت الزهور
وإلى أين تمضي الطيور
هكذا هم الحرافة.

لويزة يا فؤادي
سنلقى الطريق والزمن
سنتعلم الحياة
ونتعلم الضحكة
هكذا يحلم الحرافة.

لويزة يا حياتي
لما الشمس تشرق

على أول ربيع فيك
نكون قد وصلنا إلى بعيد
هكذا يمضي الحرافة.

يا صغيرتي
يا حبي
ويا قلبي وحياتي
كما كانت أمك يا بنيتي
نصبح حرافة.

النهاية

كتبت في منحدر فالي
في عام 2002 في دار ملك الله
(هذا هو اسمها في الوقت الحاضر)!

المحتويات

طبع في مطابع

مؤسسة مصطفى قانصو للطباعة والتجارة

بيروت – لبنان ــ هاتف وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٤٧٥٩٠٥

أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٧

حراقة

دار يتآكلها الزمن وينخرها على مضض. أشباح وذكريات عفا عليها الزمن تظهر وتندثر. ومدينة ضالة لا تلوي على شيء، تتهاوى بفعل الملل والتسيب والخوف من الحياة. وحيّ، منحدر فالي، الذي يبدو أنه فقد علة وجوده. وفي كل مكان من شوارع مدينة الجزائر الغاصة بالخلق يستعد الإسلاميون ومن بيدهم مقاليد الحكم لكل طارئ ولكل المهمات ولو على أرواحهم، الرجال وحدهم معنيون أما النساء فلا حق لهن في الإحساس ولا حتى في الفسحة. والشباب الغائب المغيب إلى حد الوقاحة يحلم وهو يدير ظهره إلى الحيطان بالأرض الموعودة. ذلك هو العالم المغالي في كل شيء والاعتيادي جدا الذي تعيش فيه لامية أياما رتيبة ملؤها الوحدة والجنون الهادئ. وفجأة تهل عليها شابة يافعة طائشة آتية من عالم آخر، تقول إن اسمها شريفة. وتستقر لديها وتعيث فوضاها في سائر الأرجاء، ثم تجعلها، طوعا وكرها، تفكر وتثور وتحب وتؤمن بالحياة التي كانت قد صرفت عنها النظر وأمعنت في كرهها.

بوعلام صنصال، من مواليد عام 1949، يعيش في بومرداس بضواحي الجزائر العاصمة. لقيت روايته الأولى قَسَمُ الهَمَج، الاستحسان بإجماع النقاد والجمهور. ورواية حراقة هي رابع رواية له.

ترجمة : عيّاش سلمان

ISBN 978-9953-71-246-8



